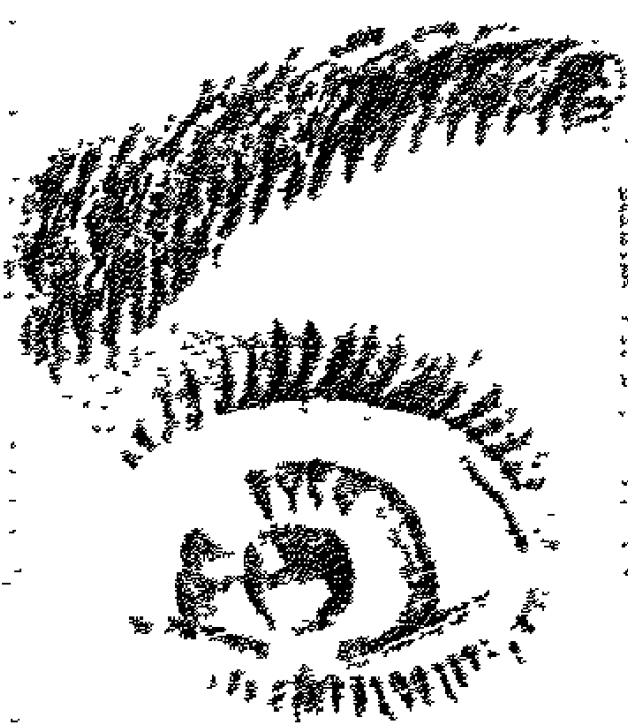
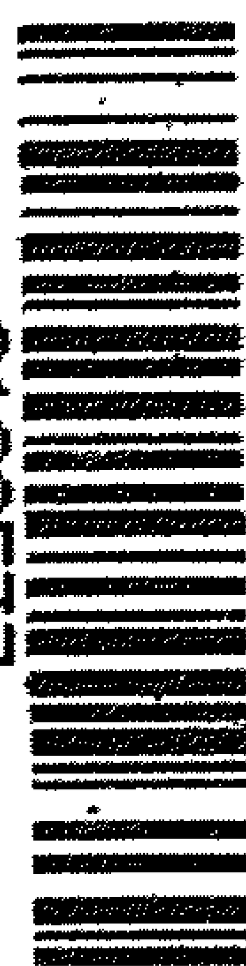
سكوت روسون

كابوس في إسرائيل







ترجمة

إلهام رحال


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين



دمشق ـــ اوتوستراد المزة
هاتف
٢٤٤١٢٦ ـــ ٢٤٣٩٥١ ـــ ٢١٣٨٢١
تلكس: ٤١٢٠٥٠
ص. ب: ١٦٠٣٥
العنوان البرقي
طلاسدار
TLASDAR



ريع الدار مخصص
لصالح مدارس أبناء الشهداء في القطر العربي السوري

كابوس في إسرائيل

الطبعة الأولى
١٩٩١

سكوت روستون

كابوس في اسرائيل

ترجمة

إلهام رحال

مكتبة المهتدين الإسلامية

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

يحكي الكتاب قصة خيبة أمل مهاجر يهودي أمريكي إلى أرض الميعاد، كانت أشبه ما تكون بالكابوس وهو عنوان الكتاب. يمكن ادراج المؤلَّف تحت عنوان الرواية الوثائقية، فهو يعالج عدة قضايا في المجتمع الإسرائيلي وعلى رأسها: البيروقراطية في بنية الدولة، التمييز العنصري بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين، التمييز بين اليهود والعرب، النظام البوليسي وأدوات التعذيب الشبيهة بتلك التي كانت تُستخدم في سجون ألمانيا الهتلرية، واستغلال الحكومة الإسرائيلية وابتزازها للحكومة الأميركية وأموال الشعب الأمريكي وعلاقة الابتزاز الإسرائيلي بالقرار السياسي الأمريكي فيما يتعلق بقضية الشرق الأوسط.

الإهداء

إلى والديّ، صوفيا وساي اللذين عملا
على اطلاق سراحي من الخارج، بينما
كنت أخوض المعركة النفسية من
الداخل.

اثنان وسبعون يوماً قبل اقتحام السفارة الأمريكية في ايران ، بدأ شاب أمريكي صراعه من أجل البقاء. فلم لا يُطلع الشعب الأمريكي على محنته؟ هذه هي القصة الحقيقية لصراعه من أجل الحياة.

كلمة شكر

أود أن أسجل الشكر للسيد آلان الذي قدم النصح لوالديّ في أوقات يأسهم وقنوطهم.

كما أود أن أشكر الولايات المتحدة الأمريكية، التي غرست في نفسي الروح الأمريكية والبراعة الأمريكية فلولاهما لما استطعت احتمال محنتي على الإطلاق.

وأشكر الله الذي حفظني وأعطاني القوة على البقاء.

الفصل الأول

الاعتقال

كانت الأصفاد تحز معصمي بينما سيارة الشرطة تسرع بنا في شوارع مدينة ناتانيا بإسرائيل. وكان رجال الشرطة الثلاثة بثيابهم البسيطة يرتدون الجينزات المهترئة مثل أي إسرائيلي نموذجي، قمصان بأكمام قصيرة وصنادل جلدية. وبرغم أن جسمي في حالة خدر من عدم التصديق، فقد كنت مازلت قادراً على الإحساس بكل حفرة في الطريق بينما السائق يناور بعربته دون أية مهارة، عدم المهارة تلك التي تضع السائقين الإسرائيليين في المرتبة الثانية من أسوأ سائقي العالم (سائقو طهران هم الأسوأ) ولم كان عليهم أن يقيدوا يديّ خلف ظهري؟ ربما كانوا يتلذذون بسادية لرؤيتهم لي أُضرب وأتأرجح من الخلف إلى الأمام، بين باب السيارة والضابط الجالس إلى جانبي والذي يذكرني بنموذج رجل النياندرتال، الذي شاهدته في متحف التاريخ الطبيعي في مدينة نيويورك، كان ذلك الضخم البليد يلكمني بمرفقه في كل مرة يُلقى بي إليه ويدمدم بصوت يخرج من حنجرته كأنه خنزير يغني لأنثاه. كان شركاؤه في المقعد الأمامي ينظرون إلى الخلف بين الآونة والأخرى وهم مغتبطون لرؤية صديقهم في تلك الحالة من النشوة. معصماي وهما يتحسسان الألم لم يستسيغا تلك المتعة المريضة لدى هؤلاء الرجال.

لم أكن غريباً عن ناتانيا، ولكن لم أستطع أن أفهم لم بدا الوصول إلى مركز الشرطة، طويلاً لساعات بدلاً من خمس دقائق. أعتقد أن الأمر متعلق بي. هذه أول تجربة لي في الاعتقال، فكيف أعرف رد الفعل على كل ذلك؟ لم أستطع أن أوقف الغثيان الذي بدأ ينتابني. شعور مريع بالعجز يغمرني. كنت أعلم أن خطأً ما كان يحدث لي. لم يقرؤوا لي (حقوقي). لقد شاهدت برنامج عن الشرطة لسنوات طويلة وأذكر أنه يُفترض بضابط الشرطة أن يتلو علي حقوقي. ولكني لست في بلدي، في الولايات المتحدة الطيبة القديمة. سمعت مرتين في الأشهر الخمسة الأخيرة عن الأساليب التي يتبعها رجال الشرطة الإسرائيليون، ولكن أعتقد أنك لا يمكن أن تعرف حقيقة ما يعني هذا حتى تعانيه بنفسك.

مررنا أمام محطة الباصات الرئيسية، واتجهنا يميناً في شارع هرتزل، وعند قمة المرتفع اتجهنا يساراً، وكان بإمكاني رؤية مركز الشرطة بعيداً، على الجانب الأيمن من الطريق. اتجه السائق بقوة إلى اليمين، إلى موقف السيارات وهو يقذف بي ثانية نحو الشرطي تشكلز. توقفت السيارة فجأة، الأمر الذي جعلني أندفع باتجاه المقعد الأمامي وبدلاً من أن أخرج من السيارة من الباب المجاور لي، تمطّى تشكلز عبر المقعد وسحبني من أصفادي وأخرجني من الباب الذي بجواره ممسكاً بالأصفاد، واتجه أربعتنا من السيارة إلى داخل المبنى وهو يردد بالعبرية: «تحرك، تحرك».

دفعوا بي إلى المقعد الرئيسي موضحين، بالعبرية، أنني الرجل الذي أصدرت تل أبيب المذكرة بحقه. ثمّ صعدت مع مرافقيّ بضع درجات عبر ردهة طويلة، قرع أحد الضباط الباب وأجاب صوت من الداخل بالعبرية «دقيقة واحدة».

فتح الباب رجل بين الأربعين والخمسين من عمره، طوله من خمسة إلى ستة أقدام، ذو شعر أشيب مبيض وبشرة سمراء. خمنت، من طريقة لباسه، أنه لا بد ضابط ذو أقدمية. كان يرتدي قميصاً قصير الأكمام وبنطالاً غامق اللون وحذاء عسكرياً نظامياً. عادة لا يرتدي هذا اللباس في حمأة الصيف في إسرائيل سوى المحترفين والموظفين الكبار. سألني إن كنت أتكلم العبرية، رد فعلي أدهشني، قلت: «قليلاً» اعتقدت حينها بأن الوقت هام لدرجة لا تسمح لي بفرصة عدم فهم أي سؤال ما. بالطبع أنا أتكلم العبرية، وبشكل جيد، لكنني تعلمت

في السنة الأخيرة من إقامتي في إسرائيل أن كثيراً من الإسرائيليين مواربون. ففي كثير من الأحيان، عندما يعتقدون بأنني لا أفهم لغتهم، كانوا يقولون حقيقة رأيهم في الأمريكيين. وفي حال ما إذا كان هؤلاء الضباط يفكرون بالاحتيال علي في شيء ما، سأكون مستعداً. فقد تزل ألسنتهم بما كان يجري. في السيارة لم يوضحوا لي لَم أُعتقلت، والطريقة التي عاملوني بها حتى الآن لا تجعلني مطمئناً إلى أنهم سيجاملوني. قال الضابط الكبير مشيراً إلى طاولة متطاولة: «أجلسه هناك». أشار تشكلز إلى كرسي بجانب الطاولة وضغط على أصفادي يجبرني على الجلوس. قال الضابط الكبير: «سأعود بعد لحظة، عليَّ أن أحضر من يجيد الإنكليزية» وخرج، بينما بقي تشكلز والآخرون معي. أطول الضابطين استدار إلى تشكلز قائلاً: «أعطني سيجارة، لا أملك واحدة» أجابه النياندرتال: «دعك من هذا، رأيتك هذا الصباح ومعك علبة كاملة، أعطني واحدة يا بخيل». استاء الضابط تماماً وتناول علبة من جيب سترة الرجل الذي يحرسني، علبة مملوءة بالسجائر. قال تشكلز وقد بدا عليه مظهر طفل ضُبط وهو يكذب، «آسف، اعتقدت أني لا أملك واحدة» نظر إليه رفيقه باحتقار واضح وقال: «ألا يمكنك أن تأتي بقصة جديدة؟» واختطف سيجارة من العلبة وأشعلها بسرعة دون أن يشكر من أعطاه إياها ثمّ قذف بعلبة الكبريت إلى تشكلز. بينما كان الرجل ذو الشعر الأشيب يعود مع آخر يرتدي نفس اللباس ويبدو أصغر منه بقليل: «ماذا يجري هنا»، قال الرجل الأكبر مهتماً بما كان يحدث أثناء غيابه «لا شيء» أجاب جميع الضباط مرة واحدة. «اجلسوا» قال الضابط الكبير، جلس الشخص الجديد قبالتي ونظر في بعض الأوراق أمامه وسأل إن كنت أنا سكوت روستون: «اسمي سكوت روستون س ــ ك ــ و ــ ت ــ ر ــ و ــ س ــ ت ــ و ــ ن».

نظر في الأوراق أمامه ثانية وقال: «أنت في إسرائيل منذ سنة ولا تتكلم العبرية ؟ كيف ذلك؟ ألم تذهب إلى المدرسة؟» «كنت في المدرسة ولكن لم أتعلم شيئاً». فرأيت الدهشة في عينيه. استدار المحقق إلى الرجل الأشيب وسأله بالعبرية إن كنت قد قلت أي شيء عن سبب ضربي (للمرأة). فجأة شعرت بقلبي يخفق بشدة في صدري، وحاولت ألا أظهر أي انفعال خشية أن يبدو أني قد فهمت الحديث. قال الرجل الكبير، إني لم أقدم أية إفادة بعد. وكما قال لوك سكاي ووكر في فيلم (نجم الحروب) كان لدي إحساس سيئ بما

كان يحدث. شعرت بكل العيون تتجه إلي بينما المحقق يسألني «لم دخلت شقة السيدة (كن) عنوة، ضربت السيدة (كن) وهددتها بالسكين؟». وعندها تركت المجال لعواطفي: «لم أفعل أي شيء من هذا القبيل. إن كنت تتحدث عما حصل في بيت (كن) يوم أمس، كنت أحاول حمايتهم. لم أؤذ أو أهدد أحداً. من قال إني قد فعلت ذلك؟» وبدأت فعلاً أشعر بأني وحيد.

«لقد طلبت عائلة (كن) أن نوقفك. السيدة (كن) في المستشفى بسبب ما فعلته لها. هل تقول إنك بريء؟» لم كذبت عائلة (كن) بعدما عرضت حياتي وحياة والديّ للخطر لحمايتها؟ وشعرت بالدمع يتجمع في عيني.

«ماذا عن النقود التي سرقتها منهم؟ ألم تَسْطُ على منزلهم، وتقيّد السيدة (كن) إلى كرسي وتضع شيئاً في فمها؟ ماذا عن البزة التي كنت ترتديها؟ لم ضربتها على رأسها بعصا؟؟» لم أصدق عم كان يسأل. لدقائق قليلة جلست محاولاً فهم ما كان يعنيه ذلك. كان الجميع يحدقون بي.

«هل بإمكاني توكيل محام؟» ضحك المحقق ثم نظر إلي طويلاً. ولكنك قلت إنك بريء! فلماذ تحتاج إلى محام إن كنت بريئاً».

«لا أحد أخبرني سبب إحضاري.. قال لي الضابط علي أن آتي معه فقط مصطحباً جواز سفري وشهادة قيادة السيارة.. سألته لماذا؟ ولكنه لم يخبرني شيئاً.. ما من أحد من الضباط أخبرني أي شيء.. الموقوفون في الولايات المتحدة لهم بعض الحقوق.. أريد...»، انفجر في وجهي قائلاً بالعنجهية المعتادة لدى العاملين في الدولة الإسرائيلية «تريد، هنا ليس الولايات المتحدة، هنا إسرائيل، أنتم الأمريكيون تعتقدون أنكم تستحقون معاملة خاصة، أليس كذلك؟ كف عن التشدق بحقوقك وأجب عن أسئلتي، إن كنت تعرف صالحك». في الحقيقة لم أُصدم بموقفه، لأني صادفت مثل هذا التصرف مرات عديدة في السنة الماضية وقبلها. حاولت البقاء هادئاً. لم يكن ليستطيع التهويل علي، لن أدعه يفعل ذلك. نظرت إليه وقلت: «لن أجيب على أي من أسئلتك دون محام.» تشاور الضابطان الكبيران وقال أكبرهما لزميله بالعبرية «لا تقلق سترسل تل أبيب أحداً خلال ساعات ليأخذه إلى المدينة. إنها

مشكلتهم وليست مشكلتنا. سيأخذون إفادته هناك. وإذا ما قام بأية مشاكل فسيعرفون ما يجب عمله. إضافة إلى أن هذا لا يقع في حدود سلطتنا». هز الضابط الأصغر رأسه وقال: «بالطبع أنت على حق مئة بالمئة. هذا من اختصاصهم. أوكي». تظاهرت بأني لا أفهم ما كان يدور بينهم.

سحب الرجل الكبير الهاتف من على مكتبه في الطرف البعيد للطاولة المتطاولة، وأدار القرص وتحدث قائلا: «لقد انتهينا من سكوت روستون، سأرسله إلى زنزانة التوقيف ريثما يأتون من تل أبيب. لسوء حظه لم يدل لنا بإفادة كاملة، يريد محامياً. سكت الضابط بينما كان المتحدث على الطرف الآخر يقول شيئاً وهو يجيب بـ «أوكي، أوكي»، وانتهت المكالمة، أعاد الضابط سماعة الهاتف مكانها وقال «سنرسلك إلى زنزانة التوقيف ريثما تأتي الشرطة من تل أبيب ليأخذوك إلى مركزهم» ثم استدار إلى الشرطي تشكلز وخاطبه بالعبرية أن يأخذني إلى زنزانة التوقيف. مثل الرجل الآلي، وقف تشكلز ورفعني من مقعدي ثم قادني في الردهة وهو يضغط على أصفادي يتبعه اثنان من مساعديه. في الطريق ونحن ننزل الدرج كدت أقع للطريقة التي كان يدفعني بها (نياندرتال) على درجات السلم. لكنه شد من قبضته على أصفادي ورفعني إلى أن استقمت على قدمي ثانية. ماذا يهمه إن أثّر ذلك على معصمي؟ كان بإمكاني أن أطلب فك قيدي وأنا في الأعلى، ولكنهم كانوا سينظرون إلي وكأني ضعيف وأقل منهم. كنت أفضل الموت على الإذعان لتمردهم. وماذا عنى الضابط بقوله «إذا ما قام بمشاكل فسيعرفون ما يفعلون؟».

أعادوني ثانية إلى مركز الشرطة للاستجواب وقد أزالوا أخيراً الأساور من معصمي وعادت الدماء إلى يدي. كنت أشعر بنبض الدم يجري طبيعياً في عروقي. كان معصماي يؤلماني، كألم ضرس يعلم به طبيب. الضابط في مقعده ببزته العسكرية، طلب إلي بالعبرية أن أفرغ جيوبي. نظرت إليه بارتباك فقال تشكلز «لا يتكلم العبرية» فقال بأفضل ما لديه من إنكليزية «اخرج جيوبك خارجاً». حاولت أن أشرح لهم بأن جيوبي فارغة، ولكنهم بدؤوا يهزؤون بي مثل مجموعة من القردة أمام شيء جديد مسل، لم يكن لدي خيار، قلبت جيوبي خارجاً بسرعة. فأشار الضابط من مقعده إلى حزامي ورباط حذاء التنس الذي أرتديه. أزلتهما

ووضعت الجميع على المنضدة. وصل تشكلز إلى عنقي وأمسك بالسلسال الذي أرتديه وقال «اخلعه». وضعت السلسال والقطعة المتدلية منه بجانب حاجياتي الأخرى وانتظرت بينما الضابط يكتب ايصالاً بهذه الحاجيات. وعندما انتهى ناولني قلماً وأشار علي أن أوقع، ففعلت. وأخيراً أعطاني نسخة من الايصال وأخبر رجاله الثلاثة بأنه سيعنى بي منذ الآن.

أخذوني إلى باب معدني ثقيل فُتح بمفتاح كبير واجهنا بعده باب سجن مثل ذلك الذي تشاهده في التلفاز. ذكرتني رائحة المكان برائحة غرفة الأدراج المقفلة التي كنت أصادفها في المدرسة والكلية بعد إنهاء تدريبات المصارعة. فُتح الباب الثاني ودفعني أحدهم دفعة خفيفة إلى داخل ردهة تفضي إلى بعض الزنزانات. كانت الزنزانات جميعاً بدون أبواب، مما يسمح لجميع الموقوفين بالحركة والانتقال من زنزانة إلى أخرى. وعندما سمعت صرير الحديد خلفي وصوت إغلاق الباب اعترتني قشعريرة رطبة بدت وكأنها تضمني لجميع الأبرياء في العالم، الذين أُقفل عليهم باب زنزانة، بخاصة أبناء وطني الأمريكيين. وأستطيع أن أقول الآن: «أعرف كيف شعرتم عندما أغلق عليكم الباب بذاك الصرير». مشيت إلى الداخل، إلى المهجع الأول، الذي بدا وكأنه خال. كانت جميع الأسرة قذرة جداً عدا واحداً. كانت جميع المراتب ممزقة، يطل الاسفنج المتقصف الهش من ثقوبها. أزحت فتات الاسفنج من على إحداها، بدت وكأنها غير مشوهة، وجلست. إسرائيلي يافع، في نحو العشرين من عمره، دخل المهجع وسألني بالعبرية إن كان لدي سيجارة. أخبرته إني أتكلم الإنكليزية. فأعاد سؤاله بلغتي. قلت إني لا أدخن. سألني: «لماذا أنت هنا؟» ورغم أنه لا يتكلم الإنكليزية جيداً فقد أعجبتني حقيقة أنه حاول أفضل ما يمكن. لو أني أردت، لتحدثت معه بالعبرية ولكن كيف لي أن أعرف أنه لن يخبر الشرطة؟ فالمعاملة التي عاملتني بها السلطات الإسرائيلية حتى الآن جعلتني أتجنب المخاطرة بأعمال تعود سلباً علي.

«من الخطأ أن أكون هنا»، حاولت أن أشرح له أنني بريء، ولم أستطع إلا أن أتساءل: لم الآخرون هنا، بدا اثنان منهم بمظهر رخيص وبدا آخر بعمر الصبي الذي أحادثه. رجل بثياب شديدة القذارة في نحو الخمسين من عمره كان يطل برأسه بين الفينة والأخرى ويسأل بالعبرية عن الوقت. ما من أحد منا كان لديه ساعة ولذا لم يكن يحظى بجواب.

لاحظت أن الجميع بدون أحزمة أو أربطة أحذية. ترى هل يعتقد رجال الشرطة فعلاً بأن أحداً قد يشنق نفسه؟ أو ربما كانوا خائفين من أن يحاول أحد منا أن يقفز على الحارس بأربطة الحذاء؟ في أمريكا في مدينة يبلغ عدد سكانها ١٠٠,٠٠٠ نسمة يكون السجن فيها أنظف من هذا بكثير. سألت الصبيين لم هما داخل السجن فأوضحا أنهما ضُبطا وهما يدخنان المارجوانا وأنهما أوقفا من قبل بتهم مشابهة، ولكن الذي حدث وقتها أنهما دفعا مبلغ مئتي ليرة (تساوي ٥ ـــ ١٠ دولارات في حينها) كغرامة. وجدت ذلك مسلياً، حيث كنت قد قرأت مقالات عديدة عن الشباب الأمريكي الذين أوقفوا بسبب نفس النموذج من الجنح وسجنوا لمدد تصل إلى عشر سنين! مازال عالقاً بذهني قصة لليون فاين تقول إن للشرطة الإسرائيلية حرية أن تفعل ما تشاء فإذا ما أوقفوا شخصاً أو فتشوا إنساناً أو سيارة أو ممتلكات شخص ما بشكل قانوني يبقى الدليل مقبولاً في المحكمة. وبأنه لا يوجد أي قضاء في إسرائيل.

سألت: لم الآخرون في السجن؟ كانت الإجابات مدهشة أحدهم أُلقي القبض عليه وهو يبيع الحشيش وعليه أن يدفع الغرامة فقط. رجل آخر أُدخل السجن بسبب تصرف غير انضباطي وطُلب منه أن يمضي الليلة هنا. الجميع كانوا إسرائيليين. وكان من الواضح أن القانون الجنائي الإسرائيلي مهتم بتدمير حياة الشباب الأمريكي أكثر من اهتمامه بإصلاح الجانحين ذوي السوابق منهم. لسبب ما، يعتقد الإسرائيليون أنه بسبب أن قوانينهم كُتبت بالعكس (من اليمين إلى اليسار بدلاً من اليسار إلى اليمين) فيُفترض بهم تطبيقها بشكل عكسي. كم من مرة حاولت بلباقة أن أظهر لإسرائيلي طريقة أفضل لفعل شيء ما، لكنه كان دائماً يرفض اقتراحي بسبب الجهل؟ لم أحاول أبداً أن أتصرف بأفضل مما فعلت، حاولت تقديم المساعدة فقط، وسعيت دوماً أن أكون متعاطفاً وصبوراً. ولكن العنجهية نفسها دائماً، وعلى الأغلب لا تتغير. لم أكن أعرف من قبل مدى عنجهية ذلك الشعب بخاصة تجاه الأمريكيين. يمكنني فهم الجهل، ولكن لا يمكنني قبول إنسان يستعمله كركيزة، خاصة بمثل تلك العنجهية! لم أعرف لماذا ولكن بشكل أو بآخر يحمل الشعب الإسرائيلي كراهية كبيرة للأمريكيين. إنهم فقط يتمتعون بالمساعدات التي نرسلها لهم. ربما يجب ألا يُلقى باللوم على الناس فأنا أميل من خلال تعاملي الروتيني مع الموظفين الإسرائيليين في الماضي، إلى

الاعتقاد بأن الحكومة الإسرائيلية قد جعلت الشعب الإسرائيلي منحازاً ضدنا. ولكن علي الآن أن أفكر بما كان يفعله هذا النظام المتخلف بي. للساعة الماضية كنت أُعامل بطريقة تجعل من جميع رجال الشرطة في أمريكا ملائكة. لم أفعل أي شيء في حياتي يستحق أن تعاملني السلطات بسببه بهذه الطريقة. لم أرغب في مواجهة ذلك ولكن من الواضح أني كنت أُحاط بإطار. إذا كانت عائلة (كن) قد قدمت تلك الشكوى الكاذبة، التي أخبرتني عنها الشرطة، فأنا في مشكلة كبيرة. أنا أثق في أمريكا بالقانون الجنائي، ولكن هنا أحس بأنني أُعامل وكأنني مذنب. ولكني لست مذنباً، فأنا بريء، متى سيأتيني المحامي. لم يعطني البوليس فرصة حتى لتوضيح ما حدث في شقة عائلة (كن) ليلة أمس. سمعت صوت الباب المعدني للزنزانة يُفتح «الطعام، طعام ممتاز»، لا بد أنه طعام الغذاء. هكذا بدا من الطريقة التي كان يصيح بها الحارس. قدم لي طبقاً من الحساء برائحة جعلت معدتي تضطرب. هل يتوقعون أن أحتسيها فعلاً؟ لمعت في مخيلتي صورة لسقراط وهو يتناول نبات الشوكران السام. رفضت الحساء ثم أعطوني كسرة من الخبز.

لم أجرؤ على تناول أي شيء بسبب الحالة التي عليها معدتي في ذلك الحين. ترك الشباب المهجع يبحثون عن مزيد من الطعام بينما استلقيت على الفراش وقد شبكت ذراعيَّ فوق عيوني محاولاً أن أفهم كل ما يحدث لي. كان جميلاً لو استطعت أن أطمس ما حدث لي ببساطة. كيف بحق السماء وصلت إلى هذا الوضع؟ ما هي الإساءة التي قمت بها لأُعاقب بهذه الطريقة؟ لم بحق السماء قدمت إلى هذا البلد؟ وعدت بذاكرتي إلى الوراء، إلى اللحظة الأولى التي خطرت لي فيها فكرة القدوم إلى إسرائيل. غرقت في سريري وقد بدأ القلق ينتابني رغبت في أن أعود لبلدي آمناً مطمئناً.

الفصل الثاني

العقبات الأولى

تذكرت، عندما حولت من نيويورك إلى كلية تقويم العمود الفقري يدوياً في جورجيا عام ١٩٧٧، بحثت مع والدي أني سأقوم بالتدريب الأولي بعد التخرج، وكان والدي سيحصل على درجة الدكتوراه في نفس الاختصاص (تقويم العمود الفقري يدوياً) بعد خمسة أشهر. لقد عاد إلى الدراسة في وقت متأخر من حياته وكان متلهفاً لأن يكون عنده مكتب بعد فترة الكفاح الطويلة في الدراسة تلك. تحدث والدي عن فكرة الذهاب إلى أرض الميعاد لسنين طويلة، وكانت إسرائيل إحدى الأمكنة التي فكر بها والدي لبدء تدريبه. وحال وصولي إلى المكان الذي استأجروه في أتلانتا وإنزال أمتعتي من الشاحنة أراد والديّ أن يبحثا ويناقشا مخططاتي.

أخبرت والديّ إني أرغب في أن أفتح عيادة إما في نيوجرسي (حيث عشت القسم الأكبر من حياتي)، أو فلوريدا، أو كولورادو. أما الذهاب إلى إسرائيل، فلم أشعر قط بالدافع لذلك. منذ أن كنت طفلاً صغيراً في مدرسة دينية، رغبت بزيارة الأراضي المقدسة ولكن لم أفكر أبداً في العيش هناك. أوضح والدي بأنه يوجد مقوم واحد فقط للعمود الفقري في إسرائيل وسيكون عظيماً أن تستقدم أحدث التقنيات الحديثة المتطورة إلى أرض الميعاد.

أوضحت لهم بأنه مازال أمامي سنة دراسية أخرى على الأقل قبل التخرج وأفضل أن أركز على دروسي من أن أضيف موقعاً محتملاً آخر للعيادة. إضافة إلى ذلك، ما هي موجبات العمل في بلد أجنبي؟ إن هم حصلوا على جميع المعلومات المتعلقة بموضوع الممارسة هناك فسأفكر بالموضوع كخيار ممكن. لا شك، سيكون حسناً أن أساهم في جعل مهنتي رائدة في بلد أجدادي. ولكن أردت أن أكون واقعياً.

لشهرين تاليين، ما من أحد تحدث عن موضوع إسرائيل. شغلت بدراستي وأنشطتي المدرسية حتى أن موضوع الذهاب إلى إسرائيل غاب نهائياً. في وقت ما من أيلول عام ١٩٧٧، بحث أبي ثانية موضوع إسرائيل، وقد تلقى أخيراً من الوكالة اليهودية مكتب ميامي بعض الأوراق للاستبيان. من الواضح أنه أمضى وقتاً صعباً وهو يتقصى المعلومات الدقيقة حول كيفية العيش بشكل مؤقت في إسرائيل والعمل في عيادة هناك. ولذا توجب عليه أن يصعد سلم السلطة البيرقراطي للحكومة الإسرائيلية في الولايات المتحدة، ولم يستطع والدي الوصول إلى بعض الأجوبة العملية الصحيحة للهجرة إلى إسرائيل إلا بعد أن تحدث إلى يوفول ميترز، القنصل العام في أتلانتا. إن كلمة أليا تعني الهجرة إلى إسرائيل، واكتشفت فيما بعد بأنها تعني (الصعود) وهي تُستعمل لتعني الهجرة إلى إسرائيل حصراً. بكلام آخر إذا ما انتقلت إلى إسرائيل، فإنك تصعد، وهم يستعملون كلمة أوليح ليصفوا الشخص الذي يهاجر إلى إسرائيل فهي تعني الشخص الصاعد، بينما يطلقون كلمة يأحرد على كل من يهاجر من إسرائيل وتعني (الشخص الهابط). أشار السيد ميترز على والدي لمن سيكتب من أجل الأوراق الضرورية لبدء معاملة الانتقال إلى الأرض المقدسة.

أتذكر كيف أمضيت الكثير من الوقت أجيب على جميع أسئلة الوكالة اليهودية. أرسلت لهم رسائل توصية، أوراق حسن سلوك، دبلومات، وأوراقاً أخرى كثيرة تُظهر بأننا ذوو أخلاق حميدة. وقد بلغت أوراق ملف عائلة روستون ١٠٠ صفحة، إذا ما رغبوا في معرفة أي شيء آخر عني عليهم سؤال مكتب التحقيقات الفيدرالي (F.B.I). ذكرت كل حقيقة هامة عن نفسي يمكن أن أتذكرها، وأرسلت جميع هذه الوثائق إلى ميامي بانتظار الرد، ولدهشتي لم يستغرق ذلك أكثر من أسبوعين. قيل لنا إن دافيد ميروز سيطير من

فلوريدا لإجراء المقابلة مع المهاجرين المتوقعين الجدد. كان موعد مقابلتنا مع دافيد ميروز في الأسبوع الثاني من تشرين الأول ١٩٧٧. وصلنا إلى مركز أتلانتا للتجمع اليهودي قبل خمس عشرة دقيقة من موعدنا. ولكن كان علينا أن ننتظر أكثر من نصف ساعة. فتح الباب رجل داكن الشعر، يدخن سيجارة، وقال إنه لن يستطيع رؤيتنا قبل خمس دقائق أخرى. أخيراً غادرت فتاة شابة المكتب، ودعانا السيد ميروز إلى الدخول. وبينما هو يشعل سيجارة أخرى قدمنا أنفسنا قائلين: عائلة روستون. بدأ ينبش في كومة من الأوراق أمامه على الطاولة الكبيرة واستغرق ذلك بعض الوقت.

أخيراً بدا وكأنه وجد ما كان يبحث عنه وقال: «أنتم سكوت وساي، وصوفيا روستون أليس كذلك؟» أجبنا بالإيجاب. لم يعتذر منا عن تأخره ومضى يُطلق علينا الأسئلة بصيغة سلبية. «أنت تعلم بأن الحكومة الإسرائيلية لا تعترف بمهنتك؟ وتعرف بأن عليك أن تتعلم اللغة العبرية وهي لغة صعبة جداً؟ الجو حار جداً هناك، والحياة قاسية، هي ليست سهلة كالحياة في أمريكا هنا. هل تعلم يا سكوت بأن عليك أن تخدم في الجيش بعد ثلاث بسنوات من إقامتك؟ كل شيء باهظ الثمن هناك. الشقق ضيقة وصغيرة وعليك الانتظار سنوات قبل أن تحصل على هاتف. كيف ستعيش إن كانت مهنتك غير معترف بها؟ ولم تريد أن تترك أمريكا وسبل الرفاهية فيها وتذهب إلى إسرائيل والحياة الصعبة هناك؟ تعلم أنه من الخطورة العيش هناك؟ فمنظمة التحرير الفلسطينية تفجر قنابل في جميع الأوقات. هل تريد لعائلتك أن تشعر بالقلق عليك دائماً؟ وهل تعتقد أن بإمكانك التأقلم مع طريقة مختلفة في الحياة؟».

يا إلهي! هذا الرجل كان بحق مصمماً على أن يثنينا عن الذهاب إلى إسرائيل. تبادلت النظرات مع والدي بدهشة. وبدأ أبي بالحديث قائلاً: «فيما يتعلق بمهنتنا الإنسان لا يحتاج إلى إذن سماح بمزاولة مهنة (تقويم العمود الفقري يدوياً) في إسرائيل، فهناك ممارس يزاولها منذ سنوات عديدة. وكما قيل لنا فهو غير قادر على استيعاب جميع الراغبين في التداوي عنده. وهناك حاجة كبيرة جداً لعدد أكثر من المعالجين في بلدكم. وهذه مهنة معترف بها في جميع أنحاء العالم. والطريقة الوحيدة لجعلها مهنة معترفاً بها في إسرائيل هي أن يشتغل بها كثير من

الأطباء ويثبتون للحكومة بأنهم يساعدون الناس ويعالجونهم. وهذا سيأخذ وقتاً. وإذا ما انتظر كل اختصاصي في العمود الفقري، الآخر ليسبقه إلى الأرض المقدسة، سيأخذ ذلك وقتاً طويلاً. إن تعلم العبرية لن يكون مشكلة بالنسبة لسكوت. فأنا وصوفيا سنحتاج لوقت أطول لتعلمها ولكننا مصممون على المحاولة. تتحدث عن الحياة القاسية هناك، جميعنا، الثلاثة، خدمنا في الجيش وتعرضنا لأوقات عصيبة إضافة لذلك استطعت أن أنجح في معهد معالجة تقويم العمود الفقري في وقت متأخر من حياتي فإن كان ذلك لا يُظهر التصميم، قل لي ما الذي يظهره؟ نحن نعلم بأن الأمر لن يكون سهلاً ولكننا ننوي أن نحاول مهما قلت! أنت تحاول أن تقنعنا بعدم الذهاب إلى إسرائيل، لماذا؟ لقد استطعنا مساعدة بعض مرضى التصلب المتعدد، ومساعدة أناس قيل لهم: «ما من شيء يمكن عمله لكم، تعوَّدوا أن تتعايشوا مع مشكلتكم».

بدا السيد ميروز وقد صدم لهذا الرد وقدرت أنه جاء دوري لأضيف شيئاً: «لم نقل أبداً بأن المسألة ستكون سهلة. وهل تعتقد أنه كان سهلاً أن أصبح طبيباً؟ شققت طريقي في الكلية وحيداً. لم يدعمني أبواي وأنا فخور بهذا! ذكرت بأن الطقس حار. أنا متأكد من أن والديَّ سيتأقلمان. وأعرف أنه لن يكون ثمة مشكلة بالنسبة لي فشدة الحرارة لا تزعجني. وعندما أنهي السنوات الثلاث الأولى، إن كنت سأقرر البقاء تلك المدة، سأقوم بأي واجب يطلبه مني القانون. ولكن لن أتعهد طواعية بخرقه في أي بلد عدا الولايات المتحدة الأمريكية. أما منظمة التحرير الفلسطينية والتفجيرات، فدعني أقول شيئاً، عندما تأتي ساعتي لا فرق إن كنت في إسرائيل أو في أمريكا، وكل الأمور الأخرى التي ذكرتها غير هامة. ما أهمية الهاتف؟ لقد عشت في شقق صغيرة من قبل، عندما كنت في البحرية عشت في سقيفة. نعم، سيزعجني قلق العائلة ولكني أعلم بأنهم سيتفهمون ويحترمون ما نقوم به. في الحقيقة أثرت دهشتي يا سيد ميروز. لقد أوضح ميثاق الصهيونية العالمية بأنهم بحاجة إلى مئة ألف مهاجر إلى إسرائيل. المال جيد، ولكنهم بحاجة للناس أكثر. لماذا إذن تصور تلك الصورة القاتمة لفكرة انتقالنا إلى إسرائيل حيث سنذهب لنساهم بمعرفتنا ومعونتنا؟».

في تلك اللحظة حاولت أمي التحدث بما يجول في خاطرها ولكنه تجاهلها. «لدينا

تعليمات أن نظهر لكم الصورة القاتمة بحيث لا تصابون بخيبة أمل عندما تواجهون الحياة في بلدي. فأنتم الأمريكيون تتمتعون برفاهية كبيرة هنا، ووسائل الرفاهية هذه، باهظة التكاليف في إسرائيل. سيكون عليكم أن تتعلموا الاستغناء عن أشياء كثيرة تعودتم أن تمتلكوها».

«سنتعلم ذلك، لقد فعلنا ذلك من قبل. عشنا خلال...» مرة ثانية حاولت أمي أن تقحم نفسها، ومرة ثانية قاطعها ميروز قائلاً: «لا أريد أن أجلس هنا وأناقشكم». لاحظت وأبي أن أمي كانت في غاية الامتعاض، فقال أبي: «إذاً لم لا تساعدنا بدلاً من أن تزعج عائلتي؟ كيف ستساعدنا وكالتكم إذا ما قررنا الذهاب؟» بدا ميروز مرتبكاً تماماً، لم تكن يده لتخلو من سيجارة مشتعلة، لقد أشعل أخرى ونقل نظره بيني وبين أبي وأمي وأعاد ذلك ثانية.

«أولاً عليكم أن تذهبوا برحلة اختبار» قال ذلك وحدق بنا من جديد، انتظر لحظة ثم تابع يوضح: «رحلة الاختبار تعني رحلة مدتها أربعة عشر يوماً إلى إسرائيل، اثنا عشر يوماً منها ستكون مقابلات، الغاية الرئيسية من هذه المقابلات ترتيب عمل للمهاجر الجديد ويبقى اليومان الآخران له لرؤية البلد. (لقد تجولت في البلد لعام كامل على دراجة نارية برفقة دليل إسرائيلي وللآن لم أر البلد بأكملها) ويعاد له بعدها مبلغ ٢٠٠ دولار، فقط في حال حضوره جميع المقابلات، وذلك يعني أن تكون لديه بطاقة موقعة تشير إلى أنه لم يتخلف عن أي موعد. ستكون الرحلة على متن خطوط شركة العال الجوية التي هي أغلى بكثير من أية درجة اقتصادية على خطوط شركة (PANAM) الأميركية». بالنتيجة، ستكون رحلة الاختبار عن طريق الوكالة اليهودية، حتى بعد إعادة الـ ٢٠٠ دولار، أغلى من السفر على حسابنا الخاص ورؤية ما نرغب برؤيته. ولكن تلك كانت الطريقة الوحيدة التي تساعد فيها الوكالة اليهودية أصحاب المهن الراغبين في الهجرة. أولاً كان علينا الموافقة على رحلة الاختبار، ثم قال ميروز، لن يسمحوا لوالدتي بالذهاب، فعلى والدي أن يقوم بالرحلة ويتخذ القرارات بدونها. كان واضحاً في النهاية بأن ميروز لا يعتقد بأن النساء كنّ على قدر من الأهمية يسمح حتى بالاستماع إليهن فكيف باتخاذ قرارات حول موضوع الهجرة.

كانت والدتي في غاية التوتر وأرادت أن تعنف ميروز ولكننا استطعنا تهدئتها. ما هي

الضرورة لرحلة اختبار لمثلنا؟ فمهنتنا ليس معترفاً بها هناك، من سيقابلنا إذن؟ لم يستطع الإجابة على ذلك السؤال. أخبرنا بأنه توجد هنالك رحلة مخططة في شهر كانون الأول. أوضحت له بأن امتحاناتي النهائية لذلك الربع ستكون في ذلك الوقت وبأنه سيكون من المستحيل لي أن أسافر. قال، مع ذلك سيحجز لنا في رحلة الاختبار في كانون الأول. طلبنا منه ألا يفعل، كما سألناه عن موعد الرحلة التالية في الجدول ولكن ميروز ببساطة لم يسمع.

بعد أن قام ببعض الأعمال الورقية البسيطة، قال: «سيد روستون، لم لا تنتظر أنت وزوجتك إلى سن التقاعد، وعندها تسافران بعد أن تأخذا الضمان الإجتماعي؟ أعتقد أن ذلك عمليٌّ أكثر، ما رأيك؟ بتلك الطريقة ستأخذ معك دخلاً. وعندما ينتهي سكوت من المدرسة يمكنه الذهاب والعيش في مستعمرة زراعية (كيبوتز). فهو مازال صغيراً وسيتلاءم جيداً مع الذين يعيشون هناك».

أثار ذلك حنقي! «لو كنت أرغب بالعيش مع كيبوتز لذهبت عندما كنت في الثامنة عشر من عمري. كل ما يحتاجونه هناك شخص ذو ظهر قوي، حد أدنى من الذكاء، دون أي طموح في العالم الواقعي. إني لم أجتهد كل هذه السنين كي أذوب في مثل ذلك التركيب الاجتماعي، ولدي الكثير كي أقدمه أكثر من ذلك. وكيف تقول لوالديّ أن ينتظرا حتى يمكن لهما احضار نقود معهما؟ حسب معلوماتي إسرائيل بحاجة إلى أناس اختصاصيين. هل تعني أنهم بحاجة إلى نقودنا فقط؟».

«وماذا عن حق جميع اليهود في الذهاب إلى أرض الميعاد؟» كان والدي يريد جواباً. مص ميروز لفافته بثقة: «بالطبع لك الحق في الذهاب. رجاء، رجاء سوف أحجز لكم لرحلة الاختبار. سيخبركم مكتبي بالاجراءات النهائية. أعتقد أننا انتهينا طاب يومكم. سنكون على اتصال.» ثم قام وفتح الباب معتقداً بأننا في طريقنا إلى الخارج. «أخبرتك من قبل بأن امتحاناتي النهائية ستكون في الوقت الذي ذكرته لرحلة الاختبار تلك. لم لا تنسى تلك الرحلة وتضعنا في جدولك للرحلة التالية؟ إنني لا أرى المنطق في أن تضعنا في رحلة قد لا نتمكن من القيام بها». ابتسم (ابتسامة سباق مستعد للضرب) ومد يده إلى والدي قائلاً: «ثق بي، إني أعرف ماذا أفعل. طاب يومكم وحظاً جيداً».

تبادلت النظرات مع والدتي وهززنا رأسينا. لم نستطع أن نفهم تلك العنجهية. إذا كانت هذه نوعية شخص مهمته نصح المهاجرين المتوقعين إلى إسرائيل فعلي أن أتوقع الكثير من الازعاجات لاحقاً. بعد تلك المقابلة لم أعد أهتم بالذهاب إلى إسرائيل. فدروسي ومشاركتي في فريق كرة القدم في الجامعة جعلاني منشغلاً بما فيه الكفاية. لم يكن لدي وقت لأفكر في أشياء خارج نطاق الكلية.

موضوع الانتقال إلى إسرائيل برز من جديد في أواخر تشرين الثاني أو أوائل كانون الأول. تلقينا إشعاراً بأنه علينا الدفع لرحلة الاختبار في كانون أول. بالطبع تعارض الموعد مع امتحاناتي وأخبرت والدي أنه ليس لدي نية للسفر. وبعد قراءة الإشعار بإمعان قرر والدي أيضاً أنه سيكون من السخف أن نسافر. أذكر أن والدتي طبقت رسالة وأعادتها مع الإشعار تُعلم فيها السيد ميروز بأنه ليس لدينا النية في الذهاب في رحلة اختبار.

وبما أني كنت منهمكاً في دروسي ومسؤولياتي الإضافية، وافق والداي على ألا يزعجاني بموضوع إسرائيل، ليس قبل التخرج على الأقل. وقد تحدثت مع بعض الزملاء، بشكل عرضي، عن إمكانية العمل في الأراضي المقدسة ولكني لم أغص في الموضوع. الكثيرون من زملائي زاروا إسرائيل من قبل، وغالباً ما أفصحوا عن الرغبة في العمل هناك غير أنهم مروا أيضاً بنفس النموذج من السخف البيروقراطي الذي واجهناه، فتخلوا عن الفكرة حتى جاء من سهّل لهم الطريق. فقد تزوج شاب في صفي من فتاة إسرائيلية، وكانوا يقولون دائماً سيكون رائعاً لو يقوم بالتدريب في إسرائيل ولكنها قالت إنها تستطيع الانتظار حتى تعود. لم أفكر بذلك. كنت أعلم أن أبي لم يوفر وسيلة من أجل إمكانية العمل في إسرائيل وكنت ما أزال أفكر بفلوريدا وكولورادو. الوقت الوحيد الذي سأفكر فيه بإسرائيل سيكون بعد التخرج، وإذا ما انحلت المشاكل التي واجهناها.

أمضينا صيف الـ ١٩٧٨ محاولين أن نقرر أين يريد كل منا أن يفتتح عيادته، كان والدي يفكر ويتقصى عن بعض الأمكنة لعيادة، بما في ذلك إسرائيل. وبعد النتائج غير المرضية للقائنا مع دافيد ميروز أمضى والدي وقتاً طويلاً يحاول الوصول إلى نتائج حول موضوع إمكانية العمل في إسرائيل، فاتصل بالسيد تادمور وكان مسؤولاً عن تقديم

التسهيلات والإرشادات للراغبين في الهجرة إلى إسرائيل، ولم يقدم تادمور لوالـدي سوى الكلام المراوغ والمنمق. بعدها قابل السفير الإسرائيلي دينيتز وحصل على نفس النتائج، لا شيء! بعد ذلك كان أريي دولزن، المدير التنفيذي للوكالة اليهودية، روتينياً أكثر. وبحث مع أعضاء كثر من الكنيست الإسرائيلي، بيروقراطية أكثر وأكثر. بعدها اتصل بشخص يُدعى جوزيف رومانيللي يعمل في المكتب الأمريكي بإسرائيل. لا سبيل دولية، كما أرسل نسخة من الملف ذي المئة ورقة الذي ملأناه.

وفي إحدى المرات، من خلال الرسائل والمكالمات الهاتفية علم والدي عن رجل يمكن أن يساعد في قضيتنا اسمه صاموئيل فلاتو شارون، عضو في الكنيست وعنده الملايين. أذكر أني سمعت مرة في التلفزيون بأنه عرض مبلغ خمسة ملايين دولار فدية للإفراج عن ألدو مورو في ايطاليا. في مقابلة له، دعا فلاتو شارون عدداً أكثر من الأطباء للهجرة إلى إسرائيل، وتبين بأنه مسؤول عن استقدام أطباء أكثر لبلده. أرسلنا له نسخة من أوراقنا على أمل الحصول على بعض النتائج، وتحدث إليه والدي أكثر من مرة بالهاتف فأرسل لنا السيد فلاتو شارون دعوة حارة للعمل في إسرائيل. قال إنه على علم بأي نوع من الأطباء نحن، وإنه سيجمع لنا مليون دولار لنبني عيادة في إسرائيل، كما دعانا لنكون ضيوفه في بيته، وقال إنه سيبذل ما في وسعه لمساعدتنا. لو لم نكن قد عرفنا بعرضه في قضية ألدو مورو لكنا رغبنا بالدعوة مكتوبة. وقال والدي إنه بدا صادقاً في دعوته الهاتفية، ولذا اعتقدنا بأن عرضه كان صادقاً.

قررت أن أجد وقتاً لأتقصى إمكانات العمل في إسرائيل، ووافقت والديّ على أن نأخذ عرض فلاتو شارون على محمل الجد. وثبّت والدي معه مسألة سفرنا وقال إنه سيرحب بنا بالأحضان. ودعنا أفراد عائلتنا وأصدقاءنا وقمنا بجميع الترتيبات الضرورية للسفر. وبحث والدي لآخر مرة مع ايفول ميتزر إمكانية المساعدة الرسمية في نفقات السفر وشحن أمتعتنا إلى إسرائيل. ولكن السيد ميتزر أخبره بأن الرسميين مازالوا يحاولون إيجاد طريقة لتدبير طبيبين ذوي مهنة غير معروفة في إسرائيل، واقترح القنصل العام أن نسافر إلى إسرائيل كسياح ومن ثم نقيم كمقيمين مؤقتين. إذا ما فعلنا ذلك سيتوجب على الحكومة الإسرائيلية مدنا بالمعونة. لن تكون لدينا مشاكل مع تلك المساعدة ومعونة فلاتو شارون.

الفصل الثالث

روتين أكثر

بدا وكأن الزمن قد توقف وأنا ملقى في زنزانتي. غرقت في عرق شديد وأنا أعود بذاكرتي إلى العاشر من أيلول عام ١٩٧٨، اليوم الأول لوصولنا إلى إسرائيل. كان لدي ولدى والدي توقع وأحاسيس وهاقد أصبحت جميع سنوات البحث والأحلام والأحاديث عن إسرائيل خلفنا. سنعيش، سنجرب أخيراً الأرض المقدسة، وستتحقق جميع أحلامنا بمعونة الله. لقد كان الكثير من زملائي يعتمدون على نجاح تلك الرحلة، فإذا وفقنا سيلحق بنا أطباء أكثر. وإذا فشلنا، قلة منهم ستخطو هذه الخطوة الكبيرة على حسابها الخاص.

أحاط سائقو سيارات الأجرة بمعظم المسافرين بينما كنا جميعاً نخلص أمتعتنا من الجمارك في مطار بن غوريون. لم ينظر أحد إلى الأمتعة ولا حتى إلى الأوراق. جربت لغتي العبرية مع أحد السائقين، وأسعدني أني استطعت أن أفهمه ما أريد. لقد أخذت السيارة قرابة الساعة كي توصلنا إلى الفندق الذي ننزل به في تل أبيب. وما أن وصلنا إلى غرفتنا حتى كنا قد أُنهكنا تماماً بعد تلك الرحلة المضنية في الطائرة النفاثة.

اليوم التالي كان يوم سبت، سبت يهودي، وبالتالي كل المحلات مغلقة. تمشينا حول

الفندق، في المساء تفتح بعض المطاعم والمحلات التجارية وقد قررنا أن نرى المدينة في الليل. أخذت كلبي (سلطان) في نزهة على الشاطئ خلف الفندق. إنه وديع كالنعجة وأحياناً لا يعرف مدى قوته. كانت هناك مجموعة من اثني عشر إسرائيلياً يلعبون كرة القدم بقرب الماء وسلطان يحب أن يلعب بكافة أنواع الكرات، فقرر أن ينضم إليهم عند رؤيته لهم يلعبون. أصر على أخذ الكرة وهذا ما حدث. انطلق بينهم، تحكم بالكرة، حاول اثنان تخليصها منه ولكنه أمسك بها بقوة بين يديه. كانوا يرفسون الكرة باهتياج شديد ولكنهم في النهاية ينفرون من الأصوات التي كان يطلقها سلطان.

سلطان كلب جميل من نوع البوكر، يزن سبعين رطلاً ولديه نزعة لتخويف الناس الذين لا يعرفونه. وقف اللاعبون حوله يتحدثون مع بعضهم بالعبرية: «أنت أحضر الكرة» «من أنا؟» «ليس أنا»، «بل أنت!» تقدمت من المجموعة وأوضحت لهم بأن ما من شيء يدعوهم للقلق، «لن يؤذيكم، صدقوني، إنه وديع كالحمل».

لم يكن لذلك أي أثر كما يبدو، «أعطنا كرتنا وإلا نؤذيك!» كان بإمكاني أن أدع سلطان يهاجمهم ولكن ذلك لن يكون ودياً. طلبت إليه أن يرمي الكرة ويتبعني إلى الفندق، فأظهر الصبية استحسانهم وبدؤوا يصرخون في وجهي بالإنكليزية، «وغد، ابن الساقطة، أمريكي لعين!!».

كنت ووالدي نتطلع إلى وجبة جيدة تلك الليلة ونصحنا أحد خدم الفندق بمطعم جيد. ولكن اتضح أن شيء من التهذيب غير موجود. لم أعلق بأي شيء. فنحن لم نهتم بقلة تهذيب معظم الناس. لا بد وأن يكون هناك سبب لمثل هذه التصرفات، إنهم يدفعونك في الطرقات ليأخذوا طريقهم إلى الأرصفة بعنجهية ودون كلمة اعتذار. أملنا أن تكون الأمور هكذا في شوارع تل أبيب فقط.

في اليوم التالي اتصل أبي بمكتب فلاتو شارون ولم نستطع الوصول إلى سكرتيره الخاص السيد جيلبرت آروما إلا بعد بعض الوقت. لم يكن يتكلم الإنكليزية جيداً، وبالتالي كان له حديث مترجم مع والدي، وأخيراً فهم بأننا في إسرائيل ونرغب بلقاء السيد فلاتو شارون فحدد لنا موعداً للقاء رئيسه في اليوم التالي. شعرنا بارتياح كبير لتحديد موعد ذلك اللقاء، إذ كان قد

وعدنا عضو الكنيست الثري هذا بالمساعدة حال وصولنا إلى إسرائيل. كان من المهم جدا وجود صديق صاحب نفوذ في الدولة، على الأقل هذا ما قاله لي معظم الإسرائيليين الذين تحدثت إليهم في الولايات المتحدة، وكانوا يطلقون اسماً معيناً على من هو ذو منزلة هامة أو لديه علاقات بأصدقاء متنفذين، كانوا يسمونها حماية، وقيل لي أن من ليس لديه (حماية) سيواجه المصاعب مع البيروقراطية المتفشية في إسرائيل.

استيقظنا باكراً صباح ذلك الاثنين حتى لا نتأخر عن موعدنا الساعة العاشرة مع السيد فلاثو شارون، وكانت المسافة بين الفندق الذي ننزل فيه وبناية شركة العال في شارع ابن يهودا حوالي ثلاثين دقيقة سيراً على الأقدام، ذلك لأن والدتي كانت ما تزال تعاني قليلاً من عملية جراحية في قدمها. كان المصعد الذي صعدنا به يتسع لستة أشخاص، هذا إذا كنت لا تبالي أن تكون مثل السردين. في الوقت الذي وصلنا فيه إلى الطابق الذي يعنينا كانت الساعة قد بلغت التاسعة والنصف ولم نرغب أن نتأخر على مثل هذا الموعد الهام. ولكن يبدو بأننا كنا الوحيدين المهتمين بالوقت، إذ لم يصل أحد إلى المكتب قبل الساعة العاشرة والنصف. ولا بد أني كنت أعيش أحلام اليقظة.. لقد انتصبت أمامي بدون سابق إنذار، لم تعن الأثواب المتوسطة الطول لي قط أي شيء، ولكن الطريقة التي داعب بها الثوب جسدها أثارت انتباهي، إذ ما من ثنية في جسدها إلا يمكن تتبعها لأن الثوب كان ملتصقاً بالجسد تماماً، والطريقة التي اخترقت بها عيناها الواسعتان عيني، جعلت كل ما في جسدي يتنبه، لقد أفقدتني رصانتي. كانت ابتسامتها تدعوني، وكذلك عيناها وشعرها الفاحم كليل بلا قمر، اللعنة! لم كان على والديّ أن يكونا هنا الآن. كان شيء ما غريب في محاولة تقربي من فتاة رائعة بوجود والديّ. تكلمت بنوع من اللهجة الافرنسية: «من الذي ترغبون في مقابلته من فضلكم؟».

«لدينا موعد لمقابلة السيد جيلبرت آرما والسيد فلاثو شارون الساعة العاشرة. نحن عائلة روستون». وقفت ومددت يدي إلى اللوحة التي أمامي. «أنا الدكتور سكوت روستون وهذان هما والداي، الدكتور ساي روستون والسيدة صوفيا روستون. «يسعدني لقاءكم أنا فورتونا». شعرت برعشة كهربائية تجري بين أيدينا بينما يحدق كل منا في عيني الآخر، «يجب أن يصل السيد آرما حالاً. إن كان من شيء تريدون الاستفسار عنه يمكنكم سؤالي».

تباعدت يدانا ببطء، كأن ما من أحد منا يرغب في إبعادها، فتحت فورتونا باب غرفة المكتب ونظرت إلى الخلف، إليّ، بينما هي تدخل الغرفة المظلمة.

بعد بضع دقائق مرت بنا مجموعة من الرجال والنساء دخلت غرفة المكتب. ثم ظهرت فورتونا وأخبرتنا بأن السيد آرما على استعداد لمقابلة عائلتنا، رافقتنا إلى أحد المكاتب الكثيرة وهي تبتسم لي بين الفينة والأخرى بينما نحن سائرون، وكنت ماأزال أتساءل عن أفضل طريقة لسؤال فتاةٍ إسرائيلية للخروج معها في موعد. هل تراها كانت تظهر وداً فقط أم أنها تحاول أن تجعلني أعرف بأنها مهتمة في أن تتعرف علي؟ لم يكن في إصبعها خاتم زواج يوحي بأنها مخطوبة ولكن ربما كانت لديهم عادات مختلفة هنا فيما يتعلق بهذه الأمور. علي أن أزيح هذه الأفكار من رأسي الآن وأركز على الموضوع الذي جئنا من أجله.

بدا جيلبرت آرما ودياً عندما دخلنا مكتبه، وكان المكتب أمامه مغطى تماماً بالأوراق والملفات التي بدت بحاجة إلى ترتيب. كان ملفنا أمامه وأحدهم كان قد ترجم الملف بأكمله له وللسيد فلاثو شارون. كانت فورتونا تترجم لنا أثناء اللقاء، ويبدو أنها قد قرأت جميع المعلومات عني لأنها قالت إني عشت حياة ساحرة بالنسبة لشاب في عمري. لقد عرفت من أكون حتى قبل أن أقدم لها نفسي إذ أن صورتي كانت في الملف، لمرات عديدة وجدت نفسي وفورتونا يسمّر كل منا عينيه في عيني الآخر لبضع ثوان وفي كل مرة كنت ألاحظ أمي وأبي يبتسمان ابتسامة الاستحسان الأبوية.

ناقشنا العرض الذي قدمه السيد فلاثو شارون لي ولوالدي بشأن عملنا كأطباء وأكد لنا أن رئيسه يولي وضعنا اهتمامه الشخصي وبأن لديه جواباً لنا في القريب العاجل. أخبرنا جيلبرت بأنه علينا الذهاب إلى وزارة الاستيعاب، وطلب تغيير وضعنا من سياح إلى مقيمين مؤقتين ومن ثم العودة إلى مكتبه في اليوم التالي. سألت متى يمكن لنا أن نقابل السيد فلاثو شارون. بالطبع، إن كان سيجمع مليون دولار لبناء عيادة لنا، فلا بد أنه يرغب في أن يجتمع بنا. أوضح جيلبرت بأنّ مخدومه رجل كثير الأعمال ولكنه سيحاول ترتيب موعد لنا معه في أقرب وقت ممكن.

مشت معنا فورتونا ونحن خارجون من مكتب جيلبرت، تعطينا التعليمات لوزارة

الاستيعاب وفي أثناء ذلك سألتني وهي ترفع حاجبها الأيمن «أين ستكون هذا المساء في حال رغبنا بالاتصال بكم؟» «كنا نخطط أن نتجول في تل أبيب هذه الليلة ولكن يمكن أن أبقى في الفندق إن كان الأمر هاماً ويمكن لوالديّ أن يخرجا بدوني».

«هذه فكرة جيدة، يا سكوت» الطريقة التي نطقت بها اسمي أعطتني إحساساً بالدفء، ترى ماذا يجول في ذهنها؟ وددت لو أسأل عن رقم هاتفها ولكن جميع الفتيات في الغرفة كن يحدقن بنا. حسناً فكرت، علي أن أنتظر حتى اللقاء الثاني لأعرف عنها أكثر. وتساءلت لم كانت مهتمة بمعرفة موعد خروج والديّ، ربما كان ذلك من خيالي، ولكن كان لدي انطباع واضح بأنها كانت تحاول أن تخبرني شيئاً ما.

بعد الغداء كانت قدم أمي تؤلمها، فخرجت مع أبي إلى وزارة الاستيعاب بدونها ،ولدى وصولنا إلى مكتب الاستيعاب مضى بعض الوقت ريثما وجدوا موظفة تتكلم الإنكليزية، أعلمتنا بأننا لسنا بحاجة إلى وزارة الاستيعاب بل إلى الوكالة اليهودية. وهكذا ذهبنا إلى مبنى الوكالة اليهودية في شارع كابلان وكانت لنا نفس القصة هناك، إذ أخبرنا الموظف بأنه يتوجب علينا الذهاب إلى وزارة الداخلية، وفي وزارة الداخلية أخبرونا بوجوب العودة إلى وزارة الاستيعاب.

المشكلة الوحيدة هي أن الدوام كان قد انتهى عندما عدنا إلى حيث بدأنا ولم نأخذ الـ ٢٠٠ دولار، وجربنا اللعبة الأكثر شعبية في الأرض المقدسة: المراوغة البيروقراطية! إن كان لديك بضع ساعات تود أن تهدرها في إسرائيل جرب هذه اللعبة وأنا واثق بأنك لن تحبها!.

ترك والدي الفندق تلك الأمسية لقضاء ليل أفضل في المدينة وجلست مرتاحاً أطالع مجلة عن الأماكن التي يجب أن تراها في إسرائيل. ولم تمض عشر دقائق إلا وقُرع باب غرفتي، سألت «من» «خدمة الغرف» أجاب صوت مألوف نوعاً ما. لم أكن قد طلبت شيئاً ولكن كان لدي فضول لأن أرى ما إن كنت قد ميزت الصوت فعلاً. عندما فُتح الباب رأيت ثانية تلك اللوحة من الجمال. «لم أستطع أن أسمح لك بالبقاء وحيداً في غرفتك، لذا فكرت، سيكون جميلاً إذا ما جالستك، ما لم تكن غير راغب بوجودي» أتمنى أن تكوني هنا بالطبع، ادخلي فورتونا. لم تكن أجمل امرأة كنت معها وحيداً في حياتي وحسب بل كانت الأكثر

غموضاً، ومن الطريقة التي كانت تخترق فيها عيناها السوداوان عيني تنبأت بأن الزيارة ستكون ممتعة. وبينما هي تدخل الغرفة برشاقة قطة، علقت لوحة (الرجاء عدم الازعاج) على قبضة الباب وأغلقته، ومرة ثانية ابتسمت لي ابتسامة «اقترب» وغمزت بعينيها.

«إن أفكارنا واحدة. أليس كذلك؟» قالت وهي تجلس على حافة السرير وتمد يدها وابتسامتها تتلاعب بي: «انتظرت ثلاثين دقيقة حتى خرج والداك. لم تأخرا؟» «لم يكونا مرتاحين أبداً لتركي وحيداً ولكن كان لديّ إحساس بأن شيئاً ما سيحدث الليلة. لذا أخبرتهما أن يتأخرا خارجاً».

كانت ذراعها دافئة بجانب ذراعي. «أرجو المعذرة، فأنا لم أغير ثوبي، إذ أني جئت من العمل مباشرة» ألم تكن تعرف بأن هذا الثوب بالذات هو أول ما أظهر قوامها لي؟ التغيير الوحيد عن قبل كان أن رفعت شعرها. جلست ملتصقاً بها «إنه ثوب جميل، ولكن يمكنك خلعه إذا أردت». «هل تقدم لي عرضاً؟» وصلت إليها وأحطت خصرها بقوة بذراعي أسحبها ببطء باتجاهي وعيناها المسحورتان تحدقان في عيني. «أعتقد بأنك أنت أيضاً تعرضين علي». وكانت قبلة طويلة بينما يعانق أحدنا الآخر.

جلست فورتونا بجانبي وقالت: «هل تنوي البقاء في إسرائيل طويلاً؟» «هذا يتوقف على ما إذا واجهت الكثير من المشاكل في عملي كطبيب هنا. آمل أن يساعدني السيد فلاشو شارون في التغلب على المصاعب التي يمكن أن تواجهني أو تواجه أبي، أخبريني فورتونا، هل هو فعلاً واسع الثراء بالقدر الذي تتحدث به الصحف؟».

«لديه مال كثير ولكن عليك ألا تعتمد عليه كثيراً».

«ماذا تقصدين؟ لقد دعانا أن نأتي ونعمل هنا ووعد بأن يساعدنا بكل طريقة ممكنة. ألا يمكن الوثوق به؟» أطلقت فورتونا زفرة طويلة «لا أريد لك أن تُصاب بالخيبة إذا لم تجر الأمور كما ترغب. هذا كل ما يمكنني أن أقوله لك» وجلست أفكر بما كانت تحاول أن تقوله لي. وحاولت أيضاً أن أفكر بها. بالطبع يروقني الاعتقاد بأنني كنت جذاباً في نظرها ولكن هل تعطي نفسها لأي رجل تميل إليه بهذه السهولة؟ لقد جعلت النساء اللواتي نعتبرهن

متحررات في أمريكا يبدون محافظات. «هل أنت قلقة إذ ربما أخبر رئيسك بأنك جئت إلي في الفندق، وأخبرتني ألا أثق به تماماً؟» قبلتني، «أنت في بلد غربة ولا تعرف طريقك، من الأفضل إخفاء الكثير عن شخص متنفذ مثل هذا الرجل. نحن نفعل الأشياء بشكل مختلف هنا. ولكن دعنا من هذا الحديث. أريد أن أجعلك تشعر بالسعادة».

استيقظت صباح اليوم التالي أستعيد تجربة الليلة الماضية، تمنيت لو كانت الغرفة لي وحدي، لو أن فورتونا تمكنت من البقاء معي طوال الأمسية. كنت على يقين من أن والديّ سيفاجأان لو علما أنها ضاجعتني. فهما لا يمانعان من وجودنا سوية ولكن ليس بتلك الطريقة. ولم أستطع إلا أن أفكر بما قالته. وكنت أفكر أكثر بما لم تقله. على الأغلب سأتمكن من مقابلة فلاثو شارون لاحقاً ذلك اليوم وآمل أن أحكم بنفسي أي نوع من الناس هو.

في ذلك اليوم بدأت مع أبي في وزارة الاستيعاب، بدأنا حيث انتهينا في اليوم السابق وبدؤوا يقذفوننا من مكتب لآخر وكنا كلما حاولنا مقابلة مسؤول نواجه بنفس الجواب «هو في اجتماع» أو «هو في إجازة!» وبعد أن أضعنا صباحاً كاملاً وكنا في غاية الانزعاج من العنجهية وعدم الكفاءة الإسرائيلية الفاضحة، عدت مع أبي إلى الفندق. حاول الاتصال بعدة أعضاء في الكنيست كان قد أخذ أسماءهم من بعض الأصدقاء في أمريكا. مرة ثانية جميع المتنفذين في إسرائيل هم إما في اجازة أو في اجتماع. ولم يستطع والدي الاتصال حتى بجو رومانيللي في المكتب الأمريكي. بقيت أمي وأبي محتفظين بروح معنوية عالية وهما يقولان «لا تفقد الأمل، بقي صاموئيل فلاثو شارون» لم أرغب في إزعاجهما بما أخبرتني به فورتونا عنه وكنت أقنع نفسي «ربما كانت على خطأ».

كان مبنى شركة العال عندما دخلنا من أجل موعد بعد الظهر حاراً كجهنم، وهذه المرة كان المكتب مفتوحاً عندما وصلنا وقد أضاءت لنا الجميلة ذات العينين السوداوين بابتسامها غرفة الانتظار ودعتنا إلى مكتب جيلبرت. ومرة ثانية عملت كمترجمة بين عائلتي والسيد جيلبرت. وأوضح لنا بأنه توجد عيادة في تل أبيب ويمكن لنا أن نعمل بها الآن، سألناه عن لقائنا بالسيد فلاثو شارون وقال بأن رئيسه لن يأتي ذلك اليوم. رافقتنا فورتونا عندما ذهبنا لنلقي نظرة على ما كانت تُدعى عيادة. مدير تلك المؤسسة كان مساعداً صحياً

متخصصاً في المعالجة الفيزيائية يُدعى دافيد زاكوت. وكانت مكاناً قذراً صغيراً تجعل من العيادة الحرة في الولايات المتحدة تبدو وكأنها مستشفى متطور. وقيل لنا بأن السيد زاكوت يرغب في أن أعمل مع والدي عنده. وأخبرنا زاكوت بأن أطباء الصحة يرسلون له الكثير من المرضى ويوضحون له أية معالجة عليه أن يتبع. سنعمل إذن حسب تعليمات زاكوت، يااللعنة! أخبرته بأننا أطباء وقد تخرجنا من كلية معترف بها في أمريكا، وأن اختصاصنا يتضمن معالجين فيزيائيين يعملون لدينا، فكيف يتوقع منا أن نعمل بإمرة مساعد طبيب؟ نحن أطباء أساساً ولسنا درجة ثالثة. كانت فورتونا تعرف أشياء أنا قادر على عملها وقد دعمتنا بحماس، وعندما تفهم الرجل موقفنا استأذنته بأدب وانصرفت. وعندما عدنا لرؤية جيلبرت كنت أتذكر كلمات فورتونا، وكنت أرغب بلقاء فلاتو شارون قبل أن أخبر والدي بما قالته لي. لدى وصولنا، اتجه ثلاثتنا مباشرة إلى مكتب جيلبرت وكان بإمكانه أن يحكم من التعابير التي بدت على وجوهنا بأننا لم نكن مرتاحين أبداً. كانت نزعة العنجهية واضحة تماماً في صوته وهو يقول «هذه إسرائيل، عليكم أن تكونوا مستعدين لإجراء تغييرات في حياتكم إذا ما أردتم أن تبقوا هنا». كنا نريد أن نكون مرنين ولكن ليس لدرجة تعهير أنفسنا ومهنتنا. قال إنه لا يوجد أي شيء آخر متوفر في ذلك الحين. كنت أوشك أن أنفث ما بنفسي عندما لمحت بطرف عيني الرجل نفسه، صاموئيل فلاتو شارون. «أريد أن أقابل السيد فلاتو شارون فوراً!» قذفت جيلبرت بنظرة ساخطة. «ولكني أخبرتك بأنه لن يأتي اليوم». كان صوت فورتونا متعاطفاً عندما ترجمت كلمات جيلبرت. أخبرتها بأن تخبر رئيسها بأني شاهدت لتوي فلاتو شارون يمر بجانب الباب، تناول الهاتف وتكلم لبعض الوقت بالفرنسية. لم نحظ بتفسير لما قاله وعندما انتهى قال إنه بإمكاننا رؤية مخدومه.

رحب بنا عضو الكنيست ذو الشعر الرمادي بتحفظ. بدا أكبر بكثير من صوره التي كانت تغطي جدران غرفة انتظاره، وقدم لنا رجل مكتهل أحمر الشعر نفسه على أنه مدير مكتب فلاتو لكنه لم يذكر لنا اسمه أبداً. كان يرتدي القبعة الصغيرة التي يرتديها الأصوليون اليهود، وهذا أثار إعجابي بادئ الأمر. ولعب هذا الرجل دور المترجم لفلاتو شارون رغم ما بدا من أنه يفهم كل ما كنا نقوله بالإنكليزية. رغب في أن يعرف ماذا نريد وكأنه لا يعلم لم طلبنا أن نقابله. ذكرناه بالدعوة التي وجهها لنا وتظاهر بأنه لا يتذكر عندما سألناه إن كان

يذكر ما وعد أن يفعله من أجلنا. أخبره والدي بأننا اعتمدنا عليه في أن يساعدنا كما تعهد ولا نعتقد أبداً بأنه سيتراجع.

لم يستطع أن يفهم لم رفضنا أن نعمل في العيادة التي قدموها لنا. حاولنا أن نجعله يعترف بأنه كان قد دعانا بصفته رئيساً للجنة الكنيست المسؤولة عن استقدام الأطباء للهجرة لإسرائيل ولدى وصولهم تقديم كل مساعدة لهم. وعندما وضعناه في زاوية حرجة اغتاظ كثيراً ادعى فلاتو بأنها ليست مسؤوليته أن يساعدنا حالياً، وقال بأنه كان كريماً عندما عرض علينا العمل في عيادته. أخبرته عن المراوغة التي واجهناها، عن تغيير تأشيراتنا من تأشيرات سياحية إلى تأشيرات إقامة مؤقتة وبعد أن أسمعنا الكلام البيروقراطي ذا الوجهين رافقنا أحدهم إلى مكتب آخر حيث كان شاب يُدعى تسفي فايلدر يُفترض أنه سيساعدنا في تغيير تأشيراتنا ويرتب مسألة ربطنا بمركز استيعاب حيث يُدرب المهاجرون الجدد حول أساليب الحياة في إسرائيل، بالمحصلة صاموئيل فلاتو شارون لم يقدم لنا أية مساعدة كانت.

تلك الليلة، بحثت مع أبي وأمي الخيارات المطروحة أمامنا. لم نرغب في حزم أمتعتنا وأن نعطي شعب إسرائيل كل فرصة ممكنة. فكثير من الإسرائيليين قالوا لنا بوجود الحاجة إلينا في بلدهم. وإذا ما يئست فلن يفكر أي من زملائي في القدوم إلى إسرائيل. قررنا محاولة الحصول على بعض العون الحكومي ولو اكتشفنا بأننا كنا كمن يضرب رأسه بالجدار لعدنا إلى أمريكا.

ذهبت وأبي إلى الوكالة اليهودية مرة ثانية، وبدا بأن ذلك الصباح سيكون مختلفاً عن الأيام الثلاثة التي سبقته. أُشير لنا إلى مبنى يقع مقابل المبنى الكبير في شارع كابلان، حيث كدنا أن ندخل الدوامة من جديد. بعد أن قمنا بالكثير من الاستفسارات وجدنا بأن جوزيف رومانللي من المكتب الأمريكي في إسرائيل كان مجتمعاً بالسيد باكاس المسؤول عن وضع المهاجرين في العشرينات وتقديم تسهيلات إسكان حكومية لهم. خرج باكاس من إجتماعه ولدهشتنا استمع إلى قصتنا بأكملها من دافيد ميروز حتى فلاتو شارون. دعا جو رومانللي الذي أكد بأن لديه ملفاً كاملاً عن عائلة روستون. وعندما لمس باكاس تصميمنا على البقاء في إسرائيل قال إنه سيحاول وضعنا في مركز استيعاب. لم يعطنا أية وعود ولكنه قال

إنه سيبذل ما في وسعه . وإذا ما تمكن من إيجاد مكان لنا فعلينا أن نكون جاهزين للمغادرة في الحال. شكرناه واتجهنا مباشرة إلى الفندق نخبر والدتي هذه الأخبار السعيدة.

عندما عدت إلى الغرفة كان سلطان متلهفاً للنزهة فذهبنا مباشرة إلى الشاطىء . لحسن الحظ لم يكن هناك أي حوادث هذه المرة . في طريق عودتي إلى المصعد التقيت بيهودية جميلة أخرى من السابرا (مولودة في فلسطين) كانت أقصر من فورتونا بقليل، طولها حوالي خمسة أقدام وأربعة انشات ولكن لها نفس الملامح. بدأت بيلا بمغازلتي مباشرة. أعطتني رقم هاتفها وسألتني أن أزورها في وقت قريب حتى إنها دعتني لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في بيتها . لم أتوقع أبداً أن تكون الفتيات الإسرائيليات بمثل هذه الجرأة . لم أكن أتذمر ، ولكن من الأفضل أن تكون موضع سعي بدلاً من أن تكون الساعي! قررت ألا أقابل أياً من الفتاتين بينما أن في الفندق . إذ أن بيلا تعمل هناك ولا أريد مجازفة في الشجار بين الاثنتين . ونظراً لدرجة تحررهما لم أكن أريد التورط بلقاء إحداهما الأخرى. لم يحذرني أحد من قبل عن رد فعل فتيات السابرا في تلك المواقف ، ولذا قدرت بأن أفضل ما أفعله هو أن أبقي عليهما بعيدتين الواحدة عن الأخرى.

خلال الثماني والأربعين ساعة التالية كان يجب أن يبقى واحد منا قرب الهاتف دائماً ، في حال اتصال السيد باكاس وطلبه إلينا الاستعداد للرحيل . اتصلت بي صديقتاي الاثنتان يوم الخميس ولكنني أوضحت لهما بأن وقتي مزدحم لدرجة كبيرة لا تسمح لي برؤيتهما يوم الجمعة ، صباح السابع عشر من أيلول اتصل باكاس ليقول بأن سيارة أجرة ستأتي لتقلنا إلى مركز الاستيعاب في بئر السبع. كانت المسافة طويلة في الصحراء، حوالي ساعة ونصف بالسيارة جنوب تل أبيب . لقد أملنا أن يضعونا بالقرب من تل أبيب في مكان مثل ناتانيا ، ولكن السيد باكاس قال إنه المركز الوحيد الذي فيه اتساع . وأكدوا بأنه سيكون هناك الكثيرون ممن يتكلمون الإنكليزية وبأن الطقس سيكون أفضل بكثير . لم يرغب أبي في أن يكون صعباً فشكره على لطفه وجهزنا كل شيء من أجل الرحلة.

مرت علينا سيارة المرسيدس في حوالي الساعة الثانية في تلك الظهيرة وحاولنا الجلوس بارتياح لتلك الرحلة الطويلة رغم أن السائق رفض تشغيل المكيف في ذلك الحر القائظ.

فكرت كيف كانت أول فتاتين التقيتهما ودودتين، وفكرت كيف ستتطور هاتان العلاقتان. كنت مازلت مندهشاً كيف جاءت فورتونا إلى غرفتي، ولكن أكثر ما كان يشغلني كان صاموئيل فلاثو شارون. لقد جعلنا الرجل نعتقد بأنه محترم تماماً ونحن في أمريكا، ولكنه لم يكن أكثر من بالون هواء ساخن. كنت متأكداً بأنه لم ينوِ أبداً دفع الفدية عن ألدو مورو ولكنه رغب فقط بالحصول على الدعاية لنفسه. أن تخلق لدى أناس يعانون آمالاً كاذبة شيء وحشي لا إنساني. آمل أن ينال عقابه العادل. بعد بعض البحث والقراءات في الصحف اكتشفت قصة غير سارة وراء هذا الرجل الذي وضعنا فيه ثقة كبيرة. كان فلاثو شارون مواطناً فرنسياً قبل الهجرة لإسرائيل وهو يتهرب من مذكرة القبض عليه من فرنسا. يبدو أنه كان رجل أعمال يعمل بأساليب ملتوية، وقد أدت عملياته الكثيرة في الفترة بين الـ ١٩٧١ ـــ ١٩٧٣ إلى ملاحقته قضائياً. في الحقيقة رغبت فرنسا من إسرائيل تسليمها فلاثو شارون لتقديمه إلى المحاكمة ولكن انتخابه في الكنيست منحه الحصانة.

لقد واجه العديد من مستخدمي فلاثو شارون السابقين التهم في فرنسالوحدهم ،وهي تُهم تقوم على التهرب من دفع الضرائب. وهو نفسه متهم بامتلاك ما يقارب مئة مليون دولار من أموال الضرائب التي كان يتوجب دفعها. وهو لم يهرب من البلد وحسب بل يبدو أن السلطات الفرنسية لا تستطيع الضغط في هذه المسألة أكثر بسبب معلومات تفيد بأن لدى فلاثو شارون قائمة من الصناديق المالية السياسية أُنشئت مع أعماله التجارية.

اكتشفت أيضاً، على أية حال، بأنه بعد ذلك بوقت قصير صوّت الكنيست بقوة لرفع الحصانة التي تحميه، الأمر الذي سمح بتوجيه تهم جديدة إليه في إسرائيل، تهم رشوة خلال الانتخابات، منها شراء أصوات الناخبين. وقد غطت هذه التهم الموجهة إليه مع اثنين من مساعديه يعقوب هالفون وجاك بن أوديس، تسع صفحات وانتشرت في البلد بأكمله.

لاحظت بأن لجنة الكنيست بعد دراسة توصيات النائب العام، أوصت برفع الحصانة عنه باقتراع بنسبة ١٥ إلى ٤ ،ويبدو أن حكومة فلاثو شارون وبلده الجديد لم يكونا على استعداد لتحمل ألاعيبه هنا.

الفصل الرابع

ما يشبه هتلر

كانت الرحلة على امتداد الصحراء اللامتناهية مملة، لقد مررنا في الساعة الأولى ببعض المدن الصغيرة ولكن الجزء الأخير من الرحلة بدا وكأننا نسقط بسرعة متزايدة في منطقة نائية عن الحضارة، وتنفسنا الصعداء عندما وصلنا أخيراً إلى مدينة بئر السبع حتى ولو أننا لم نعرف ما سنتوقع. بئر السبع تعني الآبار السبع وهي المكان الذي يُفترض أن ابراهيم الخليل توقف فيه بإحدى رحلاته المتعددة في الصحراء. لم تعجبني حقيقة أني سأكون بعيداً جداً عن صديقاتي اللواتي تعرفت عليهن حديثاً. كانت طرقات المدينة مغطاة بجميع أنواع النفايات وسائق سيارتنا لم يكن يعرف الطرقات فيها ولذا كان عليه أن يتوقف عدة مرات ليسأل.

عندما وصلنا إلى مركز الاستيعاب كانت الساعة قد أصبحت الرابعة والنصف بعد الظهر، وكان مدير المركز اليعازر ليفنسون (كان معروفاً أكثر باسم القائد ليفنسون قائد معسكر الاعتقال) بانتظارنا في المدخل، يلوح بساعة يده ليخبرنا بأننا تأخرنا. أسرع بوالدي إلى داخل المجمع بينما بقيت مع الأمتعة في سيارة الأجرة. بعد حوالي ثلاثين دقيقة ولما تبدُ إشارة من جماعتي أو من المدير، قررت أن أنزل الأمتعة من السيارة، بعد قليل جاءت والدتي يبدو عليها أنها منزعجة تماماً إذ أن السيد ليفنسون كان يحاول أن يرتب إقامة والدي في

الطابق الثالث. حاولت والدتي أن تشرح له بأنها ماتزال تعاني من عمل جراحي في قدمها وسيكون من الصعوبة بمكان عليها أن تصعد كل هذه الدرجات يومياً. أخبرتني بأنه ناكدها ولذا تركت والدي يهتم بالموضوع.

أخيراً ظهر والدي مع اليعازر من بوابة المعسكر، وكان القائد ليفنسون يشير بحركات تشنجية بأنه علينا أن ننقل حاجياتنا إلى داخل المعتقل. دلنا إلى التسهيلات المعيشية في الطابق الثاني في أول مبنى من المجمع. سألت لم لا نستطيع أن نأخذ مكاناً في الطابق الأول لوالديّ إذ أن ذلك سيكون أسهل بكثير على والدتي.

«إن كنت تبحث عن السهل، ما كان عليك أن تأتي إلى إسرائيل». مرة ثانية تلك النغمة من العنجهية، كان بالفعل دميماً، عندما أخبرني بأنه علي أن أعيش مع والديّ، كدت أن أحرق المكان. من يعتقد نفسه بحق الشيطان، ليضع طبيباً له سبعة وعشرون عاماً مع والديه؟ لم لا أكون مع عازب آخر، أو حتى في إحدى الغرف الخالية؟ قال بأن هذا هو المتوفر حالياً ولكنه سيعيد النظر بإمكانية إيجاد ترتيب آخر. أخبرته بأني سأكون شاكراً إذا ما استطاع أن ينقلني من مكان والديّ. نصحنا القائد أن نرتاح لفترة طويلة بحيث لا نحتاج إلى وجبة عشاء. لم يكن معنا أي طعام وكانت جميع المحلات مغلقة لأنه كان السبت ولم يكن ليزودنا بأي طعام تلك الليلة.

«طعام الغداء سيكون في غرفة الطعام غداً في الثانية عشرة والنصف» هذا جميل! علينا الانتظار إلى ما بعد ظهر اليوم التالي حتى نأكل. وعلينا أن ننقل جميع أمتعتنا كل هذه الدرجات وحدنا. وحالما وضعنا كل شيء في مكانه استلقيت على السرير وغرقت في نوم عميق حتى وقت متأخر من اليوم التالي.

لم يكن من السهل علينا أن نلتقي أحداً يوم السبت وفي غرفة الطعام وجدنا أن توقيت وجبة الغداء يبدأ الساعة الثانية عشرة وليس الثانية عشرة والنصف كما أخبرنا القائد وبالتالي لم يتبقَّ لدينا سوى الخيار الأخير من الطعام. الجميع كانوا قد تناولوا طعامهم وغادروا قبل أن ندخل، الأمر الذي لم يعطنا فرصة التعرف على أي واحد من الناس هناك. كانت الشقة التي

نسكنها ١٥ × ١٥ قدماً وكانت كل شقة تتألف من غرفتي نوم، ومطبخ صغير، وحمام، وكان هناك شرفة أمام غرف النوم ١٦ × ٤ أقدام حيث ينشر الجميع غسيلهم.

أفاقت المدينة ذلك المساء، بعد السبت، وتمشينا نبحث عن مكان نشتري منه بعض الطعام. كانت بعض المطاعم فقط مفتوحة وهذا يعني أننا لن نستطيع أن نشتري أي شيء للافطار في صباح اليوم التالي. في طريق عودتنا إلى المعسكر مررنا بمحل يبدو أنه محل بقالة. خاب أملي عندما لم أجد أحداً يرحب بنا في المركز وتركونا نبحث عن طريقنا وحدنا. استغرق تنظيف شقتنا يوماً كاملاً، إما لأنه لم يقم أحد بتنظيف هذه الشقة أو أنهم قاموا بذلك بشكل يدعو للازدراء. كان كل شيء مغطى بما يشبه النشارة من الفضلات، وكمية القاذورات التي أزحناها من ذلك المكان كانت تدعو للغثيان. وقد أراد القائد أن يقابلنا في وقت مبكر من الصباح التالي،ولذا جاءت الأضواء إلينا من الخارج في وقت مبكر أكثر من المعتاد.

استطاعت أمي شراء بعض الطعام من محل البقالة الصغير الذي شاهدناه في اليوم السابق ولذا لم أكن جائعاً قبل مقابلتي لمدير المعتقل. وفي طريقنا إلى مكتبه شاهدنا العديد من الناس في طريقهم إلى صفوف اللغة العبرية. عندما وصل ليفنسون كان بصحبته شخص آخر. من الواضح أن مسألة التأخر عن المواعيد كانت إحدى هوايات العاملين في الحكومة الإسرائيلية الرئيسية. هما، حتى لم يعتذرا عن تأخرهما. وما إن دخلنا مكتبه حتى بدأ القائد بتفسير جميع الأحكام والقواعد. لقد ذكرني برئيس معسكر اعتقال ألماني في فيلم مثله ريليام هولدن ونال عليه جائزة الأوسكار لأفضل ممثل. واتضح بأن القائد كان من مواليد ألمانيا وقد هرب قبل الابادة، لو أن أحداً أخبرني بأنه نازي لكنت صدقته. كان ليفنسون يظهر دائماً بتلك الهيئة الفوقية المتعجرفة وصبغة الشعر الرخيصة التي يستعملها والتي ستذهب بها أية زيادة في التعجرف. كان القائد ليفنسون في أول الخمسينات ولكنه يحب التظاهر كثيراً ويحب أن يبدو كعاشق كبير.

إن محاولة الحوار مع اليعازر المجنون بشكل جانبي تكاد تكون ضرباً من المستحيل. وإذا ما حاول أحدنا السؤال عن أي من القوانين، يتصرف وكأنه قد أجرم هل يظننا أطفالاً؟

شعرت وكأنني عدت إلى الوراء إلى معسكر صيفي يديره حمار أبله ، فهو لايحب أن يسأله الناس عن أي سؤال ، لأنه على الأرجح لا يعرف له جواباً ، وتغيير الموضوعات كان واحداً من أهم مواهبه . وعندما يعجز الجميع يبدأ اليعازر بالحديث عن شيء لا علاقة له البتة بما كان يبحث . عندما كانت الوكالة اليهودية تفتش عن مدير لمركز الاستيعاب كان ليفنسون يعمل كمسؤول عن الحديقة ، والسبب الوحيد لتسلمه هذا المنصب هو معرفته لخمس لغات . لا يوجد شيء جيد سوى المرج ، فليفنسون لا يعبأ إذا ما تهاوى المكان طالما أن العشب يبدو جيداً .

ودِدنا أن نعرف متى سنتسلم تأشيرات الإقامة المؤقتة والكتب التي تخولنا الحصول على الاعانة من الحكومة وكانت كلمته المفضلة دائماً هي الصبر . وكانت تعني فعلاً لن أفعلها لكم .

« تشانا شابيرو ستكون هنا قريباً وستهتم بكل هذه الأشياء . عليكم بالصبر » كانت السيدة شابيرو ممثلة لجمعية الأمريكيين والكنديين في إسرائيل . وكانت مهمتها المفترضة مساعدة الأمريكيين والكنديين الذين أرسلوا إلى بئر السبع على الاستقرار . أملنا أن يكون التحدث إليها أسهل من التحدث إلى ليفنسون . « مرحبا اليعازر » قالت المرأة الضخمة عندما دخلت المكتب ، كانت ترتدي غطاء رأس وتدخن سيجارة كما يفعل كوجاك في التلفزيون . وكان لباسها متواضعاً جداً أشبه بلباس المرأة المسؤولة عن التنظيم ، كانت تلك تشانا شابيرو . أكد لها القائد بأنه لا توجد لدينا أية مشاكل بالاستقرار في شقتنا . وأعلمها بأنه دلنا على جميع الطرق في مركز الاستيعاب . بعد ذلك أخذتنا تشانا إلى الكثير من المكاتب الحكومية في بئر السبع وأخبرتنا بأنها من أمريكا وأنها تقطن في إسرائيل منذ حوالي تسع سنوات . كانت كلما علقنا على الأوضاع البدائية في المعتقل تجيب بنفس الجواب : « يجب أن تروا كيف كان عندما جئت ، كان الوضع فعلاً قاسياً تلك الأيام . إنه أفضل بكثير الآن بالنسبة لكم » . ويبدو أنها كانت تستمتع باستعمال الكلمة الشعبية الإسرائيلية ، الصبر .

لاحقاً ، ذلك اليوم ، كان لنا اجتماع آخر مع تشانا واليعازر المجنون وبعد كثير من المحاولات استطعت أخيراً أن أثير موضوع سكني في نفس الشقة مع والديّ . فأنا قد تجاوزت

الخامسة والعشرين وبحسب قوانين الهجرة يحق لي ما يحق لعائلة منفردة. حاول اليعازر التهرب من هذا الموضوع ولكني لم أستسلم حتى حصلت على جواب مرض. «سكوت، حاول أن تجرب العيش مع والديك لأسبوع واحد. وإذا لم تجر الأمور كما يرام أعدك بأن أعطيك مكانك في حال توفر شقة» وافقت. وبعد ذلك وجدت أنه من أصل الثماني وستين شقة يوجد على الأقل ثلاثون شقة خالية كما يوجد العديد من العزاب الآخرين الذين يعيشون في شققهم الخاصة.

التقت عائلتي بالكثيرين بعد مغادرتنا مكتب القائد، كانت جوديت امرأة طويلة مكتنزة وهي أم البيت مسؤولة عن إعطاء البياضات والشقق والاشراف على الذين يقومون بعمليات التنظيف ولكن هذه الزاوية كانت مهملة بشكل مخز ،لحسن حظي أنها استلطفتني وبالتالي قدرت أنه لن يكون هنالك مشاكل في أن أحصل على شقة خاصة عندما ينقضي الأسبوع. كنت أعلم بأني ووالديّ لن نحصل على نوع من الحرية الشخصية إذا ما كنا معاً بنفس الشقة. كانت جوديت البدينة سكرتيرة اليعازر الشخص الذي يتوجب عليك التعامل معه إذا ما أردت أن تترك رسائل أو تأخذ بطاقات طعام أو فيش غسيل. فإن هي لم تجبك يكون قد نفد لديها كل ما تحتاج أن تشتريه، أو أنها كانت تتناول طعام غدائها بوقت مبكر وتؤخر بيع بطاقات الطعام لوقت كاف يسمح لها بأن تضيع عليك وجبتك. وكان على عنقها وحمة ولادية ذات لون بنفسجي مقزز.

أول عائلة التقيناها من المهاجرين الجدد كانت من الولايات المتحدة. إنها عائلة سيجل. الأبوان دافيد وجودي وابنتاهما ديفورا وجيليا. كانت جيليا بنتاً صغيرة لطيفة أول من عرفتها منهم. كانت تبحث عن الاهتمام بشكل يائس وعندما وجدت من يلاحظ أنها موجودة كانت سعادتها غامرة. أن يُهمل الإنسان في سن السابعة شيء مؤثر جداً،كانت تعيش في عالم صغير تصنعه بخيالها. ديفورا كانت في التاسعة أو العاشرة وكانت درة والديها ولم يكن يحتاج المرء لوقت طويل ليكتشف بأنها مدللة كثيراً ولذا كانت حيواناً مخرباً صغيراً، غير مهذب. كانت تنظم جميع الأطفال لتخريب ممتلكات من يغضبها أو تعلمهم استعمال

كلمات نابية ضده، وإذا ما عُرض الأمر على والديها كانا يتصرفان وكأن شيئاً من هذا القبيل لا يمكن أن يحدث.

لا يمكن للكلمات فقط أن تصف الدكتور والسيدة سيجل. كانت جودي امرأة كسولة ومملة جداً، فأم تسمح لبنتين ربما ستكونان جميلتين أن تكونا بتلك التربية أمر لا يحتاج إلى المزيد من الايضاح للدلالة على أي نوع من الأمهات كانت. وإن كنت لا ترغب في تكرار شيء ما فلن تجرؤ على ذكره أمامها، كانت مروجة إشاعات من الطراز الأول. وقد اكتسبت ديفورا الكثير من خصال والدتها، وقد بدأت جودي بالكثير من الإشاعات العارية عن الصحة تماماً. كان دافيد مناسباً لزوجته تماماً إذ كان يحمل شهادة دكتوراه في الشعر والأدب التوراتي ويتصرف وكأنه مازال يعيش في العصور القديمة. وفي اجتماع لكنيس قريب حمل الناس على الاعتقاد بأن دافيد رجل ورع وسيكون مشرفاً روحياً ممتازاً للتجمع. عندما اكتشف دافيد بأني طبيب للعمود الفقري طلب مساعدتي لأخفف آلام ظهره وكتفيه. المشكلة الوحيدة كانت أنه لم يرغب في أن يدفع مقابل خدماتي بل عرض بأن يقدم خدمات من اختصاصه مقابل ذلك. ما حاجتي بحق الشيطان لدورة في الشعر والأدب التوراتي؟ عرضت أن أعالجه بدون مقابل. لقد فاجأته بعرضي ولذا أراد أن يدفع شيئاً ما كي لا يكون مديناً لي. وأسهب في حديث طويل حول حاجة عائلتي عاجلاً أم آجلاً إلى إعانة حكومية ومن ثم أوضح بأن هذه تحتاج إلى عريضة موقعة من آخرين أيضاً للحصول على الإعانة المالية. «وجميع المهاجرين الجدد يوقعون الواحد للآخر. عندما تحتاجون من يوقع لكم دعني أعلم فقط ستسعدني مساعدتكم» أليس جيداً أن يعرض مثل هذا العرض السخي؟.

خلال أيام قليلة تحسن ظهر دافيد كثيراً. ولم يدهشني أنه كان يعاني من مشاكل كثيرة في جسمه فقد كانت بنيته شبيهة بالمعكرونة الرخوة وبدا ممتناً أنني أرحته. ولكن بعد أسبوع أظهر بأنه لم يكن صادقاً أبداً. فقد احتجنا أنا وعائلتي أن نحضر شحنة من حاجياتنا كانت قد وصلت إلى ميناء حيفا وكنا نعد الترتيبات للحصول على شاحنة تنقل أمتعتنا إلى مركز الاستيعاب. كنا نحتاج إلى توقيع اثنين آخرين لوالديّ وتوقيعين لي حيث كنا نُعتبر عائلتين منفصلتين على الورق.

جاءنا دافيد يقول «لدي أنا أيضاً شحنة في يافا وأريد نقلها إلى هنا. لم لا أرافقكم إلى الميناء وأترجم لكم حيث أنكم لن تستطيعوا تسيير أموركم والقيام بالاجراءات دون مساعدة من يتكلم العبرية بطلاقة، ومقابل مساعدتي يمكن أن تساعدوني بتحميل حاجياتي في الشاحنة وبذلك أوفر أجرة الحمالين واستئجار شاحنة لي». بدت الفكرة جيدة لنا، ولكن عندما طلبت منه أن يوقع لي ولوالدي أنكر أنه كان قد اقترح قط أن يفعل شيئاً من هذا القبيل. شكراً لله أن رجلاً غريباً تماماً عنا اتصل به والدي هاتفياً وقع لكل منا وللسخف وقعت أنا ووالدي كل منا للآخر.

وعندما جاء موعد السفر إلى حيفا لم نجد الدكتور سيجل في أي مكان، نحن لم نرفض مساعدته أبداً بحمولته ولكن من الواضح أنه كان محرجاً لدرجة كبيرة منعته من قبول عرضنا بعد أن نكث بوعده فيما يتعلق بموضوعنا. كانت رحلتنا إلى حيفا موفقة جداً، حتى أننا استطعنا ترتيب أمورنا بحيث تُشحن الأمتعة إلينا دونما حاجة لتحميلها في شاحنة بأنفسنا. وللمفارقة، لأسابيع عديدة تلت كان دافيد على التلفون يومياً يحاول البحث عن شحنته لسبب ما، يبدو أنه ما من أحد يعرف أين اختفت الأمتعة، وهو يتكلم العبرية بطلاقة. يا للعدالة الشعرية!.

رجع القائد عن وعده بإعطائي شقة أخرى وكان راغباً في أن يضعني مع عازب آخر من روسيا. فإضافة إلى الاختلافات الثقافية والاجتماعية الواضحة كانت هناك المشاكل الصحية. كان الرجل في منتهى القذارة، كان يدخن حوالي أربع علب سجائر كل يوم تاركاً أعقابها مرمية تغطي أرض المكان وكانت الفودكا مشروبه الأساسي، كان يشرب ليترين في اليوم، ولدى النظر إلى البراد، ظننت أنه لا بد وأن له علاقة بعلم النبات بسبب الأتربة وأنواع الفطور المتنوعة التي نمت فيه. وأعطاني اليعازر الأحمق حرية اختيار إما الانتقال والعيش مع الروسي أو البقاء مع والدي. في تلك الفترة كان لدى جميع الشبان العزاب من يشاركهم غرفهم ولكن بنفس الوقت مازال الكثير من الشقق الخالية ورفض ليفنسون أن يقدم لي أي عرض آخر. وانتهى الأمر بالطريقة التي أرادها. لم يكن أمامي سوى البقاء مع والديّ.

أمريكية عازبة أخرى كان قد أساء ليفنسون معاملتها أيضاً هي باتريشيا. (بات)

هذه قد أنهت دورتها في مركز الاستيعاب ولكنها مازالت تواجه الكثير من المصاعب في إيجاد عمل ومكان تعيش فيه، وكان اليعازر يضغط عليها باستمرار كي تترك المركز. واستعمل كل الأساليب لمضايقتها: كان يخفي بريدها والرسائل الهاتفية لها، وكان يستدعيها إلى مكتبه في جميع الأوقات غير المعقولة. وقد أسكن معها بنفس الغرفة امرأة غير متوازنة عقلياً، وكانت هذه الأخيرة إحدى أساليبه ليدفع ببات إلى ترك المركز. ويبدو أن مضايقة النساء كانت إحدى الوسائل التي تجعل اليعازر ليفنسون يشعر برجولته.

بيتر وآن بيركلي عريسان من اسكوتلندة وقد جاء بيتر إلى إسرائيل ليلعب مع فريق كرة القدم الاسكوتلندي في ألعاب المكابيين وهي ألعاب شبيهة بالألعاب الأولمبية ولكن على نطاق أضيق وهو الآن طبيب عائلة في أوائل الثلاثينات من عمره. وزوجته اللطيفة آن كانت في أواسط العشرينات. أعطيت الكثير من الوعود إلى بيتر لحمله على الهجرة إلى إسرائيل وكان عليه أن يتحمل الكثير من البيروقراطية، الأمر المعروف أن يتحمله الأطباء الأجانب الذين يرغبون في ممارسة مهنتهم في الأرض المقدسة. وبعد أن عمل بيتر في المستشفى المحلي لمدة شهرين تلقى شيكاً بما يعادل ٤٥ دولاراً أمريكياً. إن إهانة الأطباء الأجانب كانت أمراً معروفاً لدى وزارة الصحة. ولم يكن بيده أن يفعل شيئاً حيث أن الطب مؤمم في إسرائيل (بأسوأ ترتيب!) كما غُبن حق آن في المستشفى إذ كانت رئيسة ممرضات في اسكوتلندة ولكنها لم تحصل على أكثر من مساعدة ممرضة هنا، ما تفسير عدم الاكتراث لهذه المواهب التي يحتاجونها كثيراً؟ إن الوزارات الإسرائيلية تقلل من قيمة الأجانب بدلاً من أن تتعلم منهم. لديهم تصور بأنهم سيبدون أدنى من الآخرين إذا ما اعترفوا بأن أحداً ما يمكنه أن يقوم بالعمل بشكل أفضل مما يقومون هم به. ومع ذلك، فضل بيتر وآن أن يبقيا في إسرائيل على أن يعودا إلى وطنهما ويخبرا عن حقيقة الأشياء في أرض الميعاد. لقد أحببتهما وكنت ألعب مع بيتر التنس وكرة القدم وكان يؤلمني أن أرى الملاحظات الساخرة توجه لهما.

معرفة عائلة جوزمان كانت متعة، كانوا من جنوب افريقيا فأصبحنا أصدقاء حميمين. كانت فيكي أرملة ولكنها لا تسمح لك بالنظر إليها بشفقة أبداً، واعتبرت صديقة حميمة لوالدتي. أمر صعب أن تُعنى أرملة دون زوج بثلاثة أولاد ذكور، ولكن لم تكن كذلك حالة

فيكي إذ أنها وزعت نفسها بين الثلاثة مضحية بحياتها الاجتماعية من أجل أن تكون أماً صالحة.

كان شاؤول، يبلغ من العمر أحد عشر عاماً، أكبر الثلاثة، بشعر أشقر مجعد، وكان حساساً جداً. المرة الوحيدة التي اختلفت معه فيها كانت عندما سمح لديفورا سيجل بأن تطلب إليه عمل شيء ضد قناعته. كان علم نفس الأطفال أحب الموضوعات إليّ في الكلية وكنت دائماً أساعد شاؤول في حل مشاكله. كان الأطفال الإسرائيليون في مدرسته يهزؤون منه ويشكلون عصابات ضده. أخبرت شاؤول أنه إذا احتاج يوماً رجلاً يتحدث إليه يمكنه الاعتماد علي. وفي ذات مرة كان في غاية اليأس إلى درجة أنه طلب مني تعليمه الفنون العسكرية. لم يكن من طبيعته أن يقاتل ولكنه حاول أن يصبح كذلك.

وكان ابن فيكي الأوسط (زيف) رياضي العائلة المقاتل. بالنسبة لصبي له تسع سنوات كان رائعاً. ولم يكن أخوه الأكبر ليستطيع ضبطه. ذات مرة أثارت ديفورا سيجل مشاجرة بيني وبين زيف. فأحسست بأنني أواجه قطة برية، هو لم يكن ليستسلم وأنا أمضيت وقتاً من ألعن الأوقات محاولاً ألا أؤذيه. بعد ذلك غدونا أصدقاء. طفل العائلة المدلل كان (بواز) وحين كانت فيكي تخطط للخروج يخلق بواز مشكلة كي لا تتركه أمه وحيداً فأخواه لم يكونا بديلين مقنعين عن أمه.

كان هناك أيضاً عائلة إنكليزية تُدعى (لامبرت). بيتر، الأب ذو روح مرحة. وعندما كان القائد يغضب، كان بيتر أشبه بأرشي بنكر في المعمعة. وفي اللحظات الحرجة كان يعامل زوجته فيليبي كما يعامل أرشي اديت. لا بد وأن اليعازر المجنون، يتلذذ بإثارة غضب بيتر فهو يفعل ذلك بشكل منظم. ابنتهما راشيل فتاة نموذجية في حبها للألعاب الصبيانية كطفلة في التاسعة من عمرها. كانت عادة تسرح مع زيف جوزمان، ويشكلان معاً طاقم تخريب نظامي مؤلفاً من ولدين. أصغر أبناء لامبرت كان جيمس، مرافق (بواز جوزمان) الدائم. القصص التي كان يأتي بها هذان الاثنان تجعلك تتساءل ما إذا جاءا زائرين من عالم الفضاء الخارجي. حاولا مرة أن يقنعاني بأنهما يمتلكان سفينة فضاء، وبأنهما

سيرسلان القائد المجنون فيها إلى القمر. كان رائعاً أن يستطيع هؤلاء الأطفال أن يمرحوا، غافلين تماماً عما كان على آبائهم معاناته.

كنت سعيداً بأن ألتقي شاباً في مثل عمري، روبين، من أصل ايراني ولكنه أمضى سنوات عديدة في ولاية مينيسوتا ويتكلم الإنكليزية بطلاقة. كنا نمضي ساعات طويلة نلعب النرد ونناقش آراءنا في الحياة. كان روبين بطول ستة أقدام، أصلع قليلاً، يأمل أن يحظى بعمل في إحدى شركات الكومبيوتر، وحاولت مساعدته بأن ذكرته أمام البعض ممن التقيتهم ويعرفون آخرين يعملون في هذا الحقل. كي تحظى بعمل لائق في تلك البلد يتوجب أن تحظى بحماية. كان روبين يحمل درجة ماجستير، وأعتقدت بأنه يجب أن يحظى بكل أفضلية ممكنة. وكنت قد طلبت من اليعازر الأحمق أن يضعني مع روبين عندما ينتقل شريكه في الغرفة، ولكنني كنت بعيداً عن المركز في نهاية الأسبوع عندما غادر ذلك الشريك الغرفة. وعندما عدت إلى (المعتقل) أعلموني بأن لدى روبين شريكاً جديداً في الغرفة ولا يمكن إجراء أي تغيير. وأقسمت بأن لا بد وأن يدفع ذلك الوغد يوما ما ثمن ما يبديه من اللاانسانية.

غالباً ماتحدثت مع روبين عن الوسائل المختلفة لتعذيب ذلك السادي القميء، وفي نهاية الحوار أحسسنا بأن الله سيعاقب ذاك الشبيه بهتلر وسيثأر للناس من أعماله.

وضعت مع والدي في صف لتعلم اللغة العبرية كان قد بدأ منذ ثلاثة أسابيع ووجدت صعوبة في المتابعة مع المجموعة كما كان الأمر أكثر صعوبة على والديّ. كنت أستاذ العبرية في العائلة، فطلبنا أن نلحق بالصف اللاحق الذي سيبدأ، ولكن القائد استدعانا إلى مكتبه وقرأ علينا قانون الشغب: «أنتم الأمريكيون كلكم متاعب. تخلقون لدي أعمالاً كثيرة. عودوا إلى وطنكم، أنتم اليهود الأمريكيون الأغنياء الأوغاد! لا أريدكم في بلدي!» لم أكن أعرف أن إسرائيل هي بلده. لو أن النازية بالتأكيد انتصرت لواجهنا جميعاً الكثير من المشاكل. واندفعنا نحن الثلاثة نهاجم ليفنسون المجنون كما تقطع السكين الحادة زبدة حارة. أخبرناه أننا سنبقى رغم كل ما قاله.

دخلت خلال تلك الجلبة امرأة جميلة طويلة، فارتسمت على فمه ابتسامة عريضة وتوقف عن الكلام. تحدثت إليه بالعبرية «أعتذر لمقاطعتكم، آسفة» ما من مشكلة أجاب،

التقت عيناي عينيها للحظة ولم نستطع إلا أن نبتسم واحدنا للآخر. لاحظ اليعازر المجنون الطريقة التي نظرت بها إلي ولم تعجبه إطلاقاً. طلب إليها أن تغادر وحاول إفهامي بألا أهتم بمثل هذه الفتاة. وأصبح في موقع دفاعي تماماً لفكرة معرفة مثل هذه الشخصية الملائكية. لم يستمر اللقاء طويلاً، واتفقنا أن نبدأ مع أول صف سيتشكل. ستكون هناك عطلة لحوالي ثلاثة أسابيع بمناسبة عيد رأس السنة اليهودية القادمة وهم يتوقعون قدوم مهاجرين أكثر، وسيشكلون مجموعة جديدة بعدها.

بعد ظهر اليوم التالي قمت بمكالماتي المنتظمة لفورتونا وبيلا. كنت قد أمضيت في المركز أسبوعين لم أستطع خلالهما رؤية أيّ منهما. بدت فورتونا الأكثر اشتياقاً إلي، بينما بيلا مازالت تنتظر موعدها الأول معي. وكان لدى فورتونا بعض الالتزامات العائلية لبضع ليال قادمة، فخططت أن أرى بيلا في إحدى هذه الليالي. دلتني على كيفية الوصول إلى بيتها بالباص. وقبل أن أنتهي من مخابرتي الهاتفية معها دخلت تلك الفتاة الطويلة الجميلة الغرفة وجلست على المقعد أمام الهاتف. وفي كل مرة كنت أراها تنظر إلي، كانت تزيح نظرها بسرعة وتنظر إلى دفتر في يدها تكتب فيه. وفور انتهاء مكالمتي مع بيلا بدأت الفتاة تتحدث إلي:

«من أين أنت؟ ما هو اسمك؟ ما هي مهنتك؟ كم عمرك؟ متى عيد ميلادك؟» ومع كل جواب كانت تسجل في دفترها. سرَّني أن أجد فتاة جميلة تسأل كل هذه الأسئلة عني، فاستمررت بالاجابة، ولكن عندما أرادت أن تعرف مع من كنت أتحدث توقفت وبدأت أسألها، وهي تجيب:

«اسمي أربيلا. أدرس لأصبح مدرسة رياضة في مدرسة هنا في بئر السبع. عمري أربعة وعشرون عاماً. أعيش مع طالبة أخرى في شقة تبعد مسافة عشرين دقيقة من هنا سيراً على الأقدام». واكتشفت بأنها تتكلم الإنكليزية، والافرنسية، والعربية، والعبرية. وفي أوقات بعد الظهر تعمل كمدرسة لأطفال المهاجرين الذين يعيشون في (المعتقل). كانت تشرف على واجباتهم المدرسية وتنظم لهم الألعاب ليلعبوا. لا بد وأنها رأتني ألعب مع بعض الأطفال من قبل لأنها طلبت مساعدتي في تعليم جميع الأطفال لعبة كرة القدم. أجبت بأن ذلك

يسعدني إن توفر الوقت. ثم دعتني إلى العشاء في شقتها. النساء هنا يبادرن أولاً. وعرضت أن تساعدني في لغتي العبرية قائلة بأن الأساتذة في مركز الاستيعاب لا يعرفون كيف يدرسون اللغة للمهاجرين بشكل جيد.

كي أصل إلى بيت بيلا في مستعمرة حولون، علي أخذ الباص إلى تل أبيب، ثم أنتقل إلى باص آخر يأخذني إلى حولون على بعد خمسة أميال جنوب تل أبيب. ولكن الوصول إليها استغرق ثلاثين دقيقة في الباص بعد رحلة الساعتين من بئر السبع. وعندما وصلت إلى شقة عائلتها استُقبلت كملك، حيث هاجمتني السيدة عبادي بالطعام مثل أي أم يهودية نموذجية أخرى. كانت طاهية رائعة، والفرصة السارة أن يتناول الإنسان هذه الطيبات خاصة بعد الطعام القميء الذي يقدمونه في (المعتقل). لم ترغب بيلا أن يشاركها أهلها بي فخططت أن نذهب إلى السينما مساءً. كانت تتكلم اللغات الأربع ذاتها التي تتكلمها أربيلا، ولكن بقية أفراد العائلة كانوا يتحدثون ثلاث لغات فقط ولم تكن الإنكليزية واحدة منها. فعندما كنت لا أستطيع التحدث مع والدتها أو والدها أو أختها الصغيرة، كانت بيلا تساعدني في لغتي العبرية. وقد أصرت علي أن أتحدث بالعبرية فقط حتى أتقدم بها بشكل أسرع. كان أبوها مدير مصرف بينما أمها ربة بيت غاية في الفعالية. وكانت أختها الصغرى خجلة مني بادئ الأمر ولكنها في النهاية تجاوزت ذلك. الوحيد الذي لم يكن موجوداً أخوها الأكبر، وهو يعمل في خطوط العال كمضيف جوي. كان في الخارج إما في باريس أو في نيويورك.

أخذت بيلا إلى فيلم (فتاة الوداع) الذي استمتعت به كثيراً، كنت محظوظاً إذ سبق وشاهدت الفيلم في أمريكا، لأن المتفرجين كانوا يثيرون الضجة في أفضل مشاهد الفيلم وأكثرها إضحاكاً ويقرؤون الترجمة العبرية بصوت لا يأبهون إن كان عالياً. تمشينا بعد الفيلم في المدينة حتى موعد آخر باص. كانت بيلا ودودة طوال الأمسية. وكلما اقترب موعد مغادرتي أصبحت قبلاتها أكثر حرارة وفي أحد مواقف الباصات اتكأت بيلا على إحدى الاشارات وسحبتني إلى قربها «هل تريد أن تمضي عيد الروش هاشانا مع عائلتي؟ يمكنك أن تشغل غرفة أخي لأنه سيكون مسافراً. وعندها سنعرف بعضنا بشكل أفضل». «سيسعدني ذلك بالتأكيد، فالبعد عن المركز بحد ذاته متعة. وأن أكون معك يجعل ذلك رائعاً».

كنت أحزم أمتعتي للرحلة إلى منزل بيلا حين قُرع باب غرفتي، كانت أربيلا على الباب تدعوني لقضاء العطلة مع عائلتها، وللمرة الثانية كان علي أن أرفض دعوة من امرأة جميلة.

ولو كان علي أن أختار بين نسائي الجدد الثلاث لاخترت أربيلا. كانت أكثرهن ثقافة واستقلالية، ورياضية ولها أفضل قوام، وكانت قريبة لنفسي أكثر من الاثنتين. إلى جانب شيء خاص أردت أن أعرف ما هو. لقد أمطرتني أسئلة حول العطلة القادمة. وحاولت ألا تظهر خيبة أملها، ولكني رأيت على وجهها نفس النظرة التي كانت تبدو على وجهي في الماضي ولذا كنت أعرف شعورها تماماً. كنا نأكل في شقتها تقريباً كل يوم منذ أن سمعتني أتحدث مع بيلا بالهاتف. لم تكن أربيلا متحررة مثل فورتونا ولذا لم نذهب إلى الفراش معاً، وقالت إذا ما أمضيت العطلة معها فقد يحدث ذلك. لا بد وأنها شعرت بأنها قد تفقدني إن هي لم تخط تلك الخطوة. أقنعتها بأني أرغب في رؤيتها كثيراً ولكن والدة بيلا قد اهتمت بالأمر وتخطط لوجودي معهم في عيد الروش هاشانا ويتعذر علي إلغاء الموعد.

كانت وجبات العطلة في بيت بيلا متعة حقيقية، فما أن أُنهي طبقاً أسطورياً حتى تعاجلني أمها بآخر، بينما يحاول أبوها وأعمامها أن يسكروني بشتى أنواع المشروبات. لذا كان علي أن أستمر في الأكل حتى لا أفقد الوعي. والأطباق تتوافد حتى بت متأكداً من أني سأنفجر، وشكراً لله أنها توقفت قبل أن أفعل. كان جميع أفراد عائلة بيلا سعداء كوني عرفت أن آكل. لو أني أكلت بنفس الطريقة كل يوم لكنت قادراًعلى أخذ دور (مغفل السنة). كان أبوها على قدر كاف من البدانة وكذلك أعمامها ولكن يبدو أن السيدة عبادي تعتني بقوامها وأعتقد أن بيلا ستشابه أمها.

اقترح أحد الأعمام نقل الحفلة إلى بيته فاستعد الجميع للانتقال. ولم نرغب أنا وبيلا بالذهاب معهم وأمضينا بقية الليلة معاً وحدنا.

جاءت إليّ بيلا في الليلتين التاليتين أيضاً. كانت تنتظر حتى ينام والداها وتنسل من غرفتها إلى غرفتي. لقد تعلمت فنون الحب بسرعة وأصبحت بمهارة فورتونا، وبدأت عائلتها تتصرف وكأننا قررنا أن نأخذ الموضوع بجدية. تحدثوا عن الأماكن التي يمكن أن نجد بها

شققاً، وأين يمكن أن أفتح عيادة، ومتى يمكننا أن نحدد موعد الزفاف. كنت متأكداً من أن بيلا ستكون زوجة جيدة ولكني لا أرغب في أن يستعجلني أحد في أي شيء. ومازلت مهتماً بامرأتين غيرها خاصة أربيلا. وكوني ضاجعتها لا يعني أني كنت مستعداً لأن أتزوجها. زيادة على ذلك، هي جاءت إلي وأنا لم أغوها. وأسقط في يدهم عندما رفضت قضاء العطلة التالية معهم. من كانت الفتاة الأخرى، أرادوا أن يعرفوا. لو أن بيلا أخبرت والديها بأننا ذهبنا إلى الفراش معاً لما تصرفوا بهذا التفهم. خططنا لأن نلتقي بعد العطلة واتجهت عائداً إلى بئر السبع.

عندما انقضت عطلتا (روش هاشانا) و(يوم كيبور) انتهى الانقطاع عن الصفوف والتحقت مع والدي بصف جديد كان قد بدأ. كان اسم مدرّستنا شولا وكانت بحق مثل السلة. عرفت تماماً لم أخبرتني أربيلا أن المدرسين في مركز الاستيعاب كانوا غير أكفاء، كانت شولا تضيع الوقت في التسلية أكثر مما تدرّس فعلاً، وتعتقد بأن أسلوبها هو الأفضل، وترفض بعناد أن تشرح باللغة العبرية بطريقة أكثر ملاءمة. كانوا يعلموننا القواعد الفصيحة علماً بأن الإسرائيليين لا يستعملونها في الحديث. لحسن الحظ أن أربيلا تعلمني، لأنني لم أتعلم أي شيء في المعتقل. ومعظم الطلاب الآخرين في الصف كانوا يبدون وكأنهم ينامون بما في ذلك أمي وأبي. واليعازر النازي يهينهم باستمرار قائلاً إنهم أغبياء لدرجة لا تمكنهم من تعلم لغة صعبة مثل العبرية، وبالتالي خُلق لديهم حاجز عقلي ضد التعلم في المدرسة، وقرروا أن يأخذوا دروساً خاصة بعد أن يتركوا فندق ليفنسون.

أحد الطلاب الروس في صفي واسمه بوفول كان مربي نحل حاول كثيراً أن يتعلم، ولكن شولا كانت تسخر منه باستمرار وكانت تتلذذ بإحراجه. كان في الصف بعض الروس الآخرين، واثنان من الأرجنتين، وإنكليزيان وأربعة أمريكيين. المهاجرون من روسيا والأرجنتين كانوا منعزلين، وقد صادقت الإنكليزيين والأمريكيين الآخرين. اعترف كيني، وهو إنكليزي يعيش في كيبوتز بالصحراء، بأن العبرية الوحيدة التي يتعلمها هي تلك التي يكتسبها من سكان الكيبوتز. زرته أكثر من مرة في الكيبوتز فكان يعرض علي دائما أن أبقى في المستوطنة. وحاول الناس هناك، اقناعي بأن أنسى فكرة فتح عيادة وأن أصبح مزارعاً معهم. إن النظام في ذلك البلد كيفهم بحيث يرغبون بطراز جماعي من الحياة ولا يطمحون لأكثر مما يمليه النظام.

كان (لين) من إنكلترا و(رون) من لوس انجلوس متزوجين، وغير مهتمين بالمدرسة أيضاً، وبدأنا ننقطع عن الدروس كثيراً. إن قصة مجيء رون ولين إلى إسرائيل كان يجب أن تكون حكاية حلم يتحقق ولكن البيروقراطية الإسرائيلية بددت أحلامهما بحياة سعيدة في الأرض المقدسة. التقى الزوجان الشابان أول ما التقيا في كيبوتز بإسرائيل. أحب أحدهما الآخر، ثم رجع كل إلى وطنه، وبقيا على اتصال إلى أن تزوجا أخيراً، وأرادا أن يعودا إلى إسرائيل ويبدأا حياتهما معاً في أول مكان التقيا فيه، وأن يكون لهما مسمكة في المستقبل. إن حكومة إسرائيل تطالب بمزيد من المهاجرين الشباب ولكن كي يعملوا بما يمليه النظام. إنهم لا يريدون أعمالاً مستقلة خشية أن يتجه الشبان الإسرائيليون نحو الأساليب الغربية ويصبحوا ذوي تفكير حر. وقد مر رون ولين من عقبة إلى أخرى خاصة تلك التي يسببها اليعازر المجنون. لقد حول القائد حياة هذه العائلة الشابة إلى حياة بائسة وهو يرفض أن يساعدهما فيما يطلبان. كان ينصحهما باستمرار أن يذوبا في النظام وينسيا فكرة الاستقلالية. لين كانت ممرضة في إنكلترا ومرت بنفس المشاكل التي مرت بها (آن بيركلي) من قبل في الحصول على وظيفة في مستشفى. والوظيفة الوحيدة التي استطاعت لين الوصول إليها هي وظيفة مساعدة ممرضة. لقد أرادا أن يعطيا حياتهما الجديدة فرصة عادلة فقررا أن يتحملا المشاق قدر المستطاع. كان يمكن رؤية ما يعانيان من أوقات عصيبة وكنت أصلي لأجلهما.

كنت قد شحنت دراجة نارية مع أمتعة والدي إلى إسرائيل، وعندما وصلت أصبح التنقل أسهل، وكانت بيلا وفورتونا تخافان من استخدامها، ولكن أربيلا كانت مغرمة بالسفر عليها، وقدرت كثيراً الوقت الذي وفرناه، حين زيارتنا والدتها في البلدة الصحراوية الصغيرة يروعام، حيث لم يبق طفل في البلدة إلا وجاء يتفرج على هذه الدراجة الهوندا النارية الرائعة. كانت عائلتها تعاملني دائماً وكأني ملك ولكن الهوندا جعلتني بطلاً محلياً. فلم تكن والدة أربيلا، أستمر، لتتركنا نغادر قبل أن تعطينا محاضرة حول السفر بأمان. فقد فقدت زوجها قبل عامين في حادث سير ولن تحتمل فكرة خسارة حبيب آخر.

أخت أربيلا الكبيرة، ليزا، أيضاً كانت تعيش في يروعام مع زوجها وثلاثة أطفال جميلين. إن طفلتي المفضلة في كل إسرائيل كانت ميشال ابنة ليزا، التي تفيض حباً وحبوراً.

كان عمرها عشر سنوات، لها عينان واسعتان وشعر ذهبي وأكبر ابتسامة يمكن أن تضيء أي مكان. كانت بيننا علاقة خاصة جداً. وكلما جئت إلى البلدة، كانت تترك عائلتها وأصدقاءها لتبقى معي فقط. كانت أربيلا تغار كثيراً من بيلا وفورتونا وتغار من ميشال أكثر. فإذا ما ثارت أربيلا علي بوجود ميشال كانت الأخيرة تقول لها أن تعاملني بلطف وتطلب إلي أن أتحملها حتى تكبر وكان ذلك يثير حنق أربيلا، وإذا ما هي غضبت من ميشال الجميع يكون ضد أربيلا ولذا تعلمت ألا تسيء معاملتي بوجود ابنة أختها.

كنت أحب كثيراً أخا ميشال الأكبر، أفنير، وكذلك هو. وكان والدهما مناحيم يحس بالغيرة من المشاعر التي يحملها أولاده لي. وكنت حريصاً دائماً ألا أقول أي شيء يتعارض مع ما يقوله الوالد. كان نادراً ما يتحدث إلي ولكني كنت أفهم لماذا وبالتالي لم أتوقف عند الموضوع وكانت علاقتي جيدة مع باقي عائلة أربيلا دائماً.

بعد الأسبوعين الأولين من دروس شولا في المعتقل، كان لدينا عطلة ثانية وعدت أربيلا أن أقضيها معها، وكنت أتلقى الكثير من القذائف من فورتونا وبيلا. ورغم أن أربيلا كانت تغار منهما ولكنها لم تضغط علي أبداً لأختار. بيلا حاولت أن تغريني بأن قالت إن والدها، مدير المصرف سيدعمني مالياً إذا تزوجنا. كانت مدللة ولم تكن لتتغير. أعلمتها أنني لست معروضاً للبيع، ومع ذلك استمرت تدفعني فتوقفت عن رؤيتها. فورتونا كانت تود فقط أن تمضي كل دقيقة صحو معي في الفراش، وتعتقد بأن المال سيسقط من السماء. أحسست بأن علي أن أقيم معها علاقة تشمل أكثر من الجنس وعندما زاد غمزها وتعريضها غير المبرر بأربيلا تركتها أيضاً. كان لدي ما يكفيني من إزعاجات أليعازر المجنون. كن يعلمن أن لدي الكثير من المشاكل ومع ذلك يُضفن مشاكل أخرى.

كانت أربيلا تتفهم كل ما أمر به، ولذا اقترحت أن نذهب برحلة خلال العطلة. كان لديها عائلة في مدينة ايلات على البحر الأحمر، حيث أصفى وأنقى ماء في العالم. وكوني غطاساً ماهراً، قررت أخذها إلى ايلات لبضعة أيام. الشيء الوحيد الذي ضايقني رغبتها في المبيت عند أهلها الأمر الذي لن يترك لنا الكثير من الحرية. ولكن عندما وصلنا أسعدني أن أجد أنها لم تكن قد رتبت الموضوع مع أخيها إذ كان خارج المدينة يزور بعض الأقرباء في

الشمال. فانتهينا إلى المبيت في فندق صغير لا يبعد كثيراً عن الشاطئ. كانت ماتزال بعد خجولة قليلاً من مضاجعتي ولكني كنت صبوراً ولطيفاً معها إذ كنت منشدّاً إلى قوامها التمثالي الرائع. لم تكن أربيلا سخية تماماً ولكنها كانت سخية فيما تقدمه.

كانت عطلتنا على قصرها في ايلات رائعة. وعرف القائد المجنون بطريقة ما أننا نخرج معاً كثيراً فحاول جاهداً أن يفصلنا عن بعض. أخبر أربيلا بأنني لست طبيباً ولا توجد عندي عيادة في البلد وهدد بأن يسرحها من عملها في مركز الاستيعاب. وقد بدا واضحاً بأن هذا النازي يهوى صديقتي. ماذا بحق السماء سيفعل هذا الكمال الأنثوي الشاب بكهل أعجف متعجرف كريه أناني لاإنساني؟ لم أكن موقناً إلى أية درجة سيسير ذلك المهووس في إبعادنا عن بعض. كان يضايق والديَّ باستمرار حتى بدأا يمسك أحدهما بخناق الآخر ويحشراني وسط متاهات خلقتها أشياء فعلها القائد. كان التوتر يتراكم ويعلو.

وبدأت حياتي العاطفية تتأثر بمشاجرات والديّ. فغالباً ما كان علي أن ألغي مواعيدي مع أربيلا حتى لا أترك والديّ ممسكين بخناق بعضهما. الفتاة الصبورة التي كانت تنتظر أن أقطع علاقاتي مع الأخريات أصبحت غير صبورة فجأة. لم تفهم كيف لا يمكن لوالديّ أن يحلّا مشاكلهما بنفسيهما. ومن ثم بدأت تفكر بأني أرى فتاة أخرى فأصبحت غيرتها لا تُطاق.

ورغم أن عائلة أربيلا، خاصة ميشال الصغيرة، أوصتها بألا تكون مصدر إزعاج لي، فلقد حقق النازي المجنون ما أراد. ذات يوم من نهاية تشرين الأول، أخبرتني بأنها لم تعد قادرة على تحمل معاملتي السيئة لها والمواعيد التي لا ألتزم بها. وانتهت علاقتنا تلك الليلة وقد ترك كل منا جروحاً في قلب الآخر.

لا بد وأن القائد ليفنسون اعتقد بأنه كسب الحرب ضد عائلتي. ولم يفكر بالأمر على نحو آخر. لقد فرق بيني وبين أربيلا غير مدرك بأنه أضاف سبباً جديداً إلى أسبابي في البقاء وعدم الرحيل! هناك ضعفاء كثيرون يقعون ضحايا لأساليبه النازية. وقلت لنفسي إني سأحذر أكبر عدد ممكن من هذا القائد المجنون. إن أمثاله هم من الأسباب الرئيسية لعودة ٨٠٪ من المهاجرين الأمريكيين لإسرائيل إلى الولايات المتحدة، محطمي القلب ولا يستطيعون

التحدث بما جرى معهم. يجب أن تقوم حملة ضد الظلم المتفشي في الأرض المقدسة. هل يمكنني أن أسكت كما فعل الكثيرون قبلي؟ هذه ليست البلد التي شرَّبها دافيد بن غوريون روحه، والتي استحوذت على قلوب العالم ونالت استقلالها عام ١٩٤٨. لقد سمح لرجال عصابيين من أمثال اليعازر ليفنسون وصاموئيل فلاتو شارون أن يلوثوا لوقت طويل روح إسرائيل دافيد بن غوريون.

واكتشفت ثانية من خلال قراءتي للصحف أن مشاكل الاستيعاب خطيرة وذات أهمية كبيرة وأن وزارة الاستيعاب نفسها كانت تحتضر تحت التهديد بحلها، وهذا جعل الأمور أصعب وأسوأ لمن هم في موقعي.

لقد شاركني رأيي محرر واحد على الأقل، بأن هدف وزارة الاستيعاب هو إعادة الناس من حيث جاؤوا بدلاً من الترحيب بهم وبأن هدف المستخدمين هو ممارسة سلطتهم في كل مجال، بأكبر قدر ممكن من الاستفزاز والاثارة.

كان لدى هؤلاء الموظفين أربعة عوامل أولية لصالحهم: الطلبات الورقية، اللغة، المعلومات، والوقت. عرفت بأن شخصاً انتهى من مركز الاستيعاب في بئر السبع. أنهى دروس العبرية واستطاع الحصول على وظيفة وشقة وعندما ذهب يطلب الاعانة الموعودة بالأجرة للمهاجرين الجدد وجد أن عليه أن يذهب إلى القدس شخصياً ليحول ملفه إلى بئر السبع. ولدى وصوله إلى القدس سأل الموظف عن الملف فلم يجده،وأخيراً سأله الرجل إذا كان قد ملأ الطلب اللازم في بئر السبع؟ هذا الطلب الغامض لم يُذكر بالطبع من قبل. هذه القصاصة الورقية جعلته يعود إلى بئر السبع ثم يرجع ثانية إلى القدس.

كان هؤلاء الموظفون يستترون خلف حاجز اللغة الذي فرضوه على أنفسهم. فبينما يناضل المهاجرون الجدد ليتعلموا اللغة العبرية يبقى فهمهم دائماً قاصراً عن الاحاطة بالمبادلات المعقدة التي تحدث في وزارة الاستيعاب، ومعظم الموظفين هناك يجهلون اللغات مثل الروسية والاسبانية أو الإنكليزية ويجعلون من هذا الجهل أداة لاهانة المهاجرين، فهم يتحدثون ببطء وكأنهم يخاطبون طفلاً صغيراً أو شخصاً مسناً.

بالنسبة للمعلومات، كي تحصل على أجوبة بالحقائق الأساسية عليك أن تعرف بدقة الأسئلة التي ستسألها باللحظة المناسبة. ذات مرة أضاع رجل بطاقة الهجرة لديه ودخل في دوامة أن يتقدم بطلب مرة أخرى. كان عليه أن يقسم في المحكمة بأنه أضاع البطاقة بالتأكيد، ودفع ثلاثة دولارات ليحظى بالتوقيع على إقراره، وعاد إلى الوزارة متوقعاً الحصول على بطاقة جديدة ولكن لقصر نظره لم يسأل عن نموذج الورقة التي يجب أن يُكتب عليها الإقرار فعاد من جديد إلى المجمع رقم واحد.

والموظفون هنا يتقنون إضاعة الوقت أيضاً، فهم يحبون أن يتركوا الناس يقفون بازدحام أمام مكاتبهم وهم ذاهبون يزورون زملاءهم هنا وهناك ويثرثرون. أو هم يختارون أن يجلسوا ويتناولوا طعامهم بكل راحة بينما الناس تنتظر مكدسة في طوابير. وقد يكتشف المشتكون من هذا الوضع بأن ملفاتهم ضاعت، أو أن أسماءهم نزلت في القائمة السوداء، أو أن انتظاراً أبدياً ينتظرهم في الزيارات اللاحقة.

بعد فترة قصيرة من انفصالنا أنا وأربيلا وصلت مجموعة جديدة من المهاجرين الأمريكيين إلى (المعتقل). وحاول القائد، بمساعدة تشانا شابيرو، أن يتملق المجموعة الجديدة كي تثق بهما. لقد أراد النازي المجنون من جميع المقيمين في المعتقل أن يضعوا حياتهم بين يديه. من الممكن للأوروبيين الشرقيين أن يأتمنوا مثل هذا الرجل على مصائرهم ولكن الأمريكيين شيء آخر. كان يتجنب التحدث إلينا في مجموعات ويحاول دائماً أن يفصل الأفراد عن بقية الأمريكيين. وعرفت عائلتي الكثير عن القائد وعن تشانا شابيرو خلال الأسابيع الستة التي قضتها في مركز الاستيعاب. ولكن بعد فترة قصيرة من وصول الدفعة الجديدة من الأمريكيين كشفت تشانا عن حقيقتها كامرأة فاسقة منحطة. فبينما كنت مع أمي وأبي أمام غرفتها في إحدى المرات سمعناها تتحدث إلى القائد. كانت تخبره عن الأمريكيين الذين يتذمرون من الأوضاع في المعتقل، وكان يشكرها على جميع معلوماتها. كان الجميع يعتقد بأن المفروض بتشانا أن تحمي مصالح الأمريكيين والكنديين، ولكنها بدلاً من ذلك كانت تستعمل تلك الثقة لتساعد الهر ليفنسون في خداعنا. وتبين أن جمعية الأمريكيين والكنديين في إسرائيل كانت تمول بشكل أساسي من الوكالة اليهودية التي يعمل اليعازر

ليفنسون لصالحها. ولم يكن الناس مدركين لحقيقة أن جمعية الأمريكيين والكنديين في إسرائيل تعمل لصالح الوكالة اليهودية.

كان دافيد تشارنا أول من التقيت به من الأمريكيين الجدد. كان اختصاصياً بعلم النفس ومهتماً في كتابة تحليل نفسي لعملية الاستيعاب في إسرائيل، وكان ممتناً للمعلومات التي استفاد منها بعد محادثته معنا. لقد وفرت عليه الكثير من الوقت في معرفة الناس الذين سيدخلونه في الدوامة، ومعرفة الأسئلة التي سيسألها لموظفي الوكالة، شكل الطلبات، ونوعية الأجوبة التي سيجيبهم بها، مما ساعده في تجاوز بعض الروتين أيضاً. لقد نفر دافيد بعد أن سمع عن الأشياء التي تحدث في المعتقل، وكانت فكرة أن المهاجرين الجدد تُساء معاملتهم ويدفعون لترك إسرائيل صعبة القبول. وخرجنا أنا ودافيد بفكرة تأسيس جمعية للمهاجرين الجدد تتألف بشكل أساسي من المهاجرين الذي يعيشون في مركز الاستيعاب. والناس الذين أنهوا إقامتهم في المركز يمكن أن يكونوا مرشدين للمجموعة. غاية هذه الجمعية مساعدة المهاجرين الجدد على الاستقرار في مركز الاستيعاب، وتزويدهم بالمعلومات المفيدة وتشجيعهم على المشاركة في الأعمال الإجتماعية التي تنظمها الجمعية. كانت غايتنا القيام بالعمل الذي كان يُفترض أن تقوم به جمعية الأمريكيين والكنديين في إسرائيل والذي لم تفعله في الحقيقة. وقد قررنا أن ننتظر حتى نتعرف ببقية الأمريكيين الجدد ونبدأ بتنظيم جميع المهاجرين الناطقين بالإنكليزية في الجمعية، وبعد أن ناقشنا جميع الأفكار الأولية لإقامة الجمعية خططنا أن ندعو المهاجرين غير الناطقين بالإنكليزية للانضمام إليها. سيكون لهم حق الاقتراع وسيُعترف بهم كأعضاء مساوين لبقية أعضاء المجموعة. المهمة الأولى كانت الحصول على إجماع آراء المهاجرين الجدد.

إن أكثر المتحمسين لفكرة إنشاء الجمعية كانت جويس أوبرين. وكانت قد وصلت مع مجموعة كبيرة من الأمريكيين، متحمسة لأن تبدأ حياتها في إسرائيل، بعد أن تحولت إلى الديانة اليهودية في أمريكا وهي حريصة على مساعدة إسرائيل. نشأت بيننا صداقة حميمة جداً وحاولنا ألا يدع أحدنا الآخر وحيداً. ولكن كان لدى القائد المجنون أفكار أخرى عن كيفية معاملة جويس، فلم تعجبه فكرة وجود عدد كبير من الأمريكيين في المركز وبدأ يحس بأنه يضعف أمام وحدتنا، فكانت خطته الأساسية أن يضرب أية علاقة تقوم بدون موافقته.

كانت جويس واحدة من ألطف النساء، وكان طبيعياً أن تجذب إليها انتباه الرجال في المركز. لم تكن لتخرق أي قانون ولكن القائد حاول أن يعزلها عن الرجال في المساء. وفي أحد الأيام علق اليعازر المجنون على باب شقة جويس ملاحظة تقول (تعتذر جويس اوبرين عن استقبال الزائرين بعد الساعة التاسعة مساءً). فشكلنا لجنة وذهبنا لمقابلة القائد الذي جاءنا بقصة الثور والديك وأن جويس رجته أن يوقف الرجال عن إزعاجها بالزيارات ليلاً ولهذا وضع الملاحظة على بابها. ووقفت تشانا شابيرو إلى صفه في المسألة ولكن جويس وأصدقاءها لم يستسلموا، واستطعنا أن نفشل محاولة أخرى من محاولات القائد في السيطرة على المهاجرين.

دعانا اليعازر المجنون، أنا ووالدي إلى اجتماع في مكتبه (عودوا إلى وطنكم أنتم اليانكي). أخبرنا بأنه في اجتماع بين ربيه دولزن (المدير التنفيذي للوكالة اليهودية) ودافيد ليفي (وزير الاستيعاب)، ويوسف بورع (وزير الداخلية والشرطة) ويونا ماتان (وزارة الصحة) وموريشا آكيم (رئيس المشرفين على المهاجرين) تقرر تكليفه بأن يخبرنا بأن نعود إلى أمريكا. لم نأبه لقصته، وأخبرنا ذلك النازي بأننا نخطط لاتخاذ خطوات توقفه عند حده في مضايقتنا أكثر من ذلك. قال إن كنا سنحاول خلق المتاعب له، «فإسرائيل دولة صغيرة، ولدي أصدقاء عديدون سأجعل حياتكم صعبة إذا ما بقيتم في بلدي». لم يكن الرجل يعرف بأننا خططنا لمقابلة الممثل المحلي لوزارة الاستيعاب، فاعتقد بأنه سيرهبنا بتهديداته. وقال إننا لم نستطع أبداً أن نعمل كأطباء، وهو يجهل أنني وأبي قد عالجنا مرضى كثيرين مستعملين شققنا كعيادات مؤقتة.

جوناثان، ايراني الأصل، كان واحداً من مرضانا الأوائل، يعيش في إسرائيل منذ عشر سنوات لم يستطع خلالها أن ينام جيداً، بدأ في السنتين الأخيرتين يعاني من مشكلة صعبة وبعد أن زار جميع الأطباء من كافة الاختصاصات كان يفكر ببزل سائل نخاعي شوكي قال إنه لم يكن يستطيع أن ينام لأكثر من ساعتين في الليلة على مدة السنتين الماضيتين ويرغب في أن يجرب أي شيء يمكن أن يساعده. وفي الليلة الأولى بعد زيارته لنا أعتقدت زوجته بأنه مات، فهي لم تستطع أن توقظه، وأخيراً بعد عشر ساعات من النوم العميق أفاق جوناثان وهو يشعر وكأنه أُحيي من جديد. كان بغاية الامتنان حتى أنه أحضر لنا أشهى أنواع الفواكه والخضار

الطازجة من مزرعته. وأخذ والديّ إلى بستانه حيث التقوا بأولاد أصدقاء لنا قدامى هناك. كنا نعرف أنهم يعيشون في مزرعة في إسرائيل ولا نعرف أين، حتى قال جوناثان إنهم جيرانه. كان معظم منتجاتهم تُباع للمصدرين ومعظم أرباحهم كانت تذهب للوسطاء البيروقراطيين. والطريقة الوحيدة التي جعلتهم يستمرون في العيش سبع سنوات في إسرائيل كانت آلاف الدولارات التي ترسلها لهم عائلتهم كل سنة. كانوا يعملون ست عشرة ساعة يومياً على مدار سبعة أيام أسبوعياً ومع ذلك كانوا عاجزين عن تحقيق أي ربح. وكان الكثيرون من الأمريكيين المثاليين الشباب الذين يعيشون في إسرائيل بنفس الظروف يخجلون من العودة إلى وطنهم ومن الاعتراف بأنهم كانوا واهمين وأضاعوا كل تلك السنين في نضال لن يربحوه أبداً. ففي كل مرة يعتقدون بأنهم ربحوا المعركة تقوم البيروقراطية بلعبة ما وتأخذ أرباحهم.

أصغر مرضانا طفل عمره أربع سنوات، اسمه جوستين مفرط النشاط، ولديه عائق في الكلام ونقص في القدرة على التعلم، وحاول الأطباء الإسرائيليون تصنيفه مع المتخلفين عقلياً ولكن أمه لم تقبل بتشخيصهم، وكنا نستقبله أنا ووالدي لمعالجة العمود الفقري ورفع كمية السكريات الكبيرة البيضاء في نظامه الغذائي، الأمر الذي جعل من جوستين مباشرة طفلاً هادئاً متوازناً. لن تستطيع الكلمات وصف الامتنان الذي قابلتنا به والدته.

كان لدينا مريض فني يقيم في إسرائيل منذ أمد طويل. وكان قد تعرض لحادث سيارة منذ سنين عديدة قبل أن يأتي إليها، بدأ عنقه يتصلب على أثره حتى لم يستطع أن يحركه أبداً، وكان عليه أن يدور بكل جسمه ليرى أيّاً كان في جهة من جانبيه. لقد زار أبراهام فرانكل من بئر السبع العديد من الأطباء في كافة أنحاء العالم، ولم يجد من يساعده، وقد أقسم أنه لو استفاد من معالجتنا فسوف يبني لنا عيادة في أي مكان نريده في إسرائيل. لقد استغرق معنا الأمر عدة زيارات ولكننا استطعنا أخيراً أن نجعل رقبته تتحرك. لاحظ أبراهام أننا لم نكن سعداء في المعتقل فاقترح أن ننتقل إلى شقق خاصة. لسوء الحظ، عندما طلبنا منه أن يفي بوعده بمساعدتنا بقرض تراجع عن وعده. قال إن المال لديه ولكنه جاهد سنوات عديدة ليصبح غنياً وهو لن يتخلى عن أمواله. كان يدّعي بأنه متدين وأحرجه كثيراً أن ينكث بوعده حتى أنه توقف عن زيارتنا للمعالجة. بعد أن توقف أبراهام عن زيارتنا بوقت قصير تصلبت

رقبته ثانية فأرسلنا له خبراً بأننا على استعداد لمعالجته ولكنه كان خجلاً جداً ولم يعد.

في تشرين الثاني ١٩٧٨ بدأت عائلتي بزيارة المكاتب الحكومية سعياً وراء إعانة مالية لفتح عيادة، كان أول من تحدثنا إليه (تومي)، فتاة تعمل في المعتقل كممثلة عن وزارة الاستيعاب. وكان القائد المجنون يرعبها فتطيع رغباته بتأخيرنا وعندما لاحظنا تعاونها مع النازي تجاوزناها وقابلنا رئيس فرع وزراة الاستيعاب في بئر السبع السيد موشي نوتكافيتش وأخبرناه عن كل ما كان يجري في المعتقل. فاستدعى اليعازر المجنون الذي أنكر جميع اتهاماتنا بما في ذلك قوله لنا أن نعود إلى الولايات المتحدة. وقف نوتكافيتش إلى جانب القائد وبدأنا نسمع الكلمة الشهيرة: «هذا غير معقول، مثل هذه الأشياء لا تحدث في إسرائيل»! حاول نوتكافيتش أن يلف ويدور ولكنه لم يكن يعلم بأننا كنا مصممين على الوصول إلى نتائج. وعلى مدى الأشهر التي تلت قابلنا السيدين سابيون وكالينسكي (يعملان بوكالة في تل أبيب يُفترض فيها أن تساعد الناس الراغبين في الهجرة إلى إسرائيل) كما قابلنا الآنسة يونا ماتاهن (وزارة الصحة)، ويوفال روجينسكي وسوزان غاي (وزارة الاستيعاب) وأخيراً السيد يورام هيرسبورغ (معاون مدير الدائرة الاقتصادية في وزارة الاستيعاب) وكان دائماً الجواب نفسه:

«هذا غير ممكن! مثل هذه الأشياء لا تحدث في إسرائيل، عليكم أن تعطونا بعض الوقت كي نساعدكم، عليكم أن تعطونا بعض الوقت كي نساعدكم، عليكم...».

كان على معظم المهاجرين الجدد من الولايات المتحدة أن يمروا بهذا الدور البيروقراطي. بحار أمريكي متقاعد اسمه ليونارد ياس بدأ يمل الروتين وكان يعمل بالأحجار الكريمة، وطلب أن يعيش في مكان قريب من تل أبيب لكونها مركز تصميم المجوهرات في إسرائيل. ولحكمتهم اللامحدودة، ارتأوا في وزراة الاستيعاب أن يضعوا ليونارد في بئر السبع مجبراً على اضاعة أمواله في السفر إلى تل أبيب كي يجد عملاً. كانت هذه حال معظم الأمريكيين دون أي ذكر لبقية المهاجرين.

لم ننته أنا ودافيد تشارنا من وضع خططنا لتنظيم عملي للمهاجرين حتى بدايات كانون أول ١٩٧٨. فبإمكان الوكالة اليهودية ووزارة الاستيعاب معاملتنا بالشكل الذي يرغبون به

كأفراد، ولكن إذا ما استطعنا أن نوحد جميع المهاجرين فقد نحظى بمعاملة أكثر عدلاً. كان موقف الوكالة اليهودية «إن لم تعجبكم الحال، غادروا!».

في الحقيقة كانت الوكالة اليهودية تفضل أن يغادر المهاجرون إسرائيل. إذ كانت تتلقى عشرة آلاف دولار من اليهودية العالمية عن كل مهاجر جديد بحسب أقوال أحد الموظفين المتعاطفين مع الوكالة، وكلما عجل المهووسون من أمثال اليعازر ليفنسون بدفع المهاجرين إلى العودة من حيث أتوا كلما زادت الأموال التي تكدسها الوكالة اليهودية في جيوبها. ومن ثم يستطيع المنحرفون أمثال أريي دولزن السفر مجاناً حول العالم وتلقي الدرجات الفخرية للاشيء سوى السرقة من يهود العالم! كان أريي دولزن عظيماً في استعمال علم النفس مع الناس. إنه يخبر اليهود في العالم «نحن لسنا بحاجة لأموالكم بالقدر الذي نحتاج فيه إليكم. إسرائيل تحتاج مئة ألف مهاجر آخر فوراً!» فهو بذلك يجعل الناس يحسون بالذنب أكثر لعدم هجرتهم إلى إسرائيل ويجعلهم يدفعون أكثر. هو لم يرغب بمهاجرين أكثر بل بأموال أكثر. لم يكن يوجد شقق كافية لإيواء المهاجرين الموجودين في مراكز الاستيعاب المنتشرة في البلد، ومع ذلك يريد دولزن من مئة ألف مهاجر آخر أن يتكدسوا في المعتقلات المكتظة أصلاً.

بدأ التنظيم يحظى بالتأييد والزخم، ولكن أمريكيين اثنين وشيا بنا، دافيد وجودي سيجل، أخبرا القائد وتشانا شابيرو عن خططنا وأشاعا بأني وعائلتي نستغل الناس لأغراضنا الخاصة. واستطاع الأربعة أن يقنعوا العديد من غير الأمريكيين بعدم الانضمام إلى التنظيم، وهدد النازي المجنون بأنه سيضع أسماء العائلات المشاركة في القائمة السوداء. لقد أرعبناه وجعلناه يقوم بتصرفات يائسة. ويكفي أن الوكالة اليهودية أرسلت الآنسة توفا شيموني إلى المعتقل لتهدئة الاضطراب. وكان اليعازر، وتشانا شابيرو، والآنسة شيموني يعقدون اجتماعات خاصة رافضين أن يعلمونا بتعليقات كل من القائد المجنون والسيدة شابيرو. وقد أكدت الآنسة شيموني للكل بأن تحقيقاً سيجري حول الاتهامات الموجهة ضد اليعازر ليفنسون وتشانا شابيرو.

في كانون الثاني، تصاعدت رغبة النازي المجنون في إخراجي خارج إسرائيل بشكل هائل. لقد اعتقد أن علاقتي بأرييلا قد انتهت تماماً ولكنها في إحدى الليالي جاءت إلي وقالت

إنها ترغب في أن نتصالح. لقد حاولنا أن ينسى أحدنا الآخر ولكن مشاعرنا كانت أقوى من أن نتجاهلها. وقد أسعد عائلتها كثيراً أن نُشاهد معاً ثانية. كان اليعازر المجنون يضغط على أربيلا باستمرار كي تقطع علاقتها بي، وقد وصلت به الحال إلى حد محاولة الاعتداء عليها وكدت أن أفقد صوابي لدى رؤيتي أربيلا تخرج مسرعة من مكتبه وهي تمسك دموعها. وعندما رآني القائد المجنون اتجه مسرعاً لمكتبه، وضع مسدسه على الطاولة للحماية.

«إذا ما حاولت لمس أربيلا مرة ثانية سأكسر كل عظم فيك! نحن معاً مرة أخرى ولن يمكنك أن تفرقنا بألاعيبك». لوح بمسدسه بعصبية مشيراً لي أن أغادر الغرفة ووعدته بأن نلتقي ذات يوم.

دعا الرئيس نافون، رئيس إسرائيل، طلاب الجامعة من بلدة أربيلا لمقابلته في شباط. وتمكنت من حضور اجتماع الطلبة القادمين من بلدة يروعام كضيف على أربيلا. كان بيت الرئيس منسقاً بطريقة جميلة من الداخل. وخلال اللقاء أكد السيد نافون على الحاجة إلى جذب شباب أكثر من الدول الأخرى. وسأل رأي المجموعة حول أسباب هجرة الكثير من الشباب الإسرائيليين إلى البلدان الأخرى وبخاصة الولايات المتحدة. كان إجماع رأي الطلبة على أن النظام البيروقراطي في إسرائيل لا يسمح بحرية التفكير كما أن الحكومة حاولت أن تفرض مثلها القديمة على الشباب. فكانت النتيجة أن يهاجر من إسرائيل كل عام تقريباً نفس العدد الذي يهاجر إليها. وبدا السيد نافون مهتماً بصدق بما قاله المجتمعون لكن لم يكن لديه لسوء الحظ صلاحية التغيير فمنصب رئيس الجمهورية في إسرائيل كان مركزاً صورياً دون أية سلطة. كان يجب أن يعقد مثل هذا الإجتماع رئيس مجلس الوزراء بيغن.

استمر المهاجرون الجدد في المعتقل في الدوامة بينما استمرت عائلتي في مراسلاتها لمكاتب الدولة المختلفة. كنا نرغب في العمل قريباً من تل أبيب ووجدنا كوخاً صغيراً في تجمع على الشاطئ، حوالي ثلاثين دقيقة شمال المدينة الكبيرة ولأن الوكالة اليهودية ووزارة الاستيعاب رغبتا في إبعاد عائلة روستون عن المعتقل بأقرب وقت ممكن فقد تلقينا الموافقة على مساعدة شهرية بسيطة تغطي المأوى الهزيل الذي وجدناه. استلمت شيكاً منفصلاً يخصني ويغطي أجرة ثمانية أشهر (التي يجب أن تُدفع بأكملها مقدماً للمؤجر) بينما كان على والدي الانتظار

لأن أحد الموظفين أخطأ بالمبلغ. ذهبت مع أريبلا لمساعدة المرأة التي ستؤجرنا المنزل كي تصبح جاهزة للسفر إلى إنكلترا. وأردنا أيضاً أن نكسب بعض الوقت بعيداً عن جماعتنا. كما أنه كان على أريبلا أن تدرس في مكان بعيد عن البيت. ولذا كان أكثر ملاءمة لها أن تكون في الشمال. لم أتحقق بأن القائد المجنون سيقوم بعمل من أعماله الشنيعة المريضة.

قبل أسبوعين ونصف دُعي والديّ إلى عشاء في كيبوتز محلي. وخلال الطعام سألهما كثيرون عن رأيهما بالاقامة في مركز الاستيعاب فأخذا يشرحان المظالم التي تحدث في المعتقل. وأخبرا عن الرجل المسؤول عن كل الأعمال الشنيعة وتبين أن أحد الموجودين على العشاء كان السيد آرون يالدين وزير التربية السابق، وقد أخبر السيد يالدين فيما بعد القائد بتعليقات والدي. فكتب اليعازر المجنون رسالة إلى أمي وأبي يتهمهما فيها بتلفيق مزاعم كاذبة ضده. وكانت الاحتجاجات التي قدمها أهلي إلى السيد يالدين مبالغاً فيها أكثر من اللازم حتى أن بعضها كان ملفقاً من قبله. والغلطة الكبيرة التي وقع فيها هو أنه وضع جميع هذه الاتهامات مكتوبة. لأن والدي تلقى فيما بعد رسالة من السيد يالدين تقول إنه لا يعرف شيئاً عن الشكاوى التي يدعي اليعازر المجنون بأن والديّ قد قدماها.

لا بد وأن النازي المجنون كان خائفاً من أن تحاول عائلتي تشويه سمعته بعد أن تركنا المعتقل، وكان محقاً في ذلك. فعندما طلب والديّ من الآنسة تومي، ممثلة وزارة الاستيعاب، تصحيح الشيك المحول لها لتغطية الايجار جاء من يعلمهما بأن القائد الأحمق أمر تومي أن تعطيه الشيك. لم يكن من حقه أبداً أن يمسك عليهما أموالهما ولكنه كان متعوداً على فعل مثل هذه الأشياء. وطلب منهما أن يوقعا له على وثيقة يبرئانه فيها من أي سوء تفاهم وقع بينهما سابقاً. وإذا رفضا المصادقة على إنذاره، لا يوجد شيك. كان أبي مغتاظاً للغاية وأخبره أن يأخذ الشيك وخرج مع والدتي من مكتبه وتركه في حالة صدمة.

في وقت لاحق من ذلك الصباح (٢١ آذار ١٩٧٩) رأى والداي القائد المجنون يمشي برفقة بعض القادمين الجدد إلى المعتقل وسمعاه يعرض خدماته ومساعدته عليهم، كانت أمي ماتزال في غاية الغضب فقالت لهم «لا تصدقوه، إنه كاذب ولص!».

تراجع النازي إلى الخلف، «اخرسي، أيتها الأمريكية الكاذبة الساقطة» كان ذلك أكثر

مما يستطيع والدي تحمله، وقد نسي بأن النازي كان يتفاخر بمعرفته للكاراتيه، فالتقط من الأرض غصن شجرة صغيراً وركض به خلفه. كان اليعازر الأحمق بانتظاره ورفسه على ساعده. كانت الضربة قوية فأسقط والدي الغصن من يده وأمسك بذراعه متألماً. ومن ثم عاجله برفسة أخرى قوية على أضلاعه جعلته يفقد أنفاسه. وبعد أن تحقق من أن كثيرين من المهاجرين الأمريكيين وغيرهم قد شاهدوا ما فعل ركض اليعازر المجنون إلى مكتبه وأبي لم يمسه.

بعد ذلك مباشرة طلبت توفا شيموني حضور والدي إلى مكتب القائد. جلس القائد الأحمق خلف مكتبه رافعاً كلتا يديه يعرض جروحاً بليغة تدمي على طول ساعديه. لقد جرح المهووس نفسه وادعى بأن أبي ضربه على ذراعيه بخرطوم مطاطي. كان مجنوناً لدرجة أنه ترك الدم يجف على يديه ناسياً أن ينظف الجروح التي أحدثها بنفسه. المشكلة الكبيرة في روايته هي أنه كان من المستحيل إحداث جروح طولانية بواسطة خرطوم أو حتى غصن. فالذي تسبب بالجروح آلة حادة مثل السكين أو الشفرة. ومع ذلك أصر اليعازر المجنون على روايته وعرض أن ينسى مسألة دعوة الشرطة إذا ما وافق والدي على توقيع الانذار الذي قدمه مقابل شيك الايجار. مرة ثانية رفض والديّ العرض وتركا الحيوان الموتور لمعاناته.

لم يترك القائد الأحمق الأمور تهدأ لوحدها بل زادها سوءاً. فبينما كان والدي ووالدتي يتناولان غداءهما في قاعة الطعام أخبرهم أحد أولاد جوزمان بأن الشرطة تسأل عن الدكتور ساي روستون. وكانت الشرطة تنتظر في موقف السيارات أمام البوابة الرئيسية للمعتقل مباشرة.

ولحق معظم الأولاد المقيمين في المركز بوالدي حين خرج يسأل عما يريده رجال الشرطة وعندما وصل إلى خارج البوابة واجهه ضابط قصير مكتنز بشكل غير ودي على الإطلاق «أنت الدكتور روستون؟» سأله الشرطي «نعم، ماذا تريد؟» «لا أعرف الإنكليزية. تعال» «لماذا؟» غضب الضابط. «لا أتكلم الإنكليزية! تعال!» حاول الامساك بأبي الذي تراجع إلى الخلف واضعاً يديه بينه وبين الشرطي. فما كان من الشرطي إلا أن أمسك بيدي والدي بين يديه وبدأ يلوي أصابعه حتى نزل على ركبتيه من شدة الألم. وما إن أخضع الرجل ذا الستين عاماً حتى ضربه ضربة كاراتيه على مؤخرة رقبته. جميع الأطفال

تقريباً شاهدوا المعاملة الوحشية لرجل عرفوه طيباً وكريماً. هل يمكن لهذه العيون الصغيرة أن تنسى ذلك المشهد المريع؟.

لم يتذكر أبي أي شيء بعد الضربة على عنقه حتى استعاد وعيه في مستشفى بئر السبع. أفاق والدي قبل الوصول إلى غرفة الاسعاف. ولكنه كان مازال في حالة دوار إثر الضربة. من الواضح أن رجال الشرطة كانوا خائفين من أن يكون والدي قد أوذي بشكل كبير. ولذا طلبوا فحصه قبل اتخاذ أي إجراء آخر. طلب المناوب خروج الجستابو خارج الغرفة وفحص والدي ليتأكد من وجود أي جروح. ومن ثم اقترح هذا الشخص الإنساني أن يترك والدي المستشفى قبل عودة الشرطة وأشار بطلب المساعدة من محامٍ أو أي شخص مسؤول. خرج والدي من باب جانبي متجهاً نحو مركز الاستيعاب ولكنه رأى موقف السيارات يعج برجال الجستابو فالتف من عند الزاوية إلى بيت ساره ناي غيث، ممثلة جنوب افريقيا في جمعية إسرائيل. ولم تكن سارة شابيرو أخرى، كانت تساعد ناخبيها كأفضل ما تستطيع.

ورغم أن مسؤولية السيدة ناي غيث لا تشمل الأمريكيين فقد ساعدت والدي في محنته، اتصلت بأصدقاء تثق بهم في المعتقل وأمنت خبراً لوالدتي بأن زوجها في أمان حالياً، وأعطي الحاخام نات رينسنر، رئيس تشانا شابيرو، علماً بالموضوع. وبعد اجتماع مطول في بيت ساره نصحت المجموعة أبي بكيفية حل الموضوع، فطلبوا من توفا شيموني الذهاب إلى بيت ناي غيث وهناك وعدت بالمساعدة في تسوية الموقف لصالح والدي. وعاد أبي إلى المعتقل برفقة الآنسة شيموني حيث واجه قطيعاً من الجستابو. كل ما كان على أبي فعله هو توقيع إقرار مكتوب بالعبرية (وهو لا يفهمها) يوافق فيه على عدم التعرض ومهاجمة القائد المجنون. مرة ثانية، لم يثق أبي بترجمة الآنسة شيموني للاقرار ولذا وقعه بالاتجاه المعاكس وكتب بأنه لا يفهم ما يوقع عليه وبأنه يوقع تحت التهديد. غادر رجال الشرطة المكان وأحضرت الآنسة شيموني شيك عائلتي من النازي الأحمق.

إن الاتهامات التي وجهناها ضد اليعازر ليفنسون المعروف بالقائد المجنون، القائد، اليعازر الأحمق، ليفنسون المجنون، النازي المجنون، النازي، كانت:

١ ــ آب ١٩٧٨ : إثارة غضب رجل مسن يعلم مسبقاً أنه يعاني من قلب ضعيف وتسبب له بأزمة قلبية .

٢ ــ أودع فتاة أمريكية مصحة عقلية في أيلول ١٩٧٨ ولم يسمح لأي من المهاجرين الجدد بمساعدتها . وكان على والدة الفتاة أن تطير من الولايات المتحدة مصطحبة أوراقاً تثبت أن ابنتها تعاني من انخفاض نسبة سكر الدم ، وكنت قد اقترحت أنا وأبي على القائد مثل هذا التشخيص .

٣ ــ كان يهدد أربيلا باستمرار في الفترة ما بين تشرين الأول ١٩٧٨ وآذار ١٩٧٩ بفقدان وظيفتها وهاجمها فعلاً .

٤ ــ كان يمسك علينا ، ولمرات عدة ، بريدنا ، فلم تصلنا أبدا رسائل عديدة أُرسلت لنا من العائلة والأصدقاء في الولايات المتحدة ، وقد عانى مهاجرون آخرون من هذه المشكلة .

٥ ــ لم يهتم بإزالة الأوحال عن الدرجات المؤدية إلى غرفة الطعام في المعتقل ، الأمر الذي أدى إلى وقوع سيدة مسنة وكسر وركها في شباط ١٩٧٩ . وكانت قد قُدمت طلبات كثيرة لازالة الأوحال قبل وقوع الحادث .

٦ ــ إنه مسؤول عن موت سيدة أرجنتينية بسبب تناولها جرعة كبيرة من الدواء . وادعى أنها مصابة بالسرطان .

٧ ــ كتب رسالة احتيالية إلى والديّ حول محادثة بينهما وبين وزير التربية السابق يالدين .

٨ ــ وضع معلومات كاذبة في ملف عائلتي ، الأمر الذي أدى إلى معاملة متحاملة ضدها من موظفي الحكومة .

٩ ــ تدخل في موضوع تلقينا مساعدة مالية من وزارة الاستيعاب .

١٠ ــ حاول أن يلصق بأبي جريمة لم يرتكبها .

١١ ــ هدد بطرد الحارس الأمني لمركز الاستيعاب في حال إبلاغه الشرطة بالوحشية التي استعملها ضد والدي .

١٢ ــ هدد بوضع أسماء المهاجرين الجدد في القائمة السوداء إذا هم ساعدوا في التنظيم الذي حاول الأمريكيون إقامته .

١٣ ـــ أجبرني على مشاركة والديّ الشقة لمدة ستة أشهر بينما أعطى الأزواج الآخرين شققهم المستقلة ووضع العزاب مع آخرين مناسبين.

١٤ ـــ لقد هدد وراود كثيراً من النساء العازبات عن أنفسهن في المعتقل، وإذا ما رفض هؤلاء الانصياع إلى رغباته هدد بتحويل حياتهم إلى جحيم، وبالتالي كان يوجد الكثيرات في المعتقل ممن يعشنَ حياة تعيسة.

١٥ ـــ رفض السماح لسيدة فرنسية بالعناية بابنها في المعتقل الأمر أدى بالولد إلى إصابته باليرقان.

١٦ ـــ سمح بإقامة حفلات الزفاف في قاعة الطعام لغير المقيمين في المركز. وقدم لهم الخمر الذي هو من مخصصات المهاجرين الجدد لأيام العطل. وتلقى الأجور من هؤلاء الناس مقابل تقديم ممتلكات حكومية بشكل غير قانوني، هذه الممتلكات التي يجب أن تكون مخصصة لاستعمال المهاجرين الجدد المقيمين في المركز.

١٧ ـــ فرض على جويس أوبرين منع تجول غير شرعي.

١٨ ـــ وعد المهاجرين الذين عملوا كمخبرين له ضد المهاجرين الآخرين بخدمات.

١٩ ـــ أكثر من مرة قال لعائلتي: «اذهبوا إلى بلدكم، أنتم الأمريكيون الأغنياء، اليهود الأوغاد!».

٢٠ ـــ سمح للروس بأن يأخذوا كلابهم المصابة بالقراد في نزهات في المناطق المغطاة بالأعشاب في المعتقل معرضاً الأطفال للخطر. ولقد لفتُّ شخصياً نظر القائد لعدة مقالات في الصحف عن أطفال إسرائيليين يموتون بسبب تعرضهم للدغات القراد فتجاهل كلياً جميع التحذيرات.

٢١ ـــ شوه اسم الألمان الذين يحاولون إزالة وصمة العار التي تركها النازيون أمثال اليعازر ليفنسون، ويناضلون من أجل العيش بسلام مع بقية شعوب العالم.

لا يمكنني تذكر جميع الفظاعات التي قام بها اليعازر ليفنسون ولذا عددت تلك التي تذكرتها. وقلت في نفسي، ما من شك، إذا لم يوقفه أحد عند حد فسيستمر في المظالم.

الفصل الخامس

الهروب من المعتقل

عندما سمعت بما حدث لوالدي على يد القائد المجنون، اتجهت مسرعاً إلى المعتقل. وقطعت الرحلة من ميخموريت، حيث يوجد منزلنا، إلى بئر السبع في ساعة وعشرين دقيقة. وهي تأخذ عادة ساعتين وعشرين دقيقة على الدراجة النارية، ولكن الادرينالين كان يصطخب في دمي ولم أستطع أن أقود دراجتي بحذر. لا بد وأن رؤيتي وأنا أدخل مركز الاستيعاب قد أفزعت النازي، بحيث هرع مسرعاً إلى مكتبه. كانت ضحاياه من النساء العازبات والشيوخ فقط، وليس ممن هم مثلي، ممن يستطيعون أن يجعلوه ينهار بأقل مشكلة. لقد وعدت والديّ بألا ألاحق اليعازر المجنون واتفقنا على أن يُعاقب بالوسائل القانونية. لقد أرسلت الوكالة اليهودية رئيس المحققين في الشكاوى ضد الدولة في إسرائيل السيد دافيد أرياف إلى المعتقل ليحقق في أسباب الحادث بين أبي واليعازر ليفنسون. ووعد السيد حايم رافيف السيدة ساره ناي غيث بأنه سيهتم بالحادثة. رغبت الحكومة في التعتيم على القضية خشية وصول مثل هذه القصة إلى الصحف. للأسف أرادت الدولة مجرد تهدئة عائلتي حتى نبعد عن المعتقل. وما إن ساعدت والدي في نقل أمتعتنا إلى ميخموريت، ولم نعد من سكان المعتقل حتى أصبح القائد المجنون حراً في أن يستعيد أسلوبه المعتاد.

وعلمنا من بعض الأصدقاء في المركز أنه ما إن غادرنا المعتقل حتى بدأ اليعازر الأحمق بالتلويح بسوطه مرة ثانية. وأقسمت عائلتي بأنها لن تتخلى عن هؤلاء غير القادرين عن الدفاع عن أنفسهم، فقرر والدي الكتابة إلى رئيس صحيفة الجيروزاليم بوست وكتبت أنا إلى رئيس الدولة نافون. أخبرناهم عن الأمور التي حدثت في المعتقل وطلبنا مساعدتهم في تعديل الوضع. وهذا نص الرسالة:

الرئيس اسحاق نافون

مقر الرئاسة

اورشليم، إسرائيل

عزيزي الرئيس نافون:

حظيت بفرصة حضور اجتماع الطلبة من بلدة يروعام، كضيف، في يوم الأحد ٢٥ شباط ١٩٧٩. إنني مقيم مؤقت وقد أمضيت ستة أشهر في مركز الاستيعاب في بئر السبع. إنني مهاجر أمريكي خاب أمله، واحد من كثيرين من المهاجرين الأمريكيين يجدون أن نظام الاستيعاب ليس غير مرض وحسب بل هو مضيعة لوقت وأموال إسرائيل معاً.

أُعجبت جداً باهتمامك بكل الدقائق التفصيلية في إسرائيل. ولدى قراءتي لمقال بقلم جودي سيجل (ليست تلك التي تقيم في المعتقل) في ١٤ آذار ١٩٧٩ في صحيفة الجيروز اليم بوست شعرت بأنك ليبرالي ومخلص في اهتمامك باليهودية العالمية.

إن السلبية في مركز الاستيعاب في بئر السبع، والطريقة في التعامل مع العزاب والشباب، هي السبب في جعل المهاجرين الجدد يعودون إلى بلد منشئهم. لقد شاهدت اثنين من الأزواج الشباب واثنين من العزاب يغادرون. وأعرف الكثير من العائلات غير السعيدة على الاطلاق والتي تفكر بالعودة إلى أوطانها.

بوسعي أن أكون المؤثر الحاسم على حوالي خمسين إلى مئة طبيب وخريج، من كليتين التحقت بهما في الولايات المتحدة، في قرار هجرتهم لإسرائيل. ولكن، وبكل صدق، كيف يمكنني أن أطلب منهم أن يأتوا ويتحملوا الاجحاف الذي احتملته؟ أنا لا أقول إن جميع

مراكز الاستيعاب تشكل جوانب سلبية في نظام الهجرة، ولكن يمكنني أن أتكلم بشكل مباشر عن مركز بئر السبع حيث أقمت فيه الأشهر الستة الماضية. أفضل ألا أدخل في التفصيل، ولكني على استعداد لأن أعرض عليكم شخصياً ملخصاً مفصلاً للمشاكل، ومقترحاتي لتخفيف هذه المشاكل. ألا تسهم خبرة مهاجر جديد في معرفة أفضل للشروط؟ لقد كنت محظوظاً حين التقيت شابة يهودية إسرائيلية لطيفة من السابرا ساعدت في استيعابي، خاصة في مسألة تعلمي للغة العبرية حيث لم يفلح المركز.

إنني طبيب اختصاصي في معالجة العمود الفقري يدوياً من الولايات المتحدة الأمريكية، عمري سبعة وعشرون عاماً ونصف ولم أعط حقوقي الفردية المنصوص عليها في كتاب تيودات أولية (كتيب الهوية، يخول المهاجرين الجدد الحصول على بعض الامتيازات) فقد أُجبرت على مشاركة والديّ شقة صغيرة. إن تجربة الاستيعاب بحد ذاتها شاقة حتى بدون حرماني من الخصوصية التي هي من حقي ــ ليس أنا فقط وإنما والديّ أيضاً.

كما قلت، فهناك خمسون إلى مئة طبيب يهودي وخريج قادمون (وقد يتزايد الرقم، بحسب النتائج هنا) والكل ينظرون إليّ عبر المحيط، ويعرفون تصميمي واصراري، وسيؤثر نجاحي على قرارهم في أن يتبعوا خطاي في الهجرة إلى إسرائيل.

ولمعرفتي بشعورك نحو (حق العودة) لكل اليهود (لجميع اليهود حق الهجرة لإسرائيل كمواطنين وبكامل الحقوق) فسيكون من المفيد أن نتحدث، نراجع، ونضع خطة أفضل. لقد مررت على مدى الأشهر الستة الماضية مع والدي (هو أيضاً طبيب اختصاصي بتقويم العمود الفقري) بجميع مراحل السلم البيروقراطي للوكالة اليهودية ووزارة الاستيعاب ولذا فنحن ندرك كيف تسير الأمور هنا، وأن خرقنا للروتين كان ومازال الأكثر أهمية. إن وقتنا لك. حدد الموعد فقط.

مع احترامـــــــي

الدكتور سكوت. ر. روستون

لم أرغب في أن أعدد جميع الجرائم التي ارتكبها اليعازر ليفنسون ورجال الشرطة في رسالتي، خشية أن أخرج بالجواب التقليدي «هذا ليس ممكناً، مثل هذه الأشياء لا تحدث

في إسرائيل». لكن رسالة والدي التالية إلى الجريدة كشفت الكثير من الأحداث التي تسربت عن المعتقل.

ميخمـــــوريت، إسرائيـــــل
٢٧ آذار، ١٩٧٩

السيد ادوين فرانكل، رئيس التحرير
الجيروزاليم بوست
صندوق البريد ٨١
أورشليم، إسرائيل

عزيزي السيد فرانكل:

القصة المرفقة حقيقية، حدثت في مركز الاستيعاب في بئر السبع. وقد سجلت جودي سيجل (من العاملين في الصحيفة) كل شيء بالتفصيل خلال محادثتي معها في ٢٥ آذار ١٩٧٩. إن الأشخاص المذكورين في القائمة التالية عانوا من هذه المشاكل وهم مستعدون للاجابة على أسئلتكم:

المهاجرون الجدد القاطنون في مركز الاستيعاب، بئر السبع من الولايات المتحدة: السيد سام ميلتز، الآنسة باتريشيا شيغر، السيد دافيد تشارناو، السيد ليونارد باس، الدكتور كرين، الآنسة شيرلي ميلر، الآنسة جويس أوبرين، السيد رون شتنيبرغ.

من إنكلترا: السيدة لين شينبرغ، السيد والسيدة بيتر لامبرت.

من جنوب افريقيا: السيدة فيكي جوزمان، الدكتور م. سزابو.

من فرنسا: السيدة تشانا أفريكان.

من استراليا: السيدة فيكي فاينبرغ.

من الأرجنتين: السيد سيزر كاروس.

من روسيا: الآنسة فيكتوريا بوبيكر، أمها وخالتها (فقط من الروس الذين لا يخافون من الشهادة ضد اليعازر ليفنسون، مدير مركز الاستيعاب).

من يوغوسلافيا: الدكتور رينيه والترز.

نحن وصلنا إلى إسرائيل في ١٠ أيلول ١٩٧٨.

ما هو ثمن الهجرة لإسرائيل ـ تعذيب الاستيعاب أو تعذيب المؤسسات المنظم لما يحمي القائد المصاب بجنون العظمة، المنفصم الشخصية (اليعازر ليفنسون) في منصبه؟.

لم لا يصحح تخوف الروس، وألم الأرملة الفرنسية وعائلتها وغيرهم؟ لم أرسلت (الوكالة اليهودية) تونا شيموني إلى مركز الاستيعاب في كانون الأول لتهدئة الاضطراب؟.

هل هذا مركز استيعاب أم معتقل؟.

لم يتم التعتيم على الحقائق التالية؟

موت الموسيقي الروسي في آب ١٩٧٨ بعد زيادة اضطهاد اليعازر ليفنسون. إيداع اليعازر ليفنسون لفتاة أمريكية مصحة عقلية في أيلول ١٩٧٨.

كسر ورك سيدة روسية مسنة بعد أن وقعت في الوحل، بسبب إهمال اليعازر ليفنسون في شباط ١٩٧٩.

موت سيدة أرجنتينية بسبب زيادة جرعة دوائية في آذار ١٩٧٩ وادعاء اليعازر ليفنسون بأنها مصابة بالسرطان.

ما من أحد يهتم؟ تذكروا غيتو وارسو!.

بريدنا يحجز ـ لا حرية كلام!.

الموظفات اليهوديات الإسرائيليات منعن من الاختلاط بالمهاجرين الأمريكيين. تعرضنا للابتزاز من اليعازر ليفنسون بشأن حقوقنا وشيكاتنا.

لم تتخذ أية إجراءات بعد تحقيقات دافيد أرياف (كبير المحققين في الشكاوى ضد مؤسسات الدولة) في التهم.

استمرار اليعازر ليفنسون في مضايقة وتعذيب النزلاء. قلب اليعازر ليفنسون حقيقة الحادثة بينه وبين الطبيب الأمريكي بأن قام بجرح ذراعيه ودعا الشرطة في اتهامات كاذبة.

هل يُسمح لرجال الشرطة الإسرائيليين بتوقيف ومهاجمة بريء بالقوة (٢١ آذار، ١٩٧٩)؟

إذا لم تكن هناك مذكرة توقيف فلماذا أُخذ طبيب عمره ستون عاماً من مركز الاستيعاب في بئر السبع؟ وإن كان هناك مذكرة فلماذا لم تبرز أبداً، وسُحبت بعد ساعات؟.

لماذا تطلب الشرطة الإسرائيلية منك أن توقع وثائق مكتوبة بالعبرية إن كنت لا تفهمها وترهبك كي توقعها؟.

لمَ هدد اليعازر ليفنسون حارس أمن المركز بفقد عمله إذا شهد لصالح المهاجرين؟ ما هو نوع الخدمات التي يقدمها اليعازر ليفنسون مقابل الصمت؟ كيف يمكن لاسرائيل أن تتحدث عن السلام بينما تسمح بمذبحة لأبنائها؟

مع الاحتــــــــرام

الدكتور ساي س. ر. روستون

نسخة إلى: السيد دافيد أرياف

الآنسة جودي سيجل

السيدة حايم رافيف

كانت قرية ميخموريت منتجعاً صيفياً صغيراً تستأجر فيه الأسر غرفاً وشققاً صغيرة من السكان المحليين. كان تيد وبيرل ليبرمان أصحاب البيت الذي نسكن فيه. تيد، رجل كريم مضياف يعاني من داء باركينسون وهو مرض يسبب الانحلال والتلف يصيب المسنين برجفة منتظمة وتصلب عضلي. كان تيد مغرماً بعائلتنا وكنا مغرمين به، نتعاطف معه بشكل خاص بسبب زوجته، كانت بيرال امرأة متبلدة الحس، عالية الصوت، تتدخل دائماً في شؤون الآخرين، قاسية جداً على تيد، الأمر الذي جعل كل من يعرف تيد ينفر منها.

وكان هناك أوري وبيلا أروني يعيشان أيضاً في ممتلكات تيد وبيرال، ويبعد منزلهما نحو عشرين قدماً عن منزلنا مما كان يسبب مشاكل أحياناً عندما يتعلق الأمر بالخصوصية

الشخصية. كانت بيلا فنانة تعمل كنحاتة ويعمل أوري في أمن الدولة مما خوله الحصول على أحد الأشياء النادرة في إسرائيل، الهاتف. فعادة ينتظر المرء بين خمس إلى عشر سنوات ليحصل على هاتف ولكن أوري اقتنى هاتفاً في منزله الصيفي خلال شهر من شغله للمكان. سمحت لنا بيلا أول ما انتقلنا باستعمال هاتفها حيث أن الدولة تدفع فاتورة الهاتف. وكان بإمكان أربيلا أن تتصل بكل من ترغب الاتصال به عندما كانت تأتي لزيارتي. وغدت بيلا وأربيلا صديقتين حميمتين، فكانت بيلا تسمح لها بالدخول إلى بيتها حتى في حال عدم وجود أحد. وبالتأكيد استغلت أربيلا ميزة الهاتف المجاني، وكانت تقضي ساعات على الهاتف إذا لم يكن أوري وبيلا هناك.

غالباً ما كان أوري يتأخر في عمله، كنا نبقى أنا وأربيلا بصحبة بيلا حيث لم تكن ترغب بالبقاء وحيدة، وكانت بيلا تدعونا في بيتها في حال قدوم بعض الأصدقاء لنناقش الكثير من الأشياء التي تجري في البلد، كانت جريئة وصريحة مما يقود إلى مناقشة معلومات أعتقد أنها سرية، ولم يكن أوري يعلم بأنها تتحدث عن مثل هذه الأشياء، لأنه هو نفسه كان حريصاً جداً في الحديث عن عمله، وكان هناك موضوع واحد يثير انتباهي في حديث بيلا وأصدقائها. بعض أصدقاء أربيلا ممن كانوا في الجيش تحدثوا أيضاً عن نفس المعلومات المثيرة للفضول. كان الحديث عن معاهدة السلام، وعروض المساعدة المالية من الولايات المتحدة الأمريكية. يبدو أن الرئيس كارتر لم يكن يعلم أسباب إسرائيل الحقيقية وراء الموافقة على المعاهدة وتبين بأن إسرائيل لم تكن ترغب أبداً بالاحتفاظ بسيناء فمن الصعب الدفاع عنها ولا تستطيع بناء قواعد جديدة في النقب ولذا خدعوا كارتر في أن يقدم المساعدة الضرورية لبناء قاعدة جبهة متطورة حديثة في صحراء النقب. ورغبوا أيضاً في تركيب منظومة دفاع الإنذار المبكر الأمريكية في القاعدتين إلى جانب عدد أكبر من طائرات إف ــ ٤ وإف ــ ١٥. لسوء الحظ لم يكن الرئيس كارتر يدرك حقيقة أن الحكومة الإسرائيلية لا ترغب في السلام فعلاً وإنما تستعمله كذريعة لزيادة قواتها العسكرية، بينما تعطي الشعب الإسرائيلي الأمل الكاذب بالسلام، فقال بيغن إن كل شيء خاضع للمفاوضات، مما حدا بالرئيس كارتر وبالشعب الأمريكي للاعتقاد بأنه كان مخلصاً وصادقاً.

ورغم أني كنت يهودياً تقياً وأتعاطف مع إسرائيل، فقد كنت أعرف أنه لن يكون هناك سلام حقيقي بين العرب وإسرائيل حتى يرضى الفلسطينيون. لم يكن لدى بيغن نية في التفاوض مع الفلسطينيين والتفاوض على إزالة المستوطنات من الضفة الغربية. إن لم يكن هناك سلام حقيقي، ذلك يعني أن جميع محاولات الرئيس كارتر ووقته ذهبت سدى، وقته الذي كان يمكن استغلاله لتحسين ظروف الولايات المتحدة الأمريكية. كنت أتساءل ماذا سيظن الشعب الأمريكي بالسيد كارتر إذا ما فشل في الوصول بدول الشرق الأوسط إلى التفاوض من أجل معاهدة سلام متكاملة.

لقد أدهشني أن أطلعني أصدقاء أربيلا وبيلا على مثل هذا السر الكبير عن الدوافع الحقيقية وراء موافقة الحكومة على التفاوض مع مصر. هل تخيلوا أنني سأوافق على أن يُخدع بلدي ويُستغل رئيسه وأموال دافعي الضرائب فيه. لماذا لم يكن الرئيس كارتر على اطلاع أفضل؟ أم أنه كان مدركاً تماماً للموقف الإسرائيلي ويقوم بصفقات سرية دون معرفة البلد؟ ماذا كانت الحكومة الإسرائيلية البيروقراطية تخطط بحق الجحيم؟ لم أترك أربيلا أو أصدقاءها يعرفون أنني لست راضياً عن رؤية بلدي تُخدع لدفع مليارات من الدولارات. ربما سأجد طريقة لإعلان الحقيقة.

ذات يوم تلقيت رسالة من مكتب الرئيس نافون تدعوني لمقابلة أحد مساعديه لبحث المشاكل التي واجهتها عائلتيَ والمهاجرون الآخرون. فذهبنا في أيار أنا وأربيلا ووالديّ إلى القدس لمقابلة الآنسة تشانا بيليغ التي كانت مكلفة بمقابلتنا. حتى بوجود إسرائيلي يخبر عن المظالم التي ارتكبها اليعازر ليفنسون، كانت الآنسة بيليغ ما تزال تجيب «لا أستطيع أن أصدق ذلك! مثل هذه الأشياء لا تحدث في إسرائيل! هل أنت متأكد من أنك لا تبالغ قليلاً؟» أكدنا لها بأن جميع الحوادث التي تحدثنا عنها كانت حقيقية. واقترحنا ترتيب لقاء مع السيد نافون يستطيع فيه جميع المهاجرين في المعتقل ممن أساء اليعازر معاملتهم أن يرووا قصصهم المؤلمة، ألم يكن الرئيس نافون مهتماً بتشجيع هجرة يهود أكثر إلى إسرائيل؟ قالت الآنسة بيليغ أنه ليس للسيد نافون صلاحية للتحقيق في مثل هذه القضايا. ولكنها وعدت بأن يبدأ فحص شامل للمشكلة. تركنا بيت الرئيس ولدينا إحساس بأن المشكلة برمتها ستُكنس تحت بساط البيروقراطية.

لقد سأل الرئيس إسحاق نافون بنفسه العديد من الطلبة اليهود في بيت ميدراش، ولي تورا، وماحون غولد عن رأيهم في العقبات المعوقة للنظام، كما ألقى كلمة افتتاح العام في جموع الشباب المتدين من جميع الجنسيات والمجتمعين أمامه. وتحدث عن مشاكل جذب مهاجرين جدد وعن معاملتهم باحترام عندما يصلون. إضافة إلى ذلك، حث الطلبة على العمل من أجل الاقامة الدائمة فوراً بدلاً من تأجيل قرارهم إلى أجل غير مسمى.

هل كانت حكومة إسرائيل مهتمة فقط بالمهاجرين الشباب الذين يمكن إقناعهم بقبول قرارات البيروقراطيين حول كيف يجب أن يعيشوا؟ هم لا يرغبون بشباب يفكرون بأنفسهم، بل يرغبون بشباب لا يعرفون كيف يعاندون النظام؟ هل هم راغبون بالمهاجرين الشباب وأموال الكبار؟ هل هذه هي الاستراتيجية؟ خذ مالهم، خذ أولادهم ودع الكبار خارج إسرائيل؟ ولم كان على الشباب الأمريكيين بعد ثلاث سنوات من الاقامة المؤقتة، أن يلتحقوا بالجيش الإسرائيلي أو يجبروا على مغادرة البلد؟ لماذا لم يقولوا لمعظم الشباب الذين بقوا والتحقوا بالجيش أنهم سيخسرون الجنسية الأمريكية بعد أن يقسموا عهد الولاء لإسرائيل؟ أعلموهم فقط أنه يمكنهم بطلب احتجاج استعادة جنسيتهم الأمريكيـة والتي يصعب استرجاعها بعد أن تسقط. هل كانت الغاية أن يفقد الأمريكيون الشباب جنسيتهم بحيث يصبحون مواطنين إسرائيليين فقط؟ ومن ثم تستطيع الحكومة رفض منحهم تأشيرات عودة إلى الولايات المتحدة الأمريكية؟.

كان علينا ثانياً أن نقرر أين سنفتح أنا ووالدي عيادتنا. رغبنا في البدء بالعمل في تل أبيب إنها المكان الذي يعيش فيه القسم الأكبر من السكان. ولكن ذلك سيعني أن ننتقل بالباص كل يوم، فقررنا أن نبحث عن موقع في مدينة ناتانيا. كانت تبعد خمسة أميال جنوب ميخموريت وفيها أكبر نسبة من المقيمين المتحدثين باللغة الإنكليزية في البلد أيضاً، طبقة الناس كانت أعلى في ناتانيا مما سيجعل تثقيفهم في مجال تقويم العمود الفقري أكثر سهولة. كنت آمل في أن أجد تسهيلات كافية تسمح لي بالحصول على شقة أيضاً. إن فكرة الحصول على مكان خاص لي أعجبت أربيلا كثيراً وكانت قد ضاقت ذرعاً بعدم توفر القدر الكافي من الخصوصية عندما كانت تزورني.

بدأت أنا وأبي بجولاتنا إلى مختلف المكاتب العقارية في ناتانيا. وحالما كانوا يسمعون أبي يتكلم الإنكليزية ويكتشفون أننا أطباء، يعرضون علينا شققاً بأجر أقله ألف دولار في الشهر. حاولنا أن نشرح أن أموالنا محدودة جداً ولكنهم لم يستطيعوا التوقف عن التفكير بأن جميع الأمريكيين أغنياء. قدم لنا بنك باركليس حسابات لديه، وكل منا يستطيع سحب حتى ألف دولار حتى بعد أن أوضحنا لهم بأننا لم نكن نعمل. يبدو أن البنك لا يهتم بأننا لا نمتلك موجودات عينية لتسديد حساباتنا، طالما أننا أطباء وسنصبح زبائن ذوي قيمة. لم نناقش سخاءهم حيث كنا بحاجة للمال ربما تزدحم عياداتنا. ومنذ أن رغبنا بالاتصال بالمكتب العقاري الأكثر معقولية في المدينة، ذهبت أنا ووالدي إلى مكتب ناتانيا لجمعية الكنديين والأمريكيين في إسرائيل راجين أن يساعدونا أكثر مما فعلت تشانا شابيرو.

كان أحد الموظفين في جمعية الأمريكيين والكنديين في إسرائيل رجلاً يُدعى دافيد ميلر. وعندما سمع أننا متخصصون بمعالجة العمود الفقري أخبرنا بأن ابنه سيبدأ دراسته في هذا الاختصاص في أمريكا في الخريف، فتوقعنا أن يساعدنا، ولكن أملنا خاب مباشرة فقد اتصل ببعض الناس ليرى ما إذا كان لديهم شقق للايجار. وفي محاولة لشرح معنى أخصائي في تقويم العمود الفقري، وصفنا أولاً بالمعالجين الفيزيائيين. ولما لم يفهم الشخص الآخر ماذا يعني ذلك قال إننا حجامون. منذ سنين عديدة، ذهب حجام إلى طبيب عنده عيادة تقويم عمود فقري في تل أبيب. وبعد أن رأى ما كان يفعل الطبيب لمرضاه قرر الحجام أن بإمكانه أن يقوم بنفس العمل ويدعو نفسه طبيباً. حصل ذلك في وقت كانت فيه إسرائيل تزدحم بالأطباء المزيفين. أي إنسان حائز على أي نوع من الدبلومات، قانونية أم لا يمكنه أن يسمي نفسه طبيباً. حاول الحجام أن يقلد تقنيات تقويم العمود الفقري وانتهى بتدليك ظهور الناس وأخذ كؤوس هواء (كانت تستعمل كؤوس الهواء كما يُستعمل العلق والذي يقوم بالعملية يستعمل كؤوساً معتمة ساخنة تقوم بعملية مص للجلد عندما توضع على ظهر المريض وكان بإمكان أي إنسان من الحلاق إلى الخباز أن يستعمل كؤوس الهواء على أجساد الناس في أوائل القرن العشرين وقبل ذلك بأجيال). لكنه بدلاً من أن يستعمل حوالي عشرين كأساً صغيراً، كما كان يُفضل، كان يستعمل ستة كؤوس كبيرة على ظهر مريضه. فكان الناس يعرفون الشخص الذي ذهب إلى الحجام من الدوائر الحمراء الكبيرة على ظهره. ما عسى أن

يفكر ابن دافيد ميلر إذا ما سمع وصف والده للمهنة التي اختارها؟ قلت للسيد ميلر ما كنت أفكر فيه ولكني رفضت أن أغير تعليقاته. وتبين بأنه لم يكن بذي نفع لنا لا هو ولا منظمته. هل اتصلت بهم تشانا شابيرو وتسببت في أن تدير لنا المنظمة ظهرها؟ هل كان يفترض بجمعية الأمريكيين والكنديين في إسرائيل أن تساعد المهاجرين الجدد وتكون مستقيمة معهم، أم أنها كانت أداة بيد المنظمة اليهودية تتملق بها يهوداً أكثر من أجل الهجرة إلى إسرائيل وبذلك يستطيعون دفع يهود أكثر إلى العودة إلى أوطانهم والاحتفاظ بأموال أكثر من اليهودية العالمية تتكدس في جيوب اللصوص؟.

وقع تحت يدي مقال في مجلة جمعية الكنديين والأمريكيين المقيمين في إسرائيل عن امرأة تدافع عن قرارها باختيار العيش في إسرائيل أمام أصدقاء من أمريكا. تحدثت جوديت شابيرو عن الحلم القديم لدى ملايين اليهود، حلم العيش في أرض الميعاد وإقامة حياة هناك. وعندما طلب إليها أصدقاؤها في لونغ أيلاند أن تتفحص حقائق الحياة هنا، وجدت نفسها مشدوهة قليلاً لأفكارها. فليس في أمريكا أي تعامل مع الدولة، في شراء بيت أو في شراء سيارة، في الإقامة في وسط راق. أيقنت السيدة شابيرو بأن تجربتها في إقامة حياة كانت تجربة تتفرد بها إسرائيل.

ولدى النصح لنفس الأصدقاء بالقدوم والعيش في إسرائيل أو عدمه، قدمت السيدة شابيرو وزوجها أجوبة مختلفة فقد أثارت الجوانب المثالية، وأرادت أن تتجنب سرد الحقائق المؤلمة والقاسية بشكل مباشر، بدأت بتحقيق حلم جلب العائلة إلى إسرائيل. وتوقف زوجها عند هذه النقطة وبدأ يصف صعوبة المحافظة على نفس المستوى الذي يعيشه صديقه في الولايات المتحدة الأمريكية مثل طراز المنزل، والانسجام في العمل، والعمل الأصعب المطلوب من أجل قطف أي نتائج. دُهش الأصدقاء لدرجة أنهم انصرفوا متشائمين.

في اليوم التالي كان لدى السيد شابيرو وقت لإعادة النظر في فضائل أن يكون المرء صادقاً، وشعر أنه كان عليه أن يلطف جوابه وأن يمدح بلده ليقنع أصدقاءه بالهجرة وكان على جوديت شابيرو وزوجها أن يجدا ذلك المساء جواباً للسؤال: ما هي الأجوبة التي يجب أن تُعطى للمهاجرين على المدى المنظور؟.

لماذا كان على السيد شابيرو أن يحس بالذنب لقول الحقيقة؟ ألم يكن من الأفضل أن يكذب، ويدع أصدقاءه، يصحون من الأوهام بعد أن يهاجروا؟ هل الغاية أن نروي أي قصة، فقط لندع الناس تهاجر إلى إسرائيل؟ هل هذه هي الطريقة التي تكيف بها إسرائيل الأمريكيين الشباب واليهود الآخرين في التفكير؟.

الفصل السادس

نجاح لم يعش طويلاً

كان من الصعب الحصول على المال لفتح عيادة، فقد رفضت الوكالة اليهودية ووزارة الاستيعاب مساعدتنا مالياً ولذا كان علينا أن نسعى بطلب مساعدة من السوق المالية الخاصة.

كان بنك باركليس يلح علينا لتسديد حساباتنا التي كان قد اقترح أن يفتحها. أشرنا إليهم بأنهم هم الذين عرضوا علينا الدين مع علمهم بأننا لم نكن نعمل في ذلك الوقت. وكان الاتفاق على أساس أن يترك لنا الوقت حتى نفتح عيادتنا وعندما تتوفر السيولة نسدد الدين. كان بنيتنا أن نسدد عندما نستطيع ذلك.

تابعنا البحث عن شقق ذات ايجار معقول في المدينة. ولكن ناتانيا كانت بلدة سياحية أساساً، مما جعل إيجاد شقة بايجار معقول أمراً صعباً. وبعد أن اتصلنا بكثير من الوسطاء العقاريين وأعلنا العديد من الاعلانات الخاصة وجدت مع أبي ما اعتقدنا أنه أفضل ما يمكن شراؤه في المدينة. كان مايكل بارتوف مدرساً في مدرسة محلية ويوجد أماكن إقامة متوفرة لعائلته في مكان عمله ولذا أراد أن يؤجر شقته في المدينة. هي شقة كبيرة تحتوي على

ثلاث غرف نوم وتقع في القسم الراقي ولا تبعد كثيراً عن مركز المدينة. المشكلة الوحيدة كانت المال. وقد تبين لنا أن معظم الإسرائيليين عندما يؤجرون يطالبون بأجرة السنة الأولى كاملة سلفاً، وهذا خلق لنا مشكلة العثور على من يقرضنا ما يغطي الايجار.

حاولت أن أتصل أنا وأبي بالناس المعروفين بفتح خزائنهم لمساعدة المحتاجين أمثال صموئيل فلاتو شارون وأبراهام فرانكل لكنهم ضربوا بأحلامنا عرض الحائط، بحجة أن كان عليهم أن يناضلوا أول ما جاؤوا إلى إسرائيل. ذات يوم التقينا برجل لطيف قصير من جنوب افريقيا، وكأن الله قد أرسله لنا، وكان هذا مهتماً بأن يوظف أمواله في عيادتنا. وقد تذكر كم عانى من المصاعب أول ما هاجر إلى إسرائيل وكان يعتقد أن من المعيب أن يلاقي أطباء مثلنا المعاملة البيروقراطية تلك! وخلال يومين كان لدينا شيك بايجار سنة كاملة وثمن طاولتين للمعالجة في العيادة.

كان مالك شقتنا مايكل بارتوف سريعاً جداً في أخذ الايجار بطيئاً جداً في الوفاء بالعهود التي قطعها لنا. ثمة هاتف في الشقة ولكنه لا يعمل لأن بارتوف لم يسدد الفواتير وكانت مستحقة عن أربعة أشهر. فاتورة الكهرباء كان يتوجب دفعها منذ أمد. ومحاميه الذي أعد عقد الايجار كان دائماً غائباً عن مكتبه. وقد تعلمنا بالتجربة الصعبة كم يصر أصحاب البيوت على الحصول على المال سلفاً ليمكنهم أن يضيقوا على المستأجر متى أرادوا، فحين تصبح النقود في أيديهم لا يبقى سوى القليل الذي يمكن عمله ضدهم. ومع ذلك استمررنا رغم المشاكل وكنا جاهزين لفتح العيادة. وعندما حان الموعد أرسلنا بمقالة إلى جريدة الجيروزاليم بوست، ذكرنا فيها أننا مهاجرون أمريكيون سوف نمارس تقويم العمود الفقري. كما تضمن المقال وصفاً لحياتنا وأوضح أن هذه المهنة غير معترف بها في إسرائيل رسمياً بعد فإنها معروفة تماماً في الولايات المتحدة الأمريكية ولن تتدخل الوزارة بها. انطلقت العيادة بضجة كبيرة، كان عدد سكان ناتانيا حوالي مئة ألف شخص والجميع يتحدث عن عيادتنا. كان أبي يأتي يومياً من ميخموريت، يوصله شخص من الجوار. بينما أخذت أنا الغرفة الواسعة الخلفية من العيادة/المنزل. لقد أحبت أريلا المكان وكانت تمضي معي كل العطل المدرسية وعطل نهايات الأسبوع. كنا نبعد مسافة خمس دقائق فقط إذا ما أردنا أن

نتمشى إلى الشاطئ حيث اعتادت أريلا أن تسترخي بينما كنت أعمل. والذي كان يزعج أريلا هو افتقار الشقة للمفروشات. كنت قد خططت أن أبيع جزءاً من جهاز التصوير لأشتري لأريلا هدية التخرج لأنها ستنهي دراستها الجامعية قريباً، ثم قررت أن أبيع جهاز التصوير بأكمله.

واكتشفت لصوصية بعض التجار الإسرائيليين عندما ذهبت لأبيع جهاز التصوير. كان تل أبيب المكان الوحيد الذي يمكن أن تُباع فيه الكاميرات بسعر معقول لوجود بعض محلات آلات التصوير فيها. عندما كنت في بئر السبع، سددت قسماً من حسابات المصرف بعد أن بعت واحدة من آلات التصوير عندي. ومن المفترض أن أصحاب محلات فوتو سبورت يهود متدينون، وعندما اتفقنا على الثمن واعتقدت بأنهم سيحترمون كلمتهم لكنهم حين الدفع نزلوا بالسعر مئة وخمسة وعشرين دولاراً، فقررت ألا أبيعهم وخرجت وبعد شهر تقريباً أخبرني صاحب المحل بأن لديه زبوناً لآلتي واقترح خمسة وعشرين دولاراً زيادة. كان ذلك أقل من الثمن الأصلي بمئة دولار ولكني كنت بحاجة للنقود وعلي أن أوافق. حين دخلت المحل سمعت صاحبه يتحدث إلى أحد الزبائن: «اتفقنا على السعر إذن: خمسمائة وخمسون دولاراً ثمن آلة التصوير» ولما رآني أومأ إلى الرجل أن يسكت بسرعة. إذ كان الرجل هو الذي سيشتري آلتي فهذا يعني أن المحل سيربح مائتي دولار. ذلك الوغد!!. أخذني إلى الغرفة الخلفية وأعطاني ثلاثمائة وخمسين: «لا يمكنك أن تغير السعر الآن» «لم لا؟ لقد غيرت أنت من قبل إضافة إلى أن ذلك الشخص سيدفع خمسمائة وخمسين دولاراً. أريد حقي في الربح». خذها أو اتركها؟ عرف أني وضعته في موقف حرج، فدفع الأربعمائة وخمسين دولاراً السعر الذي اتفقنا عليه أول مرة.

مررت في تل أبيب بتجربة المساومة تلك في محل آخر لبيع آلات التصوير «ميترفورت». كان صاحبه السيد فيش يحادثني وكأنه أبي. كانوا يستعملون أية طريقة ليقللوا الثمن. أعطاني سعراً أولياً وعندما وافقت عليه أجلني لعدة أيام نزل بالسعر بعدها ثانية. لو أني لم أعد أريلا ببعض المفروشات للشقة لما بعت ذلك اللص أجهزة تصويري، فالابتسامة التي ارتسمت على وجهها كانت تستحق كل دولار خسرته في ذلك. اشتريت لها ساعة سايكو بمائتين وخمسين

دولاراً وأنفقت الباقي على المفروشات والتجهيزات. وبرغم أن عدد المرضى قد تزايد لدينا، كانت الفواتير دائماً تتعدى ما بين أيدينا من سيولة. كنت قلقاً على مستقبل العيادة، قلقاً منعني من إعطاء وعد قاطع لأريبلا. وقد خاب ظني أيضاً لأنه ما من أحد من أصدقاء أريبلا أو أفراد عائلتها جاء إلى العيادة أو أرسل لي أو لوالدي أي مريض. وقد لاحظت أريبلا قلقي وأرادت أن تعرف سببه. فأوضحت لها بأني لا أرغب في الزواج إن لم أكن واثقاً من عودتها معي إلى الولايات المتحدة الأمريكية إذا ما فشلت في العمل في العيادة، لا قدر الله. فأفصحت بأنها ستذهب إلى أي مكان أذهب إليه. قدمت لها نفس الخاتم الذي قدمه والدي لوالدتي عندما طلب إليها الزواج، وكانت عائلتنا في غاية السعادة لإعلان خطوبتنا وقررنا أن يكون الزواج في آب.

كانت الأمور تسير سيراً حسناً عند والدي في الشهرين الأولين في ميخموريت، ولكن في نهاية أيار تلقى مذكرة للاتصال بمركز شرطة ناتانيا. كان القائد المجنون مازال يحاول أن يلصق التهم بوالدي. استجوب والدي وأُخذت بصماته وأوقف حتى دفعنا الكفالة. اتصلنا بتوفا شيموني التي طلبت إلى الشرطة إخلاء سبيله، ووعدت والديَّ بأنه لن تكون هناك أية مشاكل إذا ما قطعا لها وعداً بأنهما لن يتصلا بالصحافة أو بمكتب المحقق العام. وقد فعلا ذلك لقاء الخدمة التي أدتها لهما. في منتصف ليل ٧ حزيران ١٩٧٩ حضر اثنان بلباس مدني وأخبرا والدي بأنهما من الشرطة وعليه مرافقتهما. ماذا بحق الشيطان هناك؟ هل نحن في ألمانيا النازية حيث كان باستطاعة الجستابو إلقاء القبض على الناس في ظلام الليل؟ كان ذلك مثل القصص التي سمعناها عن أناس اقتيدوا من قبل ما يُسمى بالشرطة ولم يُسمع عنهم شيء بعدها. وبعد تجربة والدي في بئر السبع لم يرغب في التعاون وأخبرهم بأنه يرفض مرافقتهم وأنه سيتصل بمركز شرطة ناتانيا في الصباح.

وفي الصباح التالي أخبرته شرطة ناتانيا أن ليس هناك ضده أية مذكرة توقيف. وبعد سؤال الضابط المناوب لليلة السابقة وضحت الحقيقة، فقد طلب القائد المجنون من زملائه في مركز شرطة بئر السبع الاتصال بناتانيا وطلب القبض على والدي، وكانت المكالمة الهاتفية من بئر السبع في الساعة الحادية عشرة وخمس وأربعين دقيقة ليلاً وأرسل الشرطيان. وبما أنهما

لا يتكلمان الإنكليزية ولا يتكلم والدي العبرية، بالمقابل، فقد قررا عدم إحضاره بدون مذكرة توقيف. لم تتابع شرطة ناتانيا الموضوع ولكن والدي تابعه فأرسل رسائل مسجلة إلى عضو الكنيست (وزير الداخلية والشرطة) يوسف بورغ وإلى السيد ايدوين فرانكل (رئيس تحرير جريدة الجيروزاليم بوست) وإلى السيد دافيد أرياف (كبير المحققين في القضايا ضد الدولة). لا جواب على أي من هذه الرسائل. لماذا لا يتنازل أعضاء الحكومة في إسرائيل بالرد على الرسائل أو المكالمات الهاتفية؟ هل يفكرون دائما بطريقة: هذا غير ممكن! مثل هذه الأشياء لا تحدث في إسرائيل! هل يعتقدون بأنهم إذا ما كرروا هذا القول وأعادوه تغير الواقع؟ كيف يمكنهم أخذ تعويضات مالية من ألمانيا لقاء كارثة، ثم يسمحون هم أنفسهم لكارثة أن تستمر في إسرائيل؟ ألم يحاول أحد أن يفتح أعينهم؟.

كان جيراني يتسببون بالمشاكل لي. ففي شقة ثانية، بنفس الطابق الذي أشغله كان يسكن يوجين واليزابيت سفارل الأصل من هنغاريا ويعيشان في إسرائيل منذ سنين عديدة، تزوجت ابنتهما من شاب إسرائيلي وتعيش معه في دنفر بولاية كولورادو. كان يوجين واليزابيت يتحدثان عن ابنتهما وزوجها وكأنهما خونة لإسرائيل لأنهما اختارا أن يعيشا في أميركا.

كان يوجين يقول ليس لديه ابنة ويرفض أن يتحدث عنها عندما تذكرها اليزابيت. لقد أخطأت عندما تحدثت إليهما إذ إن ذلك جعلهما يتدخلان بعلاقتي بأريلا. وبدؤوا يحدثوني عن اليهود الأشكيناز وعن اليهود السيفارديم. فالأشكيناز هم القادمون من أوروبا وروسيا ويشار إليهم أحياناً بـ (اليهود البيض) بينما السيفارديم هم القادمون من الدول الافريقية، وجنوب آسيا، والشرق الأوسط، ويُشار إليهم أحياناً بـ (اليهود السود)، وعلى الأشكيناز عدم الاختلاط أبداً بالسيفارديم. لم يدرسني أحد هذا التفريق الطبقي خلال جميع سني دراستي في مدرسة دينية، وأعتقد أن هذا التفريق سخيف وحاول يوجين وأليزابيت أن يقنعاني بأن علي كيهودي أبيض ألا أتزوج أريلا اليهودية السوداء.

لم أر لماذا كانا متشددين بمسألة الفرق بين نماذج اليهود. مع مثل هذه الاستنتاجات لا عجب أن تكون الدولة في هذه الحالة البائسة.

هل يعتقد الأشكناز بأنهم أفضل من السيفارديم؟ يبدو الأمر شبيهاً بالطريقة التي تعود

بها الأمريكيون البيض النظر إلى الأمريكيين السود والتي كانت غاية في السخف. لقد حرم السود من جميع الامتيازات ولذا افتقدوا ذكاء البيض، وعندما أعطوا نفس حقوق البيض أظهروا أنهم ليسوا أدنى منهم على الاطلاق. هل يرغب اليهود الأشكناز بالسيطرة على السيفارديم؟ وعندما ينظر العالم إلى إسرائيل كمركز ديني لليهودية هل تراهم يتحققون من أن اليهود السيفارديم هم اليهود الأتقياء فقط والذين يضعون الدين في موقع المركز من حياتهم بينما الأشكناز في إسرائيل هم الأكثر تقى والأقل تديناً من الإسرائيليين.

عندما اكتشفت أن السوق السوداء في إسرائيل تقع في المنطقة المتدينة من القدس، حيث لا يسمح لرجال الشرطة بالدخول لأنه لا يوجد قضاء هناك، أخذت صورة أوضح عن حقيقة إسرائيل، إنها ليست إسرائيل دافيد بن غوريون. كانت بلداً لشعب لا يعلم، يرغب بالسلام وتقوده مجموعة بيروقراطية من الأشكناز الذين لا يتورعون عن ظلم إخوتهم اليهود لأنهم يعتقدون أنفسهم أفضل فقط. أليست هذه ذاتها فلسفة هتلر في نفوذ العرق الآري؟ لقد كتبت صحيفة الجيروزاليم بوست أن ثمة مليوناً من الإسرائيليين الذين لم يصلوا إلى مستوى الصف السادس في فهمهم للّغة ولا يستطيعون فهم الكثير مما تقوله وسائل الإعلام إلى جانب ثلاثمائة ألف أمـي. لماذا ٣٣٪ من الإسرائيليين أميون تماماً أو نصف أميين؟ ولماذا معظمهم من النساء؟ هل ذلك لأن حكومة إسرائيل تعتبر النساء مواطنين من الدرجة الثانية؟.

لم أستطع أن أفهم تحامل عائلة سفارل ضد أربيلا واليهود السود الآخرين ولذا حاولت تجنبهم بقدر الامكان، وأربيلا لم تحب يوجين واليزابيت أيضاً وقالت إنهما حاولا التصرف وكأنهما أفضل منها. «كيف يمكنهم أن يفكروا بأنهم أفضل مني». كان يوجين من أكثر الناس الذين رأيتهم بدانة في إسرائيل، بشكل كانت أمعاؤه تندفع من خلال العضلات التي تغطي بطنه وكان ينوي إجراء عملية لتصحيح هذا الشكل. أخبرته أن مشكلته بسبب شراهته. كانت اليزابيت بدينة أيضاً مع الشراهة المتناسبة مع ذلك. طلبت من أربيلا ألا تهتم بأناس لا يحترمون أجسادهم. لقد أدهشني أن أليزابيت كانت ضد اليهود الآخرين لمجرد أنها نجت من معسكرات الاعتقال، وكنت أعتقد بأنها لا تتحمل أن ترى يهودياً يُظلم ثانية. وكنت أحاول كلما التقيت بيوجين واليزابيت أن أكون ودياً إذ لم أرغب بخلق نفور بيننا.

كانت اليزابيت تحضر لي الطعام عندما لم تكن أريبلا موجودة لأنها تعرف أن أريبلا قد ترمي لها الطعام.

في إحدى أمسيات الاسبوع الأوّل من حزيران طلبت مني اليزابيت التحدث مع يوجين عن العملية التي سيجريها فهو خائف مما قد يحدث له، فدخلت شقة عائلة سفارل متوقعاً أن أجد يوجين وحده. ولكنه مباشرة قدمني إلى ابنة أخته أبيلا. لا بد وأن البدانة سمة مميزة في العائلة لأنها كانت ببدانة خالها تقريباً وبدأت أبيلا تسألني عن نفسي. وحاولت أن أكون لبقاً فأجبت على جميع أسئلتها. وكلما وقفت مستعداً للذهاب كانت اليزابيت تدفع لي بالطعام. لا بد وأن أريبلا ستصاب بنوبة لو علمت أنني كنت هناك. أخيراً اعتذرت وغادرت المكان بسرعة.

كان عدد المرضى الذين نستقبلهم أكبر مما نستطيع تحمله، فقد كتبت الكثير من الصحف مقالات تمتدح بها عيادتنا وكنا نأمل بأن نطلب بعض التجهيزات والأثاث الأفضل للعيادة بتشغيل سكرتيرة. وبدأ يوجين يحدث أبي عن أحد الناس الذي يمكنه أن يقرضنا المال المطلوب لنجعل العيادة تبدو (عيادة حقيقية). كنت مرتاباً في أغراضه، خاصة وأنه لم يوافق على خطيبتي. في منتصف حزيران كنت أحضر طعام عشائي عندما قُرع جرس بابي. كان يوجين واليزابيت يقفان بالباب بابتسامة لم أرها إلا على وجه جيمي كارتر عندما أُنتخب رئيساً.

ــ أنت سترى ذلك الشخص الذي أخبرت والدك عنه ذاك الذي قد يقرضك بعض المال من أجل تحسين عيادتك.

ــ هل لك أن تأتي معنا ليراك وليرى أين سيوظف ماله؟.

ــ إنني أحضر عشائي.

ــ دعك من ذلك نحن مدعوون على العشاء وسيكون الطعام كافياً بالتأكيد.

لم أكن سعيداً بهذه الدعوة وبتناول طعامي مع عائلة سفارل. ولكن أن أحصل على قرض لتحسين العيادة أمر أساسي، وذهبت معهم.

سارت بنا السيارة إلى تل أبيب. وما إن وصلنا حتى كنت أتضور جوعاً. عندما

اكتشفت الرجل الذي نجتمع به أصبحت حذراً تماماً. إن من سنبحث معه أمر القرض كان صهر يوجين والد أبيلا. وعندما قدمتني اليزابيت إلى عائلة (كن) بدأ السيد والسيدة (كن) يتملقاني ويتوددان إلي بشكل مبالغ فيه، ثم دخلت أبيلا الغرفة وهي تبتسم مثل قطة ابتلعت كناري لتوها.

شيء ما كان فاسداً في دولة إسرائيل إضافة إلى الفوضى! قدم العشاء وأوضحت للسيد (كن) المعاناة والمآسي التي مرت بها عائلتي. قال إنه يحتاج لبضعة أيام لتقدير كم سيقرضني، وأنه مهتم جداً في أن يعرفني بشكل أفضل. لم تعجبني أبداً أبيلا ووالدتها في النظر إلي مع تكشيرة كبيرة. وعندما استأذنتهم قائلاً: «طابت ليلتكم» أجابني السيد (كن) «طابت ليلتك يا بني» واعترتني رعشة سرت في جسدي، عندما فكرت أن تكون ابنته البدينة زوجة لي.

بعد يومين كنا نستعد أنا ووالدي لأن نترك العمل لفرصة الغداء، دعانا يوجين للحديث في شقته، وبدأ يخبر والدي كم أنا ابن رائع. وكيف أحبتني عائلة (كن) وكيف أن أبيلا تكاد تجن بي. الاتجاه الذي كان يسير به الحديث جعلني غير مرتاح. «أبيلا فتاة رائعة! وطاهية ماهرة، وذكية سيعطيها أبوها كل ما تريده لو أنك تنسى موضوع تلك الفتاة من السفارديم وتتزوج ابنة أختي تكون قد قمت بحركة ذكية إن والدها غني جداً. لديه عمله الخاص بالمفروشات. الكثير من الدولارات في السوق السوداء والماركات الألمانية والذهب المخبأ في شقته. يمكنه أن يشتري لك شقة جميلة وبعض المفروشات والتجهيزات وسيارة جديدة. ويعطيك المال من أجل عيادة جميلة. يمكنك أن تحصل على كل ما تريد إذا ما تزوجت أبيلا!». «إنني أحب أربيلا وأنوي الزواج بها!» استدار إلى أبي المزعوج مثلي «أنت والده، فحاول أن تشرح له. أربيلا لا تمتلك مالاً. وهي ليست أشكينازية ستكون خطيئة كبيرة يرتكبها سكوت إذا ما أضاع هذه الفرصة. أخبره أنه من الأفضل له أن يتزوج من أجل المال وليس من أجل الحب. وسيتعلم أن يحب أبيلا». «إنه قرار سكوت وأعتقد أنه سوف يحسن الاختيار. ومن المهم أن يتزوج الإنسان من أجل الحب لا من أجل المال». «كلاكما أحمق كي تدعا تلك الفرصة تفلت من أيديكم. كم ستأخذان من أجل العيادة»؟ لم أعد أستطيع

أن أستمع إلى هذا المهرج أكثر، «أنا لست للبيع! سنتزوج أنا وأريبلا. وكل ما تقوله أو تفعله لن يثنيني عن ذلك. وإن كنت تعتقد أنني سأتزوج ابنة أختك البدينة المملة فأنت مخطئ. تقول إنك يهودي، مرت زوجتك بتجربة معسكر الاعتقال، ومع ذلك تتحيز ضد يهودي آخر. لن أتورط مع أناس يتعاملون بالسوق السوداء خاصة إذا ما كانوا يمتون لك بصلة». ونهضت وأبي من مقاعدنا متجهين خارج شقة عائلة سفارل. لم أكن أرغب في محادثة أي من هؤلاء المتعصبين ثانية.

كان كل شيء يسير على ما يرام، وكنت وأريبلا نستعد للزفاف. تابعت الصحف المحلية نشر الاعلانات عن عيادتنا وعدد المرضى يكثر باستمرار. كان عملنا جيداً بشكل أخاف وزارة الصحة حتى أنها اتخذت قراراً بشأن اختصاصنا. ولم تكن الوزارة قد رسمت أية سياسة للموضوع حتى ذلك الحين وكنا نعمل بدون رخصة. في تموز ١٩٧٩ نشرت وزارة الصحة نشرة مطبوعة بعنوان: (دليل المهاجرين المشتغلين لحسابهم) وضعتها الوكالة اليهودية ووزارة الاستيعاب تنص على أن (المعالجة اليدوية للعمود الفقري والمعالجة المثلية هي مهن غير معترف بها قانونياً) كان يُسمح للطبيب حين لم يكن هناك نص مطبوع بممارسة مهنته بدون إجازة لمجرد حيازته دبلوماً رسمياً. ولكن النشرة جعلت عملي وعمل والدي كأطباء في إسرائيل غير قانوني.

وبدأت وزارة الصحة ووزارة الداخلية والوكالة اليهودية ووزارة الاستيعاب في جولاتها إلى عياداتنا تقول «عملكم هنا غير قانوني، عودوا إلى الولايات المتحدة!» وعندما كنا نطلب أن تكون أقوالهم خطية كانوا يقولون لنا «اتركوا إسرائيل». وإذا ما حاولنا تحديد موعد لرؤية أي من المسؤولين في هذه المكاتب كنا نواجه بالمواربة والجواب الوحيد الذي نأخذه دائماً «عودوا إلى بلادكم». أخبرت أريبلا بأن على عائلتي مغادرة إسرائيل وأريد أن تأتي معي ولكنها لم ترغب في ترك بلدها. أنتِ وعدتني بأنك ستأتين معي في حال اضطراري لمغادرة إسرائيل بسبب مهنتي، إني أحبك وأريدك أن تأتي معي. وفجأة انقلبت أريبلا إلى إسرائيلية متعجرفة. «عندما ستعمل في عيادتك اشتر لي بيتاً جميلاً وحل مشاكلك المالية وعندها سأنتقل إلى أمريكا وأتزوجك». لم أصدق ما كانت تقوله، ليست هذه هي المرأة الحساسة اللطيفة المعطاء التي أحببت. لم تكن لتستمع إلى حبي وتحققت أنها لم تحبني قط. كل ما كانت تهتم به هو المال

وقد تخيلت أنها بزواجها من طبيب سيكون بإمكانها أن تعيش حياة بذخ ورفاهية. «عندما ستنطلق عيادتي في أمريكا ما حاجتي إليك؟ سأحصل على أية امرأة أريدها. إن لم تقاسميني حلو الأيام ومرها فلست المرأة التي اعتقدتها». لم تسمع شيئاً مما أقوله، وكانت تلك نهاية علاقتنا.

كان والداي يحاولان ترتيب أمور العودة إلى الولايات المتحدة بينما انكفأت على نفسي لعدة أيام. أحاول تجاوز الضربة التي وجهت إلي. طالبتنا وزارة الاستيعاب والوكالة اليهودية بإعادة القروض التي مُنحت لنا وإلا فلن تُمنح براءة تخولنا السفر وقد رفض معظم زبائننا دفع ما عليهم عندما عرفوا أن ممارستنا أُعتبرت غير قانونية. لم يتبق لدينا إلا القليل من المال، وكان علينا أن نستدين من الأصدقاء لتغطية ثمن بطاقات السفر وأجور شحن أمتعتنا إلى أمريكا، وأن ندفع حتى أجور إقامتنا في المعتقل، لم يكونوا ليسمحوا لنا بالبقاء ولكن علينا أن ندفع قبل أن نسافر.

أظهرت الدولة للعالم وجهاً واحداً لتغطي حقيقة ما كان يجري في إسرائيل. في الحقيقة عندما كان الرئيس نافون يلتقي بلجان من الخارج كان يلقي كلمات رائعة تتحدث عن المثل الإنسانية، فقد تحدث إلى حوالي مئتين من المساهمين في جملة جمع الأموال لليهود في خطاب في مقر رئيس الدولة يسألهم ألا يرسلوا أموالاً بل أن يأتوا بأنفسهم ويعيشوا في إسرائيل. وقال بأن أموالهم تلاقى بتقدير كبير ولكن سيرحب بوجودهم أكثر، وأشار إلى أن الأموال ليست ضرورية إطلاقاً، طالما الناس مستمرون في الهجرة بثقافتهم ومواهبهم وقدرتهم على العمل الجاد، وذكّر مستمعيه بالحاجة المثالية إلى إبقاء اليهودية حية في الشباب وقد استعمل هذه كمجرد لغة إضافية، ولم يكن على أية حال مقنعاً تماماً.

الشيء الوحيد الذي أفهمه كأمريكي من حديث الرئيس نافون أنه يتحدث بلسان متشعب عندما كان يقول: «تعالوا مع أموالكم وبدون أموالكم». فكيف تواتيه الجرأة أن يقول: «تستطيع إسرائيل أن تؤمن حياة يهودية كاملة» بينما الحقيقة هي أن يهود أمريكا أكثر يهودية من اليهود الإسرائيليين؟ فنسبة اليهود الأمريكيين ممن يحترمون السبت ويقدسونه أكثر من اليهود الإسرائيليين. لقد صدمني كيف كان الإسرائيليون غير متدينين. وبينما يقول الرئيس

نافون هذا في الأسبوع الأول من آب، تتلقى أخيراً رسالة من مكتب الرئيس نافون مؤرخة في الأول من حزيران، ولكن ختم البريد يشير إلى الثاني من آب تقول إن الآنسة تشانا بيليغ وهي المرأة التي قابلتنا، قد اتصلت بالسيد دومينيش (مدير دائرة الهجرة في الوكالة اليهودية) وطلبت إليه أن يستمع إلى شكوانا، فكان الجواب أن السيد دافيد أرياف (كبير المحققين في القضايا ضد الدولة) قد حقق بالموضوع ولا يمكن أن يقوموا بأي شيء إضافة إلى ما قام به، وسيكون إعادة النظر بالقضية ليس بذي فائدة. ثم أضافت أنها تأمل بأننا تجاوزنا معاناتنا في مرحلة الاستيعاب وبأننا سنحقق نجاحاً في مجال تحقيق رغباتنا. لم يكن هناك موعد جديد معها وأُغفلت القضية.

هكذا كانت المشاكل تُعالج بأن تُلقى المسؤوليات على شخص آخر. وما من أحد يرغب في أن يمسك بناصية المشكلة ويصحح النظام، لا بد وأن شعار البيروقراطية كان: (أغمض عينيك فقط وستنزاح المشاكل لوحدها) أليسوا راغبين في مواجهة حقيقة أن ٨٠٪ من الأمريكيين الذين هاجروا إلى إسرائيل عادوا إلى بلادهم، وأن ٧٥٪ ممن تركوا روسيا رفضوا التوجه إلى إسرائيل، وأن ٨٠٪ ممن اتجهوا إلى إسرائيل قد غادروها؟ كل ما يقولونه: «نحن بحاجتكم أنتم ولسنا بحاجة أموالكم» ولكنهم لا يرغبون بإصلاح الظروف بحيث يبقى أكثر من (ألأنتم). ويقول إن إسرائيل ستحفظ الدين لبقية يهود العالم. كل ما كان يسعى إليه نافون ودولزين هو أن يجعلوا اليهود الأغنياء يحسون بالذنب بسبب عدم هجرتهم إلى إسرائيل وهكذا يبعثون بإعانات أكثر. متى ستتأكد المنظمات أمثال لجنة جمع الأموال لليهود مما كان يحدث في إسرائيل! لا بد وأن دافيد بن غوريون كان يتقلب في قبره!.

الفصل السابع

ألا يوجد مافيا في إسرائيل

كان قد مضى أحد عشر شهراً كاملة على وصولي إلى أرض الميعاد. لقد وعدتنا حكومة إسرائيل بالكثير. لسوء حظ عائلتي أن واحداً من هذه الوعود لم يتحقق. بدأت ليلة يوم ١٠ آب مثل كل أمسية منذ أن افترقت أنا وأريلا. كنت أتمشى على الطريق المحاذي لشاطئ ناتانيا. كانت الساعة حوالي الواحدة صباحاً والمكان مقفر كعادته. جلست على أحد المقاعد كعادتي وبدأت أفكر ما عسى أن يحمل المستقبل لي؟ كيف سأعود إلى الولايات المتحدة؟ رغبت في أن أعود إلى بلدي! لقد خدعني البيروقراطيون في إسرائيل في واحدة من سني حياتي، ولكنهم خدعوا شعبهم أكثر عندما حرموه من المنفعة التي قدمتها أنا وأبي عبر مهنتنا. ماذا قالت حكومة إسرائيل لشعبها، أن يكونوا متعجرفين ومتحفزين ضد الأمريكيين؟

وبينما كانت هذه الأفكار تدور في مخيلتي، جلس رجل بجواري وبدأ يحدثني بالإنكليزية «تبدو منزعجاً من شيء ما، هل بإمكاني المساعدة؟» كان له صوت هادئ، أشعرني بالارتياح مباشرة. اعتقدت أنه يهودي متدين من طريقة لباسه. كان يرتدي القبعة المستديرة التقليدية السوداء والمعطف الأسود، اللحية الطويلة. والتاليت (شال الصلاة). عادة لا أنفتح إلى الأغراب ولكنه أشعرني وكأني أتحدث مع حاخام. كنت بحاجة لمن أتحدث إليه وأخبره عن المشاكل التي واجهتها منذ أن قدمت أنا وعائلتي إلى الأرض المقدسة.

عندما حكيت حكايتي الحزينة للرجل، أخبرني أن بإمكانه مساعدتي في العودة إلى بلدي. «أعرف طريقة يمكنك بها الحصول على مال يكفيك في أن تعود وعائلتك إلى أمريكا ويبقى معك البعض لافتتاح عيادة. كل ما عليك أن تتبع تعليماتي وأضمن أن ذلك سهل جداً عليك». ربت على ظهري كأنما أراد أن يؤكد لي صدقه. هل أخبر والدي أن لدي وسيلة تمكننا من العودة إلى بلدنا؟ أو هل سيتضح أن هذا سيكون أيضاً وعداً كاذباً؟ «ماذا يدور بذهنك» قال مبتسماً. «أعرف بعض الناس ممن يحتفظون بمبلغ كبير من المال في بيتهم. كل ما علينا هو أن نختار اليوم المناسب لارغامهم على أن يدفعوا لنا. إنها أموال لم يدفعوا عليها ضرائب وبالتالي فلا يستطيعون استدعاء الشرطة». ماذا بحق الإله يقول؟ «لا بد وأنك فقدت عقلك! أنا لست محتالاً وليس بنيتي مساعدتك في سرقة عائلة لمجرد أنني بحاجة إلى المال للخروج من هذا البلد انتهت المناقشة!» نهضت أنوي الوقوف، فأمسك بذراعي وأجلسني على المقعد. «لن تذهب إلى أي مكان يا سكوت» «كيف عرفت اسمي؟ لم أخبرك به! من أرسلك إلى هنا؟» لقد بعثت ضحكته الخوف في كياني، الخوف من أجوبته على تساؤلاتي. «أنا صديق يوجين. لقد أخبرني كل شيء عنك وعن عائلتك فقررنا أن نعرض عليك عرضاً يساعدك ويساعدنا». «لن أوافق على أي من مشاريعكم الحمقى، فآخر ما أريده هو أن أنتهي بأحد السجون الإسرائيلية. لا شيء يجعلني أفعل ما تريدون». انسحبت من قبضته مسرعاً إلى شقتي وهاجس شرير يلفني كغطاء أسود، حاولت التخلص من هذا الشعور ولكنه بقي يلازمني في ظلمة الليل.

في الصباح حاولت أن أحدث يوجين واليزابيت فطرقت بابهما الساعة الثامنة صباحاً وحاولت مكالمتهما هاتفياً. وفي كل مرة حاولت رؤيتهما كانا يرفضان فتح الباب والاعتراف بأنهما في البيت. ولكنني كنت أرى ظل أحد ما يقترب لينظر من في الباب، وفي كل مرة أتصل بالهاتف كانا لا يجيبان حالما يسمعان صوتي. «رجاء، علي أن أحدثكما لم لا تكلماني؟» هل كانا فعلاً على اتفاق مع ذلك السيد المتدين؟ كنت في مأزق. هل سأجرؤ على إخبار عائلتي بما حدث؟ سيجن والدي لذلك، فقررت أن أحتفظ بالموضوع لنفسي.

قطع رنين الهاتف صمت المنزل بينما أنا جالس في الظلام «معك خمس عشرة دقيقة تنزل بها إلى الشاطئ وإلا ستندم كثيراً» «أخبرتك أنني» وضعت سماعة الهاتف الآخر قبل أن أتمكن من إتمام الجملة. ماذا يريدون مني؟ ليس لدي نية التعاون مع رجل الهاتف ذاك. ولكن ما عسى أن يحدث لو أني رفضت؟ كيف يمكنه أن يجعلني «أندم كثيراً» لم أرغب في أن أفكر بالنتائج ولذا اتجهت مباشرة إلى الشاطئ. عندما وصلت، كان المقعد مشغولاً فلم أرغب بالجلوس ورحت أتمشى جيئة وذهاباً قرب المقعد وأنا أتساءل أين يمكن أن يكون الرجل وقلقي يتزايد مع كل خطوة.

وبعد بضع دقائق ظهر رجل ضخم من الظل حوالي خمسة أقدام وعشرة أو إحدى عشرة بوصة ويزن نحو مئتي رطل. «حسن أنك أتيت. أجلس وسأعلمك بخطتي». «أخبرتك ليلة أمس بأنه ليس لدي نية في التعاون معك؟ ولم أغير رأيي فإذا استمررت في مضايقتي سألجأ إلى الشرطة!» فتهته بتلك الضحكة الشريرة ثانية: «أنت لن تلجأ إلى الشرطة. هذا إذا ما أردت أن يبقى والداك على قيد الحياة». «لن تجرؤ على المسام بهما». «سأفعل أكثر من المساس بهما. لقد سافرت إلى ميخمورييت لأرى أين يعيشان وما هو شكلهما. إنهما زوجان جميلان مسنان. أراهن أنك ستفعل أي شيء لحمايتهما. مريع كيف تقع الحوادث أحياناً ويموت الناس. هل هذا ما تريده لوالديك؟».

بدأت كتلة كبيرة تنمو في معدتي وجف حلقي ولكني بالحقيقة لم أُصدم لما كان يقوله. كنت مرتاعاً! «مثل هذه الأشياء لا تحدث في إسرائيل! مثل هذه الأشياء لا تحدث في إسرائيل...» كان صدى تلك العبارة المقززة يطن في رأسي. «من أنت؟» «بإمكانك أن تدعوني آفي». «لم أعن اسمك، عنيت من تكون!» ابتسم مثل عصابي شاهدته مرة على التلفاز وببطء فتح بيده اليسرى معطفه ليظهر لي حمالة تحمل مسدساً كبيراً. «أنا من المافيا في هذا البلد. وعادة أحقق ما أريد وإلا نال أحدهم عقابه». كانت الكتلة في معدتي تكبر حتى أصبحت بحجم كرة السلة وأحسست وكأني سأتقيأ. «ما حاجتك بي؟ لم أقم بمثل هذا العمل من قبل. لم لا تلجأ إلى جماعتك؟». «اعتقدت أنك ترغب في العودة إلى بلدك؟ إني أعطيك

فرصة مغادرة إسرائيل». «لا أريد أن أصبح مجرماً حتى أحصل على حريتي». «حسناً ليس لديك في الحقيقة خيار آخر، ما لم تكن غير راغب برؤية والديك ثانية!».

ماذا أفعل بحق الشيطان؟ إذا ما تعاونت مع آفي لن أكون أفضل منه وإذا لم أوافقه فسيدفع أبي وأمي الثمن. قررت أن ألعب لعبته آملاً أن أجد طريقة ما أتجنب بها تحقيق اقتراحه. يمكنني أن أذهب إلى الشرطة، ويمكنها أن تحميني. ربما يعرفون كيف يوقفون آفي عن تهديد عائلتي. وماذا عن يوجين واليزابيت؟ كيف كانا متورطين مع آفي؟ من هي العائلة الغنية التي يريدون مني أن أسطو عليها؟ وكيف توقعوا أن أفعل مثل هذه الجريمة؟ لو إن عندي معلومات أكثر عن خطط آفي لربما استطاعت الشرطة تحذير أولئك الناس!. «بيت من ذاك الذي تريدني أن أسطو عليه؟» «لاتقلق. سأخبرك كل ما تحتاج معرفته عندما يأتي الوقت. سأقوم بكل الترتيبات. إضافة إلى ذلك، إذا ما عرفت الكثير فقد يغريك ذلك بإخبار الشرطة وذلك لن يكون لصالح والديك». «استرخ فقط وسأخبرك بما عليك معرفته عندما يتوجب ذلك. ابق فقط بجانب الهاتف في المساء بحيث أستطيع الاتصال بك عند كل خطوة من خطتي». أسترخي؟ هل يتوقع مني حقاً أن أسترخي بينما هو يورطني بنشاطات للمافيا؟ يجب أن تكون هناك طريقة للخروج من هذا المأزق. الشي الوحيد الذي يمكنني فعله في هذه الأثناء هو جعله يعتقد بأني سأوافقه فيما يرغب. «متى ستتصل بي؟» «يكفي أسئلة الآن. اذهب إلى البيت واسترخ وكن يقظاً». نهض آفي واختفى ثانية في الظلام الذي جاء منه.

في اليوم التالي ذهبت إلى مركز شرطة ناتانيا على أمل أن يساعدوني في ساعة الشدة. سألت عن ضابط يمكن أن يساعدني في مشكلتي. قلت لهم إنني من الولايات المتحدة فأجابني أحد الضباط الصغار بالإنكليزية. كان غريباً كيف يرفض الإسرائيليون التحدث بالإنكليزية إذا لم تستطع التحدث معهم بالعبرية، فإذا ما كلمتهم بالعبرية يفاخرون بأن باستطاعتهم التحدث بالإنكليزية.

«ما هي مشكلتك؟» هناك رجل يُدعى آفي هدد بقتل والديّ إذا لم أساعده بالسطو على بيت أحد الأغنياء. وقال بأنه صديق لجاري يوجين سفارل «يوجين سفارل القاطن في شارع يوسيشكين؟» «نعم إنه هو» «من أين معرفته الجيدة بيوجين؟». «أنا متأكد بأن

يوجين سفارل لا يتورط بمثل هذا. لا بد وأنك مخطئ» لم أكن مطمئناً لموقفه. «أنا لست مخطئاً! الرجل نفسه، آفي، قال إنه من المافيا» وبدأ يضحك. «ما هذه القصة التي تخترعها؟ لا يوجد مافيا في إسرائيل! ليس لدينا مجرمون هنا كما في أمريكا. الأفضل لك أن تنصرف وكفى إضاعة لوقتنا». تركت مركز الشرطة لا أعرف أين أذهب.

بعد ذلك قرأت مقالاً في جريدة عن مقتل تسيم زاغوري وصفه بأنه قاطع طريق ومجرم سابق. وقد حقق رجال الشرطة بالجريمة في حي القطمون في القدس واستجوبوا ثلاثة رجال عن الجريمة. وبدت الحادثة وكأنها المافيا في أمريكا. كان زاغوري، وهو مجرم يعتدي على النساء، قد أُفرج عنه بعد ست سنوات من السجن. وفي طريق عودته إلى البيت في الثانية صباحاً أطلق عليه مجهول الرصاص مرتين من بئر السلم فأصابته رصاصة في الصدر وقتلته مباشرة. وهرب المجهول بسيارة تركها على مقربة أو لعله حين سمع الصافرات هرب سيراً على الأقدام.

كيف يمكن لشرطة ناتانيا القول ليس لدينا مجرمون في إسرائيل! أنكروا وجود المافيا في إسرائيل، هل كان الجميع يغمضون أعينهم على ما كان يجري في البلد! لا يمكنني أن أقبل بـ «هذا غير ممكن! مثل هذه الأشياء لا تحدث في إسرائيل». إذا كان يوجين سفارل رجلاً مستقيماً، فلماذا حاول رشوتي بأموال زوج أخته التي جمعها من السوق السوداء؟ وهل هذا تصرف رجل شريف في إسرائيل؟.

سرت في شوارع ناتانيا معظم النهار على غير هدى، أحاول أن أجد طريقة للتعامل مع آفي. وكان شعور الوحدة يكتنفني وأنا أسير دونما غاية وكأنما إلى الأبد. لم تكن الأرض المقدسة مقدسة وهذا يشمل على الأقل العاملين في الدولة ومن يدعون باليهود المتدينين. لم أحس بتلك الطاقة المميزة التي عشتها وأنا أقف بجانب قبر دافيد بن غوريون في الكيبوتز الذي أقامه في النقب. لقد قتل روح إسرائيل الحقيقية أناس لهم علاقة بقابيل!. كان ألد أعداء إسرائيل اليهود الذين يصفعون إخوتهم اليهود، كما ضرب قابيل أخاه هابيل!.

كانت الساعة حوالي السابعة، عندما دخلت شقتي وسمعت رنين الهاتف، تملكني خوف كبير من أن أجيب. وكان الرنين يعذبني، رفعت السماعة «مرحبا» وجاء الصوت

الذي أحال رعبي إلى حقيقة. «حذرتك من الذهاب إلى الشرطة! كان يمكن لأبويك أن يكونا في عداد الأموات لو لم أقرر أن أمنحك فرصة أخرى. ولكن إذا ما حاولت التصرف بحمق مماثل فسيكون موتهما على يديك! هل هذا واضح تماماً يا سكوت؟» «أعدك بأني لن أذهب إلى الشرطة مرة ثانية. لا تؤذ والديّ رجاء!» «هذا ما أود أن أسمعه. أريد أن أقابلك بنفس المكان الساعة الواحدة صباحاً فلا تتأخر!!» شعرت بأنني وحيد. كيف اكتشف زيارتي للشرطة؟ لا بد وأن لديه مخبراً في المركز. لم أعد أجرؤ على المجازفة بالحديث إلى الشرطة ثانية، ولكن كيف أوقف آفي؟.

لم يكلمني يوجين واليزابيت رغم محاولاتي العديدة للاتصال بهما. تثاقل الليل طويلاً وبدت كل دقيقة فيها وكأنها ساعة. ليس لدي خيار سوى الالتزام بموعدي مع آفي. كان الجو مشبعاً برطوبة مزعجة أرسلت الرعشة في أوصالي. وبدا كل شيء كالكابوس. «ربما أفيق لأجد كل شيء قد انتهى» قلت لنفسي. لكن علي أن أواجه الحقائق. كان ذلك يحدث فعلاً وعلي أن أجد طريقة أحمي بها نفسي وعائلتي. لو أني في بلدي لما قلقت بهذا الشكل هناك أعرف لمن ألجا في طلب المساعدة. أما في هذا البلد فلا أحد يمكن الوثوق به لو أخبرت والدي فلن يتغير شيء في الموضوع، بل يمكن أن يؤدي ذلك إلى قتلهما.

انتظرت حوالي عشر دقائق قبل أن يظهر آفي ويأتي إلى المقعد، لا أحد يمكن أن يشك بأنه من المافيا لو نظر إليه. «حسناً. آمل أن تكون قد أخذت درساً. لن تساندك الشرطة بمشكلتك ولذا عليك التعاون معي. لم أؤخرك طويلاً هذه الليلة أريدك أن تنتبه جيداً لما سأقول. سأغيب الأسبوع القادم وهناك أشياء يجب أن تكون بحوزتك حتى مساء الأحد القادم هل فهمت؟» «فهمت» «حسناً! اسمع، الموضوع ليس صعباً» انبسط وجهه وانفرج فمه عن أسنان ملتوية وهو يحاول أن يرسم ابتسامة «إن كنت لا تملك الأشياء التالية. احصل عليها. ملاءة كبيرة، زوجاً من القفازات، وعدة ربطات من الأشرطة القوية، وسكيناً حادة، وقناعاً، أو نظارات شمسية، وقبعة وبعض المناديل. والآن أعد كل ما قلته».
زوج قفازات، ملاءة كبيرة، عدة ربطات من الأشرطة القوية، سكين حادة، قناع أو نظارات شمسية، قبعة، بعض المناديل. ولكن لماذا كل هذا؟ «أخبرتك سنأخذ بعض المال وبعض

الذهب من عائلة غنية. وهذا كل ما تحتاج أن تعرفه الآن. سأتصل بك بعد أسبوع من هذه الليلة يجب أن تكون في البيت. هذا كل شيء». انتظر آفي أن أذهب قبله هذه المرة. كنت أشعر ببرد شديد ووددت أن أعود إلى دفء بيتي.

أمضيت الأيام السبعة اللاحقة أجمع المواد التي طلبها مني آفي. الشيء الوحيد الذي كان علي أن أشتريه هو الشريط، فابتعته من صيدلية قريبة. وأخذت القبعة من والدي. أما بقية الأشياء فكان من السهل إيجادها بين أمتعتي. لم أكن أستطيع أن أتخيل غرضه من الملاءة ولكني متأكد من أني لا أحب أفكاره. قررت أن علي التصرف بما تمليه خطة آفي حتى يُتاح لي أن أتحرك. السيطرة عليه ستكون صعبة بوجود المسدس ولكن ربما تسنح الفرصة. كنت أرجو ألا يكون على علم بمهارتي بالجودو والكاراتيه، وإلا فسيكون حذراً. كنت ماهراً فعلاً ولكن الطلقة تسير بسرعة كبيرة. إضافة لذلك، إذا ما كان عسكرياً إسرائيلياً فسيكون مرعباً أكثر مما كنت أخطط له.

أحس والديّ بأن في رأسي أكثر من قلق العودة إلى أمريكا ولكني لا أود بحث الموضوع معهما. لقد تعودا أن يتركاني أحل أموري بنفسي، ويعلمان بأني لن أحجم عن السؤال إذا ما احتجت نصحهما. كان علي أن آخذ باعتباري عوامل كثيرة قبل أن أقلق على كيفية رد فعل والدي للموقف الذي أواجهه. ربما كان يوجين واليزابيت يخبران جماعة آفي بتحركاتي. كانا حريصين على ألا يصادفاني، ربما كانا خائفين من رد فعلي ضدهما. من يعلم، ربما أفعل شيئاً ما لو أُتيحت لي الفرصة.

الجلسة التالية مع آفي لم تظهر لي أية معلومات جديدة. «أريد منك أن تحجز سيارة لصباح الخميس القادم (٢٣ آب، ١٩٧٩) وتكون مستعداً للحركة عندما أتصل بك». ولكن ليس لدي مال لاستئجار السيارة. «يمكنك استعمال بطاقتك المصرفية لحجزها، بعد العملية ستمتلك الكثير من المال وتسدد الفاتورة». إنه يعرف أن لدي بطاقة مصرفية. من أين حصل على جميع هذه المعلومات؟ «سأزودك بمسدس لاستعماله في حال مواجهة مشاكل مع الناس». كنت ماهراً جداً باستعمال معظم أنواع المسدسات، حيث كنت وأنا يافع في فريق الرماية بالمسدس كما كنت بالخدمة أيضاً. ولكن فكرة اقتناء السلاح من أجل

الجريمة التي أرادني آفي أن أقترفها أرعبتني. أرعبني مجرد احتمال استعماله. «لا أريد مسدساً. قد يُصاب الإنسان بالذعر ولا أريد أن ينطلق المسدس عفوياً» «ليس هناك ما تقلق منه فلن أعطيك مسدساً محشواً. أريدك فقط أن تخيف الناس به». لم أستطع أن أتخيل أي نوع من العصابيين كان آفي، يبدو هادئاً، فمثله يحتاج إلى ضبط. «من الآن حتى يوم الخميس، أريد فتح ثقبين للعينين في الملاءة التي طلبتها منك. أنت تعرف مثل كوكلاكس كلان. وبهذا لن يتمكن الناس من التعرف عليك وإذا كانوا أغبياء واستنجدوا بالشرطة فسيواجهون صعوبة في شرح فقدانهم لأموال مكتسبة من السوق السوداء. «هل سيشترك أي آخر معنا في هذا؟». «لا سأوصلك وأنتظر بالسيارة بينما تقوم بالعمل». «تعني سأقوم بذلك لوحدي؟ لا أستطيع!» «بل ستفعل إذا ما أردت أن يبقى والداك أحياء. سيكون ذلك سهلاً جداً. كل ما عليك هو أن تلوح بالمسدس وتجعلهم يعتقدون بأن ستطلق النار عليهم إذا ما قاوموا». ربت على ظهري ثم تركني.

كنت طيلة الأسبوع أعاني من مشاكل في النوم. ولم أستطع أن أرتاح البتة يوم الأربعاء أو أن أتذوق الطعام. وكلما حاولت أن أضع شيئا في فمي، كنت لا أستطيع ابتلاعه. الشيء الوحيد الذي لم أجد فيه صعوبة كان استئجار سيارة. كان علي فقط أن آخذها قبل يوم الخميس وإلا فلن يكون هناك سيارات. كدت أن أذهب إلى والديّ وآخذهما في رحلة إلى حيث لا يستطيع آفي أن يجدنا ولكني خفت من النتائج. لو كان الأمر يتعلق بي وحدي ربما وجدت فرصة للإفلات من البلد بطريقة ما. ولكن والديّ ليسا شباباً وبعد ضغط السنة الماضية لم أرغب في رؤية كم سيتحملون من الجهد والتوتر.

كنت مازلت فضولياً لمعرفة من هم الناس الذين يريدني آفي أن أسطو عليهم. لماذا لم يستعمل جماعته؟ لم اختار هاوياً مثلي للقيام بهذا العمل الخطير؟ لم يعطني دليلاً واحداً عن مقر سكنهم. جمعت الأشياء التي طلبها آفي وقررت أخذ هراوة كسلاح بديلاً عن المسدس. أخذت إحدى قوائم السرير من منزلي آملاً في أن أقنع العصابي بأن يدعني أتصرف على طريقتي. وعندما اقترب الموعد الذي سألتقي به بآفي كنت قد فكرت بطريقة أنقذ بها والديّ دون أن أرتكب جريمة. سأوضح كل شيء للضحايا المقصودين وأخبر آفي بأنهم لا يمتلكون الثروة التي قدرها. وإذا كنت قادراً على الإقناع ربما يترك عائلتي وشأنها.

حوالي الساعة الثالثة من بعد ظهر الخميس، الثالث والعشرين من آب ١٩٧٩، أمرني آفي أن أمر لأخذه من مكان موعدنا المعتاد. كان مطمئناً تماماً إلى أنني لن أحضر الشرطة لتقبض عليه. كان آفي يدلني على كل خطوة من الرحلة دون أية كلمة عن وجهتنا النهائية. اتجهنا إلى تل أبيب ،وعندما وصلنا إلى المكان المقصود عرفت من هي الضحية. جئت مرة واحدة من قبل فقط، ولكنني لم أنس مبنى السيد والسيدة سولومون كن، عائلة أبيلا ابنة أخت يوجين. لا يمكن أن تكون هذه مجرد مصادفة. لقد وضحت معالم الصورة أخيراً. وتذكرت قول يوجين «لديه الكثير من دولارات السوق السوداء والماركات الألمانية والذهب المخبأ في بيته» اذن يوجين يريد السطو على بيت زوج أخته! وشرطة ناتانيا تقول إنه رجل جيد. «خذ رداءك وبقية الأشياء إلى الطابق الأخير واستعد» ثم ادخل شقة عائلة كن وقيدهم بالشريط. هددهم بأنك ستذبح الزوجة إذا لم يرشدك الزوج إلى حيث توجد أشياؤه الثمينة، وتأكد من أن جميع النوافذ مغلقة حتى لا يراك أحد من البنايات الأخرى وهذا المسدس» «أبعده عني. لا أريد مسدساً. قد يجزع أحدهم ولا أريد أن أكون مسؤولاً عن إيذاء أي كان. إن كنت ترغب بالمجيء معي فيمكنك استعمال المسدس ولكن أنا لن أفعل» حبست أنفاسي راجياً ألا يرافقني.

«حسناً قم بالعمل بالشكل الذي تريد. عليك ألا تتأخر أكثر من ساعة إنها الرابعة بعد الظهر الآن. أتوقع عودتك قبل الخامسة تذكر أن أية حركة بعيداً عن خطتي يكون أبواك قد فارقا الحياة» «كيف يمكنني أن أدخل إلى البناء؟ فيه قفل أمان» «اضغط على جميع الأزرار ولا بد أن أحدهم سيفتح الباب».

بينما أنا أتقدم من المدخل فكرت برد فعل عائلة (كن) لما سيحدث. هل سيصدقونني؟ يبدو وكأنهم أحبوني عندما قدمت لتناول العشاء معهم. وربما أخبرهم يوجين بما قلته عن ابنتهم فلن يكونوا لذا سعداء في دعوتي إلى بيتهم. ولكن علي أن أدخل. لا يمكن أن أدخل بالقوة. نظرت إلى الخلف ووجدت آفي في السيارة يراقب حركاتي.

دخول الباب الرئيسي كان بالسهولة التي قال عنها آفي. فما معنى قفل الأمان إذا كان بإمكان السكان فتح الباب دون التحقق ممن هناك؟ وأخذت المصعد إلى الطابق الرابع،

حيث تعيش عائلة (كن) وفكرت بما سأقول. كنت أحمل أشيائي بيدي عندما طرقت الباب وجاءني صوت امرأة بالعبرية: «من هناك؟» «أنا سكوت روستون، أسكن حيث يسكن يوجين. هل يمكنني التحدث مع السيد والسيدة (كن)؟». انفرج الباب قليلاً فرأيت السيدة (كن) تنظر من فرجة الباب، من فوق جنزير الأمان. «ماذا تريد؟» «من المهم جداً أن أحدثك وأحدث زوجك. هل لي أن أدخل؟». «دقيقة واحدة». كان صوتها متفهماً. وقفت مكاني وأنا قلق كيف سيتصرف هؤلاء بعد أن أقص عليهم حكايتي. سمعت صوت جنزير الأمان يزاح من مكانه والسيد (كن) يفتح الباب ببطء. «عم تود محادثتنا». «الأمر هام جداً يا سيد (كن). فأنت وزوجتك في خطر كبير». «ماذا في حقيبتك؟» «لو أدخل فسأتمكن من شرح كل شيء.» دخلنا نحن الثلاثة غرفة المعيشة وجلسنا. «الآن هل تخبرنا لم نحن في خطر؟» «رجل يُدعى آفي من المافيا، أرسلني لأسطو عليكم. إنه صديق ليوجين وكلاهما يريد ما بحوزتك من دولارات أمريكية وماركات ألمانية وذهب. وقال إن أنا لم أسرقك سيقتل والديّ».

لم أكن أعرف أنكم أنتم العائلة التي يود أن يسرقها حتى وصلت إلى هذا المبنى. هذا كل شيء أرادني أن أستعمله في السطو عليكم. تناولت جميع ما كان بداخل الكيس الكبير، وكانت عيونهم تتسع بنظرات الرعب. «قلت إن يوجين شريك لهذا الرجل آفي؟ أنا لا أصدق ذلك. ليس لدي مال أو ذهب في بيتي». «أنا لست متأكداً من أن يوجين متفق مع آفي. ولكن في كل مرة كنت أحاول الحديث مع يوجين واليزابيت كانا يرفضان التحدث إلي بالهاتف أو من الباب. لماذا؟ آفي يعرف كثيراً من الأشياء عني. أشياء لا بد وأن يوجين أخبره بها. ولم يختار آفي أن يسرقكم أنتم بالذات؟ هناك مصادفات كثيرة جداً».

بكت السيدة (كن) وأنا أخبرهم عن قصة لقائي مع آفي لأول مرة، وأوضحت لهم ماذا حدث بعد أن اتصلت بالشرطة. لم ينبس السيد (كن) بكلمة وأنا أقص عليهم ما حدث في الأسبوعين الماضيين من حياتي. أكدت لهم أنه ليس بنيتي أخذ أي شيء منهم، واقترحت عليهم الاتصال بالشرطة، فرفض السيد (كن). وبعد أن انتهيت من قصتي تحدثا مع بعضهما بالهنغارية. سار من مقعده باتجاه خزانة حيث أخذ من أحد أدراجها مسدساً

وأشار لي: «اخرج من هنا أيها المهووس!» كان عدوانياً جداً في تصرفاته. «إني أخبرك الحقيقة وإلا لما جئت إليك مسالماً؟». إن أنت لم تخرج سأستدعي الشرطة! فكرت لدقيقة أن من الأفضل أن يستدعي الشرطة ولكني تذكرت ما حدث لوالدي في بئر السبع وميخموريت. «حسناً. أنا ذاهب ولكن كل ما أخبرتك به هو حقيقي». أردت أخذ الأشياء التي أحضرتها معي، ولكن السيد (كن) طلب أن أبقيها. فتحت الباب وقادني إلى الردهة بعد أن قفل الحاجز ورائي. لماذا أراد أن يحتفظ بأشيائي؟ وشعرت بالمرارة في فمي بينما أنا في طريقي إلى المصعد.

تزايد قلقي عندما وصلت إلى السيارة ووجدت أن آفي لم يكن هناك. وبدأ يلفني شعور بمصيبة سوف تقع. ماذا كان يجري بحق الشيطان! كان مفتاح تشغيل السيارة مايزال بمكانه وأبوابها غير مقفلة. ولكن آفي لم يكن هناك. فكرة سلامة والديّ استحوذت علي وأنا أسير مسرعاً بشوارع تل أبيب في طريقي إلى ميخموريت. ماذا سيفعل آفي بهما؟ ماذا سيفعل بي؟ لو أن أحداً أخبرني بأن هذا سيحدث لي في إسرائيل قبل أن أجيء لما صدقته، ولكن أحداث السنة الماضية جعلتني أوقن من أن الحكومة وكثيراً من الناس يجعلون يهود العالم يعتقدون بأن إسرائيل تستحق أن يوظف الناس من أجلها بينما هم بالحقيقة فاسدون كالخطيئة.

ارتحت عندما وجدت بعد وصولي إلى البيت أن والديّ مازالا على قيد الحياة «ماذا هناك يا سكوت؟ أنت شاحب كالشبح!» لم أستطع السكوت أكثر من ذلك، فقصصت عليهم أحداث الخمس عشرة يوماً الماضية محاولاً ألا أبدو مجنوناً. أعلم أنني بريء من أية جريمة ولكني لم أستطع التخلص من الشعور بأن الأسوأ سيأتي فيما بعد.

لماذا رماني السيد (كن) خارجاً بعد أن جازفت كل تلك المجازفة لأحذره؟ كان أبي وأمي قلقين على ما حدث لي أكثر من قلقهما على حياتهما المهددة، ولم يُدهشا من عدم مساعدة الشرطة لي. «لن أستغرب إذا ماتبين أن الشرطة كانت على اتفاق مع آفي ويوجين!» كانت أمي تشعر بالمرارة لما حدث لوالدي، لاعتقادها بأن الشرطة ستأتي ورائي فقد حضرت لي الطعام للعشاء ولكني لم أستطع تناول الأكل. كنت قد أمضيت يومين دون طعام وأشعر

بوهن كبير، ومع ذلك لم أرغب في أن يحس والداي بمدى تأثري بالموضوع فلديهما ما يكفيهما مما يقلقان عليه، ولم أشأ أن أضيف همي إلى همومهما، فقررت أن أعود إلى بيتي في ناتانيا لأنام قليلاً.

لم أكن ممن يشربون ولكن لو علمت بأن الشرب يساعد على الاسترخاء والنوم لشربت لدرجة السكر. فأنا لم أستطع أن أطرد شعوراً كالنذير يحوم حولي رغم أنني حاولت كثيراً. كان ذلك الشعور يلاحقني متحفزاً لأن ينقض علي في أول لحظة تسقط فيها مقاومتي، فأخذت أردد المزمور الثالث والعشرين مصلياً أن ينقذني الله من ذلك الشعور الشيطاني. «إن الله راعيتي فلن أحتاج، لقد أودعني المراعي الخضر وقادني قريباً من الحياة الساكنة وحفظ نفسي وقادني في المسارب المستقيمة من أجل اسمه. رغم أني أمشي في وادي ظل الموت، لن أخاف الشر لأنك معي إنّ عصاك وملاكك يريحاني. لقد أقمت حاجزاً بيني وبين أعدائي. لقد مسحت رأسي بالزيت وامتلأت كأسي. الخير والرحمة سيرافقاني في جميع أيام حياتي وسأعيش في بيت الرب للأبد. آمين».

لا أذكر متى استسلمت للنوم. كنت مرهقاً تماماً ومن المرجح أني نمت طوال يوم الجمعة ولكني لم أكن محظوظاً. فقد أفقت على صوت طرقات عالية على بابي سحبتني من عالم الغيبوبة قلت لنفسي: لن أنهض فالطارق كائناً من كان سينصرف بعد قليل.

«سكوت، سكوت، أعلم أنك بالداخل. افتح الباب! . كان ذلك صوت يوجين فمن السهل تمييزه. لقد تحاشى أن يحادثني لمدة أسبوعين فماذا يريد مني الآن! ارتديت بنطالي الجينز وقميصاً صيفياً وذهبت أستطلع سبب هذه الضجة. «يجب أن نتحدث إليك، أنا واليزابيت! تعال إلى شقتنا لنأخذ فنجاناً من القهوة». «كم مرة أخبرتك بأني لا أشرب القهوة؟». «رجاء! علينا أن نحدثك عما حدث في بيت سولومون» «تعني زوج أختك؟» «نعم» «لماذا لم تكلمني طيلة الأسبوعين الماضيين؟» قلت وأنا أحدق عميقاً في عينيه. أنا هادئ في الصباح عادة ولكني شعرت لحظتها بحالة من الهياج الفظيع. «سنشرح لك كل شيء».

دخلت شقة عائلة سفارل وبدأت أسائلهم لماذا حاول آفي إجباري على السطو على

عائلة (كن)؟ أنكر يوجين معرفته برجل المافيا هذا أولاً. ولم أصدقه فقلت: «إن كنت لا تعرف آفي فكيف له أن يعرف الكثير عني وعن عائلة (كن)؟ وبعد محاولات عديدة أقر بمعرفته له. «ولكن لا علاقة لي بتهديده أبويك». كانت هذه غلطته الكبرى. «أنا لم أقل أبداً إنه هدد والديّ. فأنت على علم إذن بكامل الخطة أليس كذلك؟!» حاول أن يتملص ولكني لم أستمع لأكاذيبه وعندما أخبرته بأن عائلتي مهتمة بالمباشرة بالتحقيق بكامل الموضوع بدا عليه الرعب. «لا تخبر أحداً بأني على معرفة بآفي». «ولم لا؟ أنوي رواية القصة بأكملها لأي إنسان يوصلني إلى نتائج. أريد إدخاله السجن. وإذا تبين بأنك ساعدته في خطة السطو ستتحمل النتائج أيضاً».

على مدى ساعتين كان يوجين واليزابيت يرجواني ألا أذكر ما يربط بينهما وبين آفي. وفي كل مرة كنت أحاول الانصراف كانا يخترعان حجة ليبقياني في منزلهما. وقد قام يوجين وأجاب على الهاتف في الغرفة الأخرى. وبعدها، في حوالي الساعة العاشرة والنصف من صباح الجمعة الرابع والعشرين من آب، قرع بابهما رجال الشرطة وكانوا يبحثون عني.

«لم أنا مطلوب؟».

«هل لديك بطاقة شخصية؟».

«إنها في شقتي». لم يوضحوا لماذا كانوا يريدونني. ذهبت معهم إلى بيتي وأخذت بطاقتي الشخصية وإجازة قيادة السيارة الأمريكية. لاحظ أحدهم جواز سفري التقطه فاختطفته من يده وأنا أنظر إليه بتحد. فالتقط آخر مفاتيح سيارة الأجرة. وبينما هم يعبثون ويحشرون أنوفهم في كل ركن من البيت، دخل والدي المكان. أخبرته كل ما أعرفه عن طلب الشرطة لي وأخبرني أنه سيتصل بكلٍّ من القنصلية والسفارة الأمريكية. وضع رجال الشرطة الأصفاد في معصميّ واقتادوني لسيارتهم. كنت أعرف أن أبي لن يهدأ حتى يتأكد من أنني بأمان، ولن يرغب في أن أمر بالتجربة التي مر بها وهو في بئر السبع.

الفصل الثامن

الاستجواب

«روستون! روستون» أيقظني الصوت المنادي باسمي من ذكريات الماضي ولو أني كنت أتخيل بأني كنت أحلم، وبأن كل ما حدث لي مجرد كابوس فإن إيقاظي في تلك الزنزانة الرطبة جعلني أتحقق بأن كل ذلك كان حقيقة. «انهض يا روستون» قال ضابط وهو يهزني حتى نهضت من سريري. غمرني إحساس بأن عدداً كبيراً من البق الصغير يغزو أنحاء جسدي. اقتادني الشرطي خارج الزنزانة إلى مركز شرطة ناتانيا للاستجواب. كانت الساعة تشير إلى الرابعة بعد الظهر وأمام الضابط المناوب كانت حاجياتي مع الايصال الذي وقعته على المنضدة. سأل عن نسختي من الايصال ثم قدم لي أشيائي. كان إسرائيليان يقفان بجانب الباب الخلفي للمركز. أحدهما يمسك بزوج من الأصفاد افترضت أنهما من الشرطة. وما إن وضعت حاجياتي في جيوبي حتى أمسك أحد الشرطيين بمعصميّ ووضع يديّ خلفي بعد أن قيدهما بالأصفاد. كان الشرطيان بنفس زي الشرطي تشكلز وزملائه: جينز أزرق، قميص مبرقع وصندل. قيل لي إني حُولت إلى تل أبيب. كانت الرحلة إلى المدينة الكبيرة متعبة. فمن المستحيل أن أشعر بالراحة ويداي مربوطتان إلى الخلف. ألا يؤمن رجال الشرطة الإسرائيليون بقليل من الإنسانية؟ كان السائق ينتقل من مسرب إلى آخر باستمرار ملقياً بي

مرة إلى الخلف وتارة إلى الأمام وأنا في المقعد الخلفي ومؤشر السرعة يشير إلى ١٥٠ كيلو متراً في الساعة (٩٤ ميلاً) أي ٦٠ كم في الساعة (٣٨ ميلاً) فوق الحد القانوني، وتساءلت ما إذا كنت سأعيش لأصل إلى تل أبيب. إذ أن الشرطي وراء المقود كان في سباق. لم أتصور أن قيادة السيارة بهذه السرعة كانت مشروعة أو أمينة، خاصة وأن للسائقين الإسرائيليين سجلاً طويلاً في مجال القيادة. لدى وصولنا إلى مركز شرطة تل أبيب كان الارتياح أول ما شعرت به وكان المشي على الأقدام وتحريك المعاصم تعويضاً بسيطاً عن الألم والقلق اللذين كنت أعانيهما. أمسك الضابط القصير بأصفادي وقادني دفعاً إلى المبنى الكبير بسرعة عبر عدة درجات مهترئة يسهل الانزلاق عليها حتى أني فقدت توازني وتلقيت الصدمة على ركبتي اليمنى، ولم يأبه ما إذا كنت قد جُرحت بل استمر يدفعني على الدرج نحو الأعلى. ولا بد وأنهم كانوا يعتقدون أني تافه قذر. أليس من الأسهل لو أزاحوا الأغلال؟.

بعد قليل أخذني الرجل إلى مكتب فارغ، نادى أحدهم ليخبر آخر بأننا وصلنا وأجلسني على كرسي. لم يتكلما كثيراً متظاهرين بأنهما يعملان، مما يعني أنه ليس باستطاعتهما أن يحرساني ويتحدثا بنفس الوقت، كنت أتأمل شرطيين لا يستطيعان السير ومضغ اللبان بنفس الوقت! هل كانا خائفين من أن أهرب من الغرفة إذا ما تحدثا؟ لماذا لم يكبلاني بجنزير وكرة حديدية؟ بالطبع، لو كانا يتكلمان لما سمعا صوت الكرة تتدحرج على أرض الغرفة وأنا في طريقي هارباً. مضت عدة دقائق قبل أن يتحرك الموديلان. ودخل الغرفة اثنان آخران، لاحظ أحدهما أن الأصفاد مازالت تغل معصميّ فأمر القصير بأن يزيلها. «هل أنت مستعد للاجابة على أسئلتنا؟ قالت شرطة تتانيا إنك لم تتعاون معها» لم تعجبني الأسئلة التي يسألونها. لماذا قالوا إني ضربت السيدة (كن)؟ الشيء الوحيد الذي فعلته هو أني حاولت تحذيرهم من رجل يُدعى آفي يريد أن يسطو على بيتهم، وقال إنه صديق يوجين سفارل أخي زوجة (كن). ولم يرغبوا بتصديقي أن السيد (كن) تناول مسدساً من الخزانة وهددني للخروج من بيته واحتفظ بالأشياء التي كان علي أن أستعملها من أجل السطو على بيته. لم أرتكب أية جريمة وإذا ما قال أحد غير ذلك فهو يكذب. التفت الضابط المحقق إلى معاونه وقال بالعبرية، أظن أن في عقله لوثة وطفقا يضحكان. لماذا يكذب السيد والسيدة

(كن) في موضوع خطير كهذا؟ يحتمل أنك تلفق قصة ستكون الأمور أفضل لو أخبرتنا بالحقيقة.

أخذت نفساً عميقاً، محاولاً أن أهدئ نفسي. «هل تريداني أن أقص كل ما حدث؟ أمام محام يتكلم الإنكليزية سأجيب على كل أسئلتكم». «يكاد يدخل السبت وأنت تؤخرنا بالعمل. لو أنك تعرف صالحك لنسيت موضوع المحامي وأجبت على أسئلتنا!» بدا الاثنان جادين ولا يرغبان بإساءة المعاملة أكثر وقررت الاجابة على أسئلتهما: «ستكتبان كل ما سأقوله كلمة كلمة؟» «نعم، نعم. والآن ما الذي حدث فعلاً؟» «هل تريدان القصة كاملة من الأول؟» «نعم! من الأول،» أخبرتهما بكامل قصة مجيء أسرتي إلى إسرائيل. وكيلا أغفل التفاصيل، ذكرت جميع المشاكل التي واجهناها بما في ذلك المشاكل مع صاموئيل فلاثو ـ شارون الوكالة اليهودية ووزراة الاستيعاب اليعازر ليفنسون وبقية موظفي الحكومة. أخبرتهم كيف حاول يوجين واليزابيت فسخ خطبتي لأربيلا وكيف حققا تلك الرغبة أخيراً. وبينما كنت أحاول أن أقص عليهم كيف أراد يوجين تزويجي من ابنة أخته من أجل المال، رن جرس الهاتف.

رافقني الشرطي القصير إلى مكتب آخر في نهاية الردهة. حيث كان ممثل من السفارة الأمريكية وآخر من القنصلية ينتظراني لمحادثتي. «هل يعاملونك بشكل حسن؟» سألت إحدى المرأتين. «إن معصميّ يؤلماني بسبب الأصفاد التي تغل يديّ لوقت طويل». «هل من شيء آخر؟» سأل أحد الضباط الإسرائيليين الذي كان حاضراً الحديث. «طلبت محامياً منذ وقت ولم يحضروا لي واحداً واعتقدت أني سأموت في حادث تحطم سيارة من الطريقة التي أسرع بها السائق من نتانيا إلى هنا». «هل يوجد أشياء هامة تود أن تحتج عليها؟» «أريد محامياً! وأريد الحماية لوالديّ أيضاً». بدت نظرة استفسار على وجه الأمريكيتين. لِمَ تريد الحماية لوالديك، أخبرتهما عن آفي وبأني لازلت قلقاً على سلامتهما وددت أن أعرف التهم الموجهة لي، فقيل إني متهم بالسطو المسلح والتهديد بسلاح قاتل. عندك جلسة يوم الأحد في السادس والعشرين من آب وحتى ذلك الوقت فأنت موقوف. زارنا والدك وطلب توكيل محام عنك. وهذه قائمة بأسماء المحامين الذين يتحدثون الإنكليزية. ناولتني المرأة من القنصلية ورقة بعدة أسماء. على والدك الاتصال بأحدهم. «ألا يمكنكم

استدعاء أحدهم إلى هنا أثناء الاستجواب؟» «صلاحياتنا محدودة في مثل هذه القضايا خاصة بسبب طبيعة الاتهامات». «هل من صالحي القول بأن تهماً تُلفق ضدي؟» «أنا واثقة من أن محاميك سيعمل كل شيء ليثبت براءتك. لدينا وثيقة لك كي توقعها، لارسالها لكافة الهيئات، فإن كنت لا ترغب بتوقيعها فالأمر يعود لك. ولكن سيكون توقيعها لصالحك».
قرأت الورقة وشطبت جميع الهيئات عدا مكاتب حكومة الولايات المتحدة.

لم أشعر بالاطمئنان كثيراً بعد لقائي مع هاتين المرأتين. وقد أدهشني ألا تقوم الولايات المتحدة الأمريكية بحماية رعاياها في الخارج بشكل أفضل، خاصة في إسرائيل! كنت أظن بأن هاتين الممثلتين لحكومتي ستحاولان إسداء النصح لي على الأقل مثل جلسات الاستجواب. ألا ترغبان في مساعدتي بالمحافظة على حقوقي؟ أم ليس لدي حقوق؟ قالتا إنهما سترسلان من يطمئن على وضع والديّ. أرسل الرئيس كارتر جميع من بدائرته لضمان أمن إسرائيل، ولكنه ليس مهتماً بأمن أمريكي واحد في إسرائيل. وعندما عدت إلى غرفة التحقيق وجدت أن علي أن أقف طيلة مدة الاستجواب. ولكي أطلب كرسياً، رغم تعبي الشديد، يجب أن أقع أولاً. تابعت قصتي عن يوجين واليزابيت، وعائلة كن وآفي وعندما وصلت إلى محاولتي طلب المساعدة من الشرطة، رمقني الشرطي الذي يتحدث الإنكليزية بنظرة قذرة. وما إن أنهيت إفادتي حتى كانوا قد دونوا عشر صفحات. طلبوا إلي أن أوقعها ولكنها كانت بالعبرية. كان يمكنني التحدث بالعبرية بشكل جيد، حتى إني أكتبها بشكل حسن، ولكن العبرية التي أقرؤها هي تلك المطبوعة وليس خربشات أحدهم. كان من الصعوبة بمكان قراءة خط اليد بالإنكليزية، فكيف بالعبرية. «سأوقعها في حال إعادة كتابتها باللغة الإنكليزية وتطابقها مع ما قلت تماماً. في تلك الحالة فقط سأوقعها». «ليس لدينا وقت لاعادة كتابتها بالإنكليزية عليك التوقيع عليها كما هي!» أعطاني أحدهما قلماً. «لا يمكنني التوقيع عليها!» أمسك الرجل بيدي الممسكة بالقلم وشد عليها بالوضعية التي سأوقع فيها على الافادة. «بالتأكيد يمكنك التوقيع عليها. فكفاك إزعاجاً لنا!» سحبت يدي منه ورميت بالقلم على الطاولة لا يمكنني التوقيع على إفادة ليس باستطاعتي قراءتها.

أنزلوني للأسفل حيث أُخذت بصماتي. عندما ذهبت للبحرية الأمريكية وعندما

طلبت رخصة مسدس، أُخذت بصماتي. لم يكن من مشكلة عندما أخذوا بصماتي في الولايات المتحدة. كان الأمر مجرد أرخ يديك، ما من ألم، ما من مشكلة، ولكن الشرطي الإسرائيلي الذي أخذ بصماتي كان يتلذذ بالضغط على أصابعي بينما يقوم بعمله. وعندما انتهى أخذني القصير إلى غرفة التحقيق حيث نُصحت، ولغير صالحي، بتوقيع الإفادة، وكنت مصراً على رفض التعاون مع الشرطة. هل يعتقدون أنني أحمق لدرجة أن أثق بمن أساء معاملتي ومعاملة والديّ؟ كنت مصمماً على عدم الاستسلام لتهويلهم. كيف لي أن أعلم ماذا كتبوا؟ تركوني أقف لساعة أخرى. وهم يحثونني باستمرار على الانصياع لهم. كم رغبت لو أن والدي يستطيع الحضور إلى تل أبيب عند الاستجواب ولكن لا يوجد باصات يوم السبت وليس لديه سيارة. انزعج رجال الشرطة مني ودفعوا بي نحو الطاولة محاولين إرغامي على توقيع الوثيقة.

أعرف حالات أخرى وقعت فيها الاعترافات والافادات تحت التهديد. قرأت عن حالة برأ فيها القاضي حاييم كوهين نمر أبو حمود من التهم الموجهة إليه إذ ادعى أبو حمود أثناء المحاكمة بأن إفادته وقعت تحت إلحاح الشرطة إلحاحاً عنيفاً. وقد أبدى القاضي كوهين إهتمامه بمسألة كبح أعمال الشرطة بنفس الحماس الذي أبداه لمعاقبة المجرمين حتى أنه وصل لدرجة القول بأن القضاة يصبحون مساعدين حين يقبلون بناء أحكامهم على أدلة مقدمة بطرق خاطئة.

يبدو أن القاضي كوهين يشعر بأن رجال الشرطة يعتقدون بأن يدهم مطلقة في استعمال العنف. وهذا بدوره يسبب ويزيد في زيادة العنف الإجرامي وكثافته. ويقر رجال الشرطة أنفسهم باستعمالهم للقوة من أجل استخلاص المعلومات عندما تفشل الأساليب الأخرى، ولكن الخط الأساسي يقع بين الحصول على إفادات حقيقية وقصص ملفقة للتخلص من التعذيب ويبقى هذا الخط غامضاً.

توقعت مساعدة أكثر من القنصلية والسفارة الأمريكية. هل كانت مهماتهما دبلوماسية فقط؟ كيف يمكن لهما أن تكونا وديتين مع المحققين. بينما أحد رعاياهم مقبوض عليه لتهمة لم يرتكبها؟ أخبرتاني أن أتعاون مع الشرطة. هل تقصدان أن أوقع الإفادة المكتوبة

بلغة أجنبية؟ ألم يكن عليهما أن تفعلا شيئاً أكثر لمساعدتي؟ لم أعطيتاني قائمة بأسماء المحامين؟ أليس من الأكثر منطقية إعطاءها لوالدي ليتمكن من الاتصال بأحدهم؟ كيف كانتا تتوقعان مني الاتصال بمحامٍ والشرطة لا تسمح لي بمكالمة هاتفية واحدة؟ لم نصحتاني بأن أجيب على الأسئلة دون وجود مشورة قانونية؟ لماذا لم تهتما بالشكاوى التي عرضتها؟ كان الرئيس كارتر يقول إنه ضد ظلم الشعوب من قبل أنظمة غير إنسانية. أفليس عليه أن يعنى أكثر بحماية شعبه من مثل هذه الحكومات، أم أنه غير مدرك لطبيعة البيروقراطية الحقيقية التي ناضل معها لوقت طويل من أجل السلام؟ هل كان يخشى الشعب الأمريكي إذا ما اكتشف مع من كان الرئيس يقضي معظم وقته؟ ماذا سيكون تفكير الرأي العام الأمريكي بالسيد كارتر إذا ما علم بأن شعب إسرائيل لا يستفيد فعلاً من جميع المساعدات التي يرسلها له؟ هل يعرف السيد كارتر بأن البيروقراطية الإسرائيلية تصبح أكثر ثراء من المساعدات الأميركية بينما غالبية الشعب تزداد فقراً؟ إن كان السيد كارتر لا يعرف هذه الحقائق ألا يتوجب عليه معرفتها؟ لو أن السيد كارتر يعلم جميع هذه الحقائق لما سمح للبيروقراطية الإسرائيلية بالتصرف بالأموال لصالح قلة صغيرة بينما تعاني بقية الشعب من معدل التضخم (الإجرامي) في إسرائيل! لا بد وأن يُحاط الشعب الأمريكي علماً بكل هذا!.

لما رفضت التوقيع على مسودة قصتي وإفادتي قرر رجال الشرطة إرسالي إلى التوقيف حيث أبقى هناك حتى موعد جلسة الأحد، الأمر الذي يعني ليلتين في السجن. ألم يسمعوا عن الكفالة؟ اقتادني القصير (شورتي) مع زميله إلى الأسفل وأعادا وضع الأصفاد في يديّ ثم وضعاني في سيارة شرطة. وكانت ثمة فتاة إسرائيلية إلى جانبي في الحافلة الصغيرة، منزعجة جداً وانفجرت باكية أكثر من مرة، أخبرها زميل شورتي ألا تقلق وبأن كل شيء سيكون على ما يرام. حاول أن يهدئ من روعها ببرود. «ماذا سيحدث لي؟ لم أدخل السجن من قبل!» وقد تبين أن الفتاة كانت تسرق من المحال التجارية. الخطيئة التي ارتكبتها أنها كانت تسرق والشرطي قريب منها. أردت أن أقول شيئا لأهدئها ولكني لم أجرؤ على التكلم بالعبرية. وإلا سيعرف الشرطيان بأني كنت أستمع لمحادثتهما الخاصة حولي. أسفت للفتاة ولم أستطع أن أفعل شيئاً لتهدئتها، ثم بدأت أفكر بما سيحدث لي؟.

القصة كما روتها عائلة (كن) كانت إساءة، فقد ادعى السيد كن بأنه دخل شقته بينما كنت أقوم بعملية السطو. قال كان هناك رجل ملتف بملاءة ربط السيدة (كن) وأغلق فمها وكان يهددها بوضع سكين على رقبتها. وقد ميزني من صوتي حيث التقى بي عن طريق شقيق زوجته. وادعى (كن) بأني سألت عن النقود لكنني وبعد أن أشارت السيدة كن إلى وشم معسكر الاعتقال على ذراعها لنت وفككت قيدها. وبعدها ادعت عائلة (كن) بأني جلست في غرفة المعيشة وحادثتهم وأعدت لهم مبلغ ثلاثة آلاف ليرة من أصل الثلاثة آلاف وخمسمائة ليرة إسرائيلية التي كنت سرقتها. وقال (كن) بأني طلبت إليه عدم الاتصال بالشرطة ولكن بعد يومين قررت عائلة (كن) إعلام الشرطة للقبض علي.

إذا كانت السيدة (كن) موثوقة اليدين ومكممة فكيف تسنى لها لفت نظري إلى رقم معسكر الاعتقال الموشوم على يدها! كنت أعرف من قبل أنها كانت في معسكر اعتقال فكيف أثر ذلك علي إذا ما أردت السطو على منزلها؟ إذا كنت أنوي سرقة عائلة (كن)، وأعطتني السيدة (كن) ٣٥٠٠ ليرة إسرائيلية فلماذا أعدت لهم ٣٠٠٠ ليرة منها واحتفظت بـ ٥٠٠ فقط؟ لا بد وأن لدى السيد (كن) ذاكرة مذهلة ليستطيع معرفتي من صوتي وهو الذي التقى بي لمرة واحدة منذ شهرين! كيف يمكن أن تكون عائلة (كن) قد فكرت بضعة أيام قبل إعلام الشرطة وهي التي طلبت إلقاء القبض علي في اليوم التالي مباشرة ليوم ما يُسمى بمحاولة السطو؟ وكيف يمكن أن تُسمى محاولة سطو إذا ما أخذت معي ٥٠٠ ليرة؟. لماذا تكذب عائلة (كن)؟ هل لأني رفضت أن أرتشي وأتزوج ابنتهما؟ هل لأنهما كانا يخافان يوجين وآفي؟. لماذا لم يذكر السيد (كن) تورط شقيق زوجته في هذه العملية؟ لماذا لم يذكر أنني أُرسلت من أجل أموال السوق السوداء والذهب الذي يُفترض أنه يملكه؟ لماذ لم يقل إنه رماني خارج منزله وهو يهددني بمسدس؟ إذا كانت السيدة (كن) في المستشفى بسبب ما يُفترض أنني فعلته بها فلماذا لم تشر الصحف إلى ذلك؟ هل الشرطة فقط لفقت قصة وجودها في المستشفى؟ هل كانوا يحاولون إجباري على اعترافات كاذبة؟ هل خطة السطو على عائلة (كن) برمتها كانت عملية مدبرة لإيداعي السجن؟ من خلف الموضوع؟.

الفصل التاسع

غرفة الرعب

كانت الشوارع تمتد أمامنا خالية بينما شورتي يناور بسيارة الشرطة على طول الطريق. هل نحن في الطريق إلى وجهتنا أم أننا سنصبح رقماً جديداً يُضاف إلى إحصائية سوء قيادة السيارات في إسرائيل؟ دخلنا في شارع مألوف حاولت أن أتذكر متى سرت فيه. إنه الاتجاه الذي كنت آخذه في طريقي إلى حولون لرؤية بيلا. استدارت السيارة واندفعت نحو باب معدني ضخم. أخذ شورتي يطلق زمور السيارة لعدة مرات قبل أن يتلقى أخيراً الرد الذي ينتظره. ظهر رجلان ضخمان باللباس الرسمي وأزاحا الحاجز للحافلة الصغيرة لدخول المجمّع. درنا حول المبنى وتوقفنا أمام ما يشبه المدخل فأطلق السائق إشارة للتعريف مرة ثانية.

فُتح باب حديدي خرج منه ثلاثة حراس رافقونا إلى داخل البناء. بدت رفيقتي أكثر ذهولاً عندما أُغلق الباب المعدني وراءنا. امتد صفان من المقاعد على طول جداريّ بهو البناء جلس عليها بعض الضيوف بانتظار دورهم ليتلقوا تعليمات إقامتهم، وكان ضابط في كوة طويلة مغلقة يعنى بتدابير المقيمين الجدد. كانت الساعة السابعة بعد الظهر كما تشير الساعة على الجدار وكلما انتهى واحد من الإجراءات الروتينية لدى ذلك الضابط يؤخذ عبر سلسلة من الأبواب ذات المزاليج إلى يمين المقعد الرئيسي. بعد أن وصلت الفتاة التي كانت معي وانتهت

معاملتها أُخذت عبر باب عن يسار المقعد، كان بوسعي سماع صدى بكائها في الممرات يخف درجة درجة.

مضت خمس وأربعون دقيقة قبل أن يأتي دوري عند الضابط. «أنت من الولايات المتحدة؟ هل تتكلم العبرية؟» «لا، أتكلم الإنكليزية فقط» فك أصفادي وسأل عن ممتلكاتي وبعد أن وقعت إيصالاً أعطاني نسخة منه. «هل لي بتناول بعض الطعام؟ فأنا لم آكل أي شيء طوال النهار». «الوقت متأخر الآن، والمطبخ مغلق، إنما ستأكل غداً». تذكرت ما قُدم لي في نتانيا وقلت لنفسي لم أخسر الكثير. تساءلت هل سيكون الحارس أكثر تعاطفاً لو عرف أنني لم أتناول شيئاً على مدى ثلاثة أيام. ولكنني لست بحاجة لتعاطفه، كل ما أريده هو أن أخرج من هذه الورطة اللعينة. وأخيراً انتهى الاستجواب. كان الشرطيان مزعوجين جداً لأني لم أستسلم لطلباتهما في توقيع الإفادة. كنت مصمماً على ألا يُغرر بي باعترافات بأشياء لم أفعلها. فإذا كان الشرطيان قد كتبا كلماتي بتمامها، إذن لماذا لا يعيدان صياغة النص بالإنكليزية. ما من شيء يفعلانه كان سيجعلني أوقع على الورقة!.

قادني حارسان ضخمان في متاهة من الأبواب المعدنية، مسافة ثلاثة أدراج للأعلى يعقب كل واحد منها باب ذو مزلاج وأخيراً وصلنا إلى مخدعي المؤقت. كان يوجد سرير واحد بجانب الجدار قرب الباب وخمس أسرة أخرى مفردة منتشرة على أرض المهجع.. ومكان قذر كمبولة ومغسلة مقابل صف الأسرة. كان شخص يشغل أحد الأسرة في نهاية المهجع. غادر مرافقاي الزنزانة وأغلقا الباب خلفهما. كان في الغرفة أكثر من نزيل واحد بعضهم من ذوي الستة أرجل والبعض أكثر. كانوا يتصرفون بكامل راحتهم بالطبع، يتمشون على الجدران، على الأرض والأسرة. بعد أن أزلت معظم البقايا المتناثرة من المراتب التي أكلها العث ألقيت بجسدي المتعب على السطح المزري وأخذني النوم بعيداً عن كل ذلك المحيط.

عكر إغفاءتي ضجة مفاجئة حول سريري، كانت الغرفة مظلمة إلا من بعض الضوء المنبعث من الباب المعدني. حاولت أن أحرر عيني من آثار النوم فاستطعت رؤية خمسة أشخاص ضخمين يقفون حول سريري. «روستون، استيقظ!» واجتمع الجوع وعدم الأكل لمدة ثلاثة أيام مع القليل من الراحة عندي ليجعلاني أشعر بدوار شديد. «ماذا تريدون؟»

وضع أحدهم الضوء في عيني وهو يعميني جزئياً بينما صوت يقول: «هل أنت على استعداد لتوقيع إفادتك؟». «أخبرت الشرطة بأني سأوقعها بعد أن يعيدوا كتابتها بالإنكليزية ويمنحوني فرصة التأكد من دقتها». «إذن أنت ترفض أن توقع؟» قال الصوت بعدها بالعبرية: «أمسكه ريثما أعطيه الحقنة»، وقبل أن أُعطى فرصة لأرد أمسكت قبضات قوية بيديّ وقدميّ، حاولت مقاومتهم ولكن ثقل أجسادهم سمر أطرافي. «دعوني أيها الإسرائيليون الأوغاد! لن أوقع! ليساعدني الله! أرجوكم، ألن يساعدني أحد؟» كنت أصرخ بكل ما أوتيت من قوة ومن نفس. امتدت يد لتغطي فمي فعضضتها فحشوا فمي بالورق ليسكتوني، وأحسست بالرعب يسيطر علي عندما اخترقت إبرة ساعدي الأيمن «سيكون أكثر تعاوناً خلال دقيقة». لم تراهم حقنوني؟ كان ذلك أشبه بفيلم قديم عن ألمانيا النازية أو فيلم عن الجاسوسية وأنا أقول لنفسي هل يعقل أن يحدث هذا فعلاً؟ لا يمكن أن يكون هذا حقيقياً!.

عندما بدأ تأثير العقار علي أحسست وكأنني أطفو ولم يعد تصرفي ليؤثر فيهم، وعندما وجد الحراس أني لم أعد قادراً على مقاومتهم تركوا يديّ وقدميّ علّي أن أبقى قادراً على التحرك، فكرت لنفسي، لن أدعهم يتغلبون علي إذا ما وقعت تلك الورقة من يعرف ما سيحل بي؟ عليّ أن أقاوم لا يمكنني أن أستسلم! إنني أمريكي، إنني أقوى منهم وأذكى منهم، لن أدع شعباً متخلفاً ينتصر علي! علي أن أتماسك، ضممت قبضتي يديّ بالقليل من القوة التي بقيت لدي محاولاً أن أبقي تأثير العقار في الحد الأدنى.

أجلسني الرجال ووضعوا قلماً في يدي وحاولوا أن يجعلوني أوقع. كان نظري مضطرباً قليلاً منعني من قراءة الورقة. لمع ضوء على البقعة التي يريدون أن أكتب عليها. «وقع اسمك هنا» حاولت يد أن تقود القلم الذي أمسكه ولكني قاومت. كنت لا أفتأ أملأ رأسي بأفكار الوطن آملاً أن أمسح هؤلاء الرجال من الوجود. كنت أرى في مخيلتي مبنى الامبايرستيت، وتمثال الحرية، وضريح لينكولن، وصرح واشنطن وجميع الرموز، رموز أمريكا أرض الأحرار ووطن الشجعان! شعرت بنفسي أبدأ بالبكاء.

«إنني أمريكي وأرغب في العودة لوطني! إنني أمريكي وأود العودة إلى وطني!» كانت هذه الكلمات تتكرر في ذهني. وفي كل مرة كنت أكاد أستسلم للعقار ولهؤلاء الذين يقومون

بتعذيبي كنت أعود لأفكار الوطن. «وقع! وقع! وقع! وقع!» كان الرجال الأربع يحثونني يهزونني، ويصفعوني على وجهي ويجبرونني على فتح عيوني. ولكنني لم أخضع لطلباتهم. كنت أصلي لله من أجل إنقاذي لقد أعطاني القوة أن أمضي تلك الليلة، وفي كل مرة حاول هؤلاء الرجال كسر مقاومتي كان الله يمنحني الشجاعة. كما وقف إلى جانب دانيال في عرين الأسد هكذا كان معي في ساعة الشدة. كنت يهودياً في أرض الميعاد يعذبني من يسمون أنفسهم يهوداً إسرائيليين. كنت أعلم أن الله يرى ما يفعلون ولن يتخلى عني. كيف يمكن لحكومة بلد تقبل مال وصداقة ومساعدة الولايات المتحدة من أجل السلام بأن يتعرض أمريكي أو أي شخص آخر لمثل هذه المعاملة؟.

لقد نشرت الصحف تقارير وطلبات إلى المحامي العام بشأن البدء بإجراء تحقيق حول إثبات أو نفي الاتهامات الموجهة للشرطة حول وحشيتها وراء جدران السجن. لم يقر المحامي العام أياً من الشكاوي الرسمية التي قدمها دانيال كلاس رئيس اللجنة القانونية في الكنيست.

كانت هناك مذكرة بشأن تشريع يقضي بجعل المعلومات الواردة في ضبوط مراكز الشرطة قانونية في المحاكم. ما هذا السخف! نعم لن يخاف الشهود من ضغوط خارجية لسحب اتهاماتهم ضد المجرمين والجانب الآخر كان أن تطلق الشرطة يدها في الأساليب التي سيجمعون بها هذه المعلومات المسموح بها في المحكمة.

لم يكن لدي أي فكرة متى تركني أولئك الذين يعذبونني، كانوا يضربونني من كل الجهات ولكني لم أستسلم وأحسست أنهم سيجعلونني شغلهم الشاغل إلى الأبد. متى سننتهي من ذلك كنت أتساءل! هل لدي من قوة الإرادة ما يكفي لمقاومتهم؟ وماذا ستكون البدائل؟ لا أريد أن أُودع السجن لجريمة لم أقترفها! لم يكن أمامي سوى خيارين أن أقاوم وأعيش أو أستسلم وأنتهي. علي أن أفكر بوالديّ. إذا ما وقعت على الاعترافات وذهبت إلى السجن فماذا سيكون نفع ذلك لوالديّ؟ لن أسمح بأن يُسحبا معي إلى السجن لذا يجب أن أُقاوم. وما إن تركوني وحيداً حتى غرقت ثانية في نوم عميق.

استيقظت وأنا أتصبب عرقاً. لا يمكن أن أُجبر على الاعترافات ثانية. فالثمن غال جداً، حياتي وسلامة والديّ العقلية، مهما فعلوا بي علي أن أقاوم الاستسلام. يا الله أعطني

القوة لأتحمل التجربة القادمة. كنت أعلم أن هؤلاء الرجال سيعودون عاجلاً أم آجلاً. كنت أصلي إلى الله. لا أخاف الشر، رغم أني أمشي في ظل وادي الموت، كان جسمي لا يزال متأثراً بكل ما فعلوه بي ولم أكن قادراً على النهوض من الفراش، كان فمي جافاً كصحراء. لو أن باستطاعتي الوصول إلى حوض من أجل قليل من الماء لربما كان رأسي يصحو ولكن أفكاري كانت أقوى من جسدي. حيث لم تتوفر لدي القوة الكافية كي أرفع رأسي من على الفراش.

إنها حقيقة معروفة، أي إنسان موقوف في السجن ويعيش يومياً مع التعذيب والتهديد سيعترف أخيراً بالطريقة التي يرغبها معتقلوه ببساطة كي يتخلص من الخوف والألم، كانت الشرطة تتجاهل دائماً طلبات رجال مثل حاييم كوهين رئيس المحكمة العليا بشأن تقويم تصرفاتهم. عوضاً عن ذلك كانوا يصرخون بوجه العدالة محتجين بأن القوانين غير متجانسة، وأن المحامين يقيمون وزناً للمال أكثر من العدالة. وأن القضاة متقاعسون. كانوا يجدون العذر تلو العذر ليضعوا اللوم على الآخرين في محاولة لتغطية وحشيتهم.

الخطوة التالية للشرطة وهي تستعمل أساليب تحقيق مجهدة بشكل مبالغ فيه هي بالطبع استعمال التعذيب للحصول على الاعترافات من المواطنين من أجل رفع سمعة الشرطة نفسها. لا شك أن الاختيار التعسفي للضحايا من أجل إرضاء أمزجة رجال الشرطة لا بد آت.

إن المتنفذين في الشرطة يستميتون للحفاظ على حريتهم. وللآن لم تشكل هيئة محايدة للشرطة. إن استمرار مثل هذه الاستقلالية يعني لي أنه ما من أحد في النظام السياسي معني فعلاً بإمكانية قيام دولة جستابو في إسرائيل.

نقلني صوت ارتطام المعدن إلى حالة من الوعي المترنح. ونفذت أشعة الشمس من ثقوب النافذة تزيح العتمة من الزنزانة فاستطعت أن أرى الأشخاص الذين كانوا يحيطون بفراشي. هم الآن أربعة فقط أقل بواحد عما كانوا عليه ليلة أمس. كانوا جميعاً من الحراس يرتدون الزي الخاكي وكانوا ضخمين. «هل أنت مستعد لأن توقع» سأل رأس يحدق بي. وددت لو أبصق في وجهه ولكن لم يبق في فمي شيء. «لتذهبوا جميعاً إلى الجحيم» كان

جسمي خدراً عديم المقاومة لأي هجوم آخر، وبينما الحراس ممسكون بأطرافي كان لدي إحساس بأنني في قبضة قوة لا تقاوم، ورغم أني حاولت ولكن كنت أعلم أن ذلك دون جدوى وهيأت نفسي للأمر المحتم.

وفي محاولة مني لإحباط ما سيأتي. رفعت معنوياتي وأنا أحس بالإبرة تخترق جلد يدي اليسرى. لماذا غيروا اليد؟ ربما لم يريدوا لعلامات الوخز أن تظهر بوضوح. أحسست برأسي خفيفاً جداً ويخف أكثر وأكثر بينما المادة الكيميائية تفعل فعلها. تملكني شعور بانعدام الوزن والخفة. ركزت على تذكر عندما كنت أتزلج في فيرمونت. إن الانزلاق على السطح الأملس اللامتناهي لا يضاهيه شيء على الاطلاق. كنت وكأني أقهر قوة الجاذبية كنت أناضل من أجل تجنب حقيقة وضعي، وأنا أغلق عقلي عما كان يجري لي. تجاهلت وجود الرجال الأربعة وساعدني العقار على أن أتحمل التعذيب الجسدي الذي كانوا يمارسونه علي لإرغامي على توقيع الإفادة. وطالما كنت لا أحس بالألم كنت أستطيع التركيز على رؤية حقول الثلج البكر وأتزلج على الغطاء الأبيض النقي المستلقي فوق الأشياء وأتحرك فوقه، بحركة هادئة.

رفضت أن أعترف بوجودهم رغم إلحاحهم واسترخت آلية دفاعي حين سمعت إغلاق الباب المعدني، فتحت عيني فشعرت بارتياح عندما تبينت عدم وجودهم. لقد ذهبوا. هل سيعودون؟ ورغم أني صليت لله أن تكون هذه المرة الأخيرة، فقد كنت أعرف بأن غطرستهم لن تسمح لهم بتركي. شكرت الله لأنه لم يتركني وطلبت منه أن يكون معيني عبر الرعب الآتي. كانت درجة حرارة المهجع الذي أنام فيه أصبحت غير محتملة، ونظراً للحالة التي كنت فيها شعرت متأكداً بأني سأصاب بالتجفاف إذا لم أشرب شيئاً. وبما أن تأثير العقار تلاشى فقد أصبح باستطاعتي التحكم بأطرافي فلملمت ما تبقى لي من حيوية حتى تمكنت من الجلوس على جانب الفراش. كان رأسي ما يزال يدور فارتحت مستجمعاً قواي ومحاولاً الوقوف ولكن ساقاي التوتا تحتي لأسقط على ركبتي. يجب أن أتناول بعض الماء. فزحفت على قوائمي الأربع نحو الحوض في نهاية الغرفة. شعرت شعور من جفت شفتاه في حر الصحراء وارتجفت عضلاتي عندما حاولت أن أرفع نفسي كي أشرب من الصنبور. كنت مثل الاسفنجة أمتص الرطوبة في كل خلية من جسمي، ثم تغلب الشعور بالدوار على غيره،

وسقطت أرضاً على السطح القاسي. وبقيت مستلقياً على الأرض والغرفة تدور وتدور ولم أستطع مقاومة الإحساس بالسقوط من على أرض الغرفة وكأنني أتهاوى بتسارع عجيب في هوة ليس لها قرار. لم أستطع أن أتحرك. ولكن يبدو أن رأسي كان يدور أسرع فأسرع، لم أكن لأستطيع تحمل ذلك فبقيت مستلقياً كما أنا. «استيقظ أيها الأمريكي ــ اللعين». أعادني الألم إلى وعيي ثانية بعد أن رفسني الحارس بقدمه في خاصرتي عدة مرات. ربما ليرى إذا كنت مازلت حياً. دخل حارس آخر الزنزانة وبدأ يدوس على أصابعي. صحت بأعلى صوتي «النجدة» «هل تطلب النجدة؟ هل هذا ما تريده؟ سنعطيك ما تطلب». وقف الحارس الذي كان يرفسني بكل ثقله على قفصي الصدري. «والآن أليس هكذا أفضل؟» وانفجرا يضحكان برنة سادية. كنت أتنفس بصعوبة وعرفت بأن أضلاعي ستتخرب إذا ما استمر ذلك الحيوان بالوقوف لوقت أطول. ولأحمي نفسي بدأت أتنفس بأكبر سرعة ممكنة، وعندها بدأت أحس بالخدر بكافة أنحاء جسمي وما إن رآني الحارس في حالة اختلاج حتى أزاح ثقله عن صدري. ثم حملني الاثنان من أطرافي إلى خارج الزنزانة ووضعاني في الردهة وأنا مازلت متحشرجاً أريد هواء.

الأوكسجين الذي دفعت به عنوة إلى دماغي وضعني على حافة اللاوعي. ولم يعد يعرف الحراس ما سيفعلون فبدأ أحدهم يصيح بالعبرية، «أحضروا الطبيب» حاولت أن أهدئ نفسي واستطعت تدريجياً السيطرة على تنفسي ثم تماوتُّ وأنا مستلق أرضاً بحالة سكون مطلق.

بدأ أحد الموتورين يلكزني في معدتي بعصا بينما آخر يقرصني من ذراعي وثالث التقط قدمي ورفعها ثم تركها تهوي ليرى إن كنت قد متُّ فعلاً. وبرغم كل ما فعلوا وبعون الله استطعت أن أبقى دون حراك. وأخيراً أخذ أحدهم سطل ماء وبسعادة بدت في ضحكته صبه على وجهي فكان رد فعلي الأنين. «لقد تحسس خذوه إلى زنزانته». أمسك الحراس بأطرافي يجرونني إلى المهجع ورموا بي على الفراش وتركوني بعد أن أغلقوا البوابة الثقيلة خلفهم.

مثل هذه المعاملة على أيدي الشرطة تسببت لاحقاً باحتجاجات شديدة إذ اجتمع مئة

من المستشارين الشباب يطالبون بالافراج عن بنيامين شيتيت عمره سبعة عشر عاماً، ويطالبون بتشكيل اللجان لتنظر في الاتهامات بوحشية الشرطة.

أُلقي القبض على شيتيت بتهمة السرقة وبقي أيضاً دون طعام قيد الاستجواب لوقت طويل دون فواصل للنوم. وادعى أنهم آذوه جسدياً حتى هرب بالقفز من الطابق الثالث بتشجيع من حارسيه. الأمر الذي تسبب بكسر عدة عظام وتخريب أمعائه إثر السقطة.

وبعد ستة أيام من وجوده في المستشفى أُعيد إلى السجن. ولم يُطلق سراحه إلا بعد إلحاح من شاباني أميدي والمستشارين الشباب، ورغم وجود دليل قوي ضد شيتيت في منزله واعترافه شخصياً بعد اعتراف المتواطئين معه الاثنين بعد ذلك. فإن المشكلة ليست بالجريمة نفسها ولكن بالمتعة السادية لدى الشرطة في إقامة التهمة.

ليلة السبت كانت الليلة الرابعة لامتناعي عن الطعام. لم أقض أبداً مثل هذه الفترة دون طعام، لذا لم أكن أعرف نوع رد الفعل. كان قد انتهى تأثير العقار عند المساء وتركني في حالة من الوهن. زحف الظلام إلى الغرفة فأوجد لدي توجساً من حدوث شيء ليس بسار. كان المفروض أن تكون الجلسة في صباح اليوم التالي، الأمر الذي لم يدع للحراس وقتاً كافياً لاستخلاص توقيع مني. لو أني أصمد أمام ما يخبئونه لي، فربما أستطيع أن أعيش. لا أستطيع أن أستمر فقط بالمحاولة، علي أن أنجح! لن يكون هناك محاولات ثانية إذا ما فشلت. إن مسألة صيامي ولو أنها تستنفذ طاقتي يمكن أن تكون لصالحي. الشرطة، والله يعلم مَنْ غيرُها تريدني أن أنتهي حيث لا أستطيع أن أتكلم. كنت مازلت غير متأكد لم يرغبون بصمتي؟ ولكن كان واضحاً أنهم يرغبون بذلك حيث كانوا يحاولون الحصول على اعتراف مني لجريمة لم ارتكبها. إذا ما استطعت المحافظة على القليل من القوة المتبقية لدي لربما يمكنني التظاهر بالانهيار الجسدي، وطالما بدأت بذلك لن يمكنني التراجع. وإذا ما فشلت المحاولة فستكون النتائج لا تُطاق.

جاؤوا مثل شياطين الظلام المتربصة بفريسة بريئة تاهت في ميدانهم الماكر. لف جسدي عرق بارد وأنا أستعد لأسوأ ما لديهم، لتساعدني يا الله كي أتحمل ما سيحدث لي، بدأت السير في غيبوبتي. روستون! هل أنت مستعد للتوقيع؟ لم أجب على السؤال. لم أكن

راغباً في أن أقطع تركيزي. سمروني على الفراش ولكني لم أشعر بأي إبرة. ألم حاد في معدتي جعلني أتلوى لم أستطع أن أتحرك ولكن ضربة قوية أخرى على بطني قهرت دفاعات فكري ليساعدني الإله انطلق صراخي في الليل وتلاشى. «لن يساعدك أحد، ويقول آفي من الأفضل لك أن توقع على الاعتراف وإلا سيعجنني بوالديك غداً». لقد استطاع الرجل الوصول حتى إلى الشرطة! إن فرصتي للحياة تكمن في أن أكون أكثر منه ذكاء إذا ما وقعت على الورقة لن تساوي حياتي لعنة! يريد آفي أن يخرسني! آمل أن يحاول إيجاد طريقة في خداع والديّ في ذلك الحين فذلك سيفتح باب تحقيقات أكبر. كنت أصرخ بهذيان آملاً في أن يقتنع الذين يقومون بتعذيبي بأنهم قد دفعوا بي عبر الحافة. والألم الذي يسببونه لي أصبح غير محتمل. وعندما كانوا يتحدثون معي كنت أجيب فقط ساعدوني، النجدة!... كان علي أن أمنع أي جواب آخر. استجمعت قواي أكثر من مرة وتصرفت وكأنه قد أغمي علي. في أول مرة فشلت. فقد رماني أحدهم بالماء. بقيت ساكتاً بقدر الإمكان ولكن واحداً من هؤلاء الحيوانات أمسك بحلمتي وبدأ بفتلها. صمدت كل ما باستطاعتي ولكني لم أستطع أن أحبس الألم. تابعت تجاهلي لطلباتهم وتابعوا معالجتهم المؤذية لي وبينما كان أربعة منهم يثبتونني كان الخامس يشد الشعر من على جسدي. تقوس جسدي وتلوى من الألم بينما هم يتلذذون برؤيتي أعاني وأتلوى وفي كل مرة كنت أتماوت يأتي واحد منهم ويفتل حلمتي صدري ثانية.

فقط عندما شعرت بأني لم أعد أتحمل تعذيباً أكثر، فكرت أن أفعل ما يريدونه، الله نجاني من الشر. ربما حاولوا أن ينعشوني، ولكن لم يؤثر فيَّ البرد. أتذكر أني أطلقت صرخة متعبة قبل أن يصبح كل شيء أسود. إنه يسمعني عندما أحتاجه أكثر من كل العالم! كنت أتمنى فقط لو أنه أبعدني عن هذا الكابوس التالي. حلمت أني كنت أتعذب في غرفة التعذيب من الوجوه التي رأيتها كانت وجوه آفي، يوجين، السيد كن واليعازر وخمسة أشخاص بالزي الرسمي يضعون خوذاً على رؤوسهم تضحك علي، وكلما كنت أزداد صراخاً كانوا يزدادون ضحكاً. على الأقل استطعت الهروب من الكابوس باليقظة، إن التحرر من الرعب الحقيقي الذي مررت به لن يكون سهلاً.

قام رجال الشرطة بمحاولات ضعيفة لتبرير أنفسهم وتبرئة ساحتهم. قال رئيس لجنة

شكاوى الشرطة تات بينزاف إسحاق زيف ايل أن من بين الشكاوى الثلاثة آلاف التي تلقتها اللجنة في العام الماضي، ألف شكوى منها، وجدت قانونية، منها ثلاثمائة تتعلق بفرط العنف. استعمل الرئيس هذه الحقائق ليظهر بأن النظام الحالي يكفي لإدانة الشرطة، قال إنه يوجد فرعان معنيان بالتحقيق في كل شكوى والاثنان ضليعان كفؤان.

جميع الحالات التي تتطلب قراراً حول وجوب مقاضاة رجل الشرطة كانت تحول إلى المحامي العام! والحالات التي تعرض عليه كانت تختفي لأكثر من نصف سنة في مستنقع الروتين.

أمضيت بقية ليلة يوم السبت وصباح الأحد بدون حراك خشية أن يعودوا ويسوموني العذاب. لم أفتح عيني، مخافة أن يكون أحد الحراس مازال في الزنزانة يراقبني وينتظر أن أستيقظ. كان كل ما في جسمي يؤلمني. خاصة صدري بسبب فتل حلمتي. كان الجفاف يملأ فمي. أحسست وكأنه محشو بالقطن وفيه جفاف الصحارى. من بحق الشيطان كان آفي؟ لم كانت المافيا تريد أن تلفق لي جريمة؟ ما لم تكن جهة ما قد دفعت لها؟ كنت أعلم أن ليوجين واليزابيت وعائلة كن علاقة بالموضوع. ولكن من الذي بهذه القوة ليجعل الشرطة تعمل لصالحه؟.

سمعت صوت باب الزنزانة المعدني يُفتح. ما عساهم سيفعلون الآن؟ تساءلت! يد امتدت وهزت جسدي الرخو. روستون إنه وقت المحاكمة، لم أدع المتكلم يشعر بأني أحسست بمحاولته إيقاظي. «استيقظ روستون» صفعني على وجهي عدة مرات وأخيراً بدأ ينوح ويدور حول الفراش. قال الحارس بإلحاح «انهض» أمسك بذراعي الأيسر وسحبني من على الفراش. تظاهرت وكأن قدميَّ لا تحملاني وسقطت ببطء على ركبتي. أمسكني تحت الإبط وحملني على كتفيه حتى استقمت على قدمي، وأرخيت بمعظم ثقلي عليه بينما هو يجعلني أمشي. بدوت كمن تناول جرعة كبيرة من دواء منوم ولا يجد قدميه. عندما وصلنا إلى الدرج تمسكت بالاطار الحديدي وأنا أسير ببطء القوقعة. كان الحراس يحاولون أن يدفعوني كي أسرع ولكن رد فعلي كان أن أفقد توازني وأسقط على ركبتي وكلما حاولوا دفعي للاسراع كنت أتباطأ أكثر.

وعندما قطعنا الأدراج الثلاثة نزولاً، تمسكت بالحارس ثانية وبدوت وكأني أتمسك به من أجل حياتي الغالية. وعندما وصلنا إلى مكان الاستجواب وجدت أن شورتي ومعاونه ينتظران ليأخذاني إلى المحكمة. كانا بنصف حجم حراس السجن. ولذا كان على الاثنين التعاون لأخذي إلى السيارة. ودهشت عندما كبلا يديّ من الأمام. وبدأ شورتي يضرب بعدّاد السرعة في السيارة الرقم القياسي مرة ثانية رافضاً أن تسبقه أي من السيارات. ترى هل سيكون أبي في المحكمة؟ هل سيكون هناك محام يدافع عني؟ ما فتئت الأسئلة تلتمع في مخيلتي. «علينا أن نأخذه إلى المستشفى قبل الجلسة حيث يمكن للأطباء الكشف عن حالته». ما قاله شورتي لمساعده أدهشني. كانوا خائفين أن يرى أحد كيف كنت أبدو. كنت لم أتناول طعاماً لمدة خمسة أيام ولم أحلق أو أغتسل لمدة ثلاثة أيام. كانت ثيابي متسخة وشعري أشعث. هل ستهتم المحكمة بسماع كيف كنت أُعامل على مدى الأيام التي مضت؟ وماذا كانت النتيجة النهائية للاعتراف الذي أرادوا مني أن أوقعه؟ من بالحقيقة كان يخطط لأن يلبس تهمة ونجح في ذلك. لا بد وأن عائلة (كن) قد كذبت في رواية ما حدث ولذا أُلقي القبض علي.

استدار شورتي في موقف للسيارات ومن ثم ساعدني ورفيقه للنزول من السيارة ودخول جناح الاسعاف في المستشفى. أخذت إلى غرفة فحص واسعة مقسمة إلى أقسام رفعوني على طاولة وفكوا وثاقي، ترك شورتي الغرفة بينما بقي مساعده معي. بعد بضع دقائق عاد الشرطي بصحبة طبيب وممرضة. فحص الطبيب العلامات الحيوية لدي ثم استدار نحوي وقال «هل تتكلم العبرية؟» «أتكلم الإنكليزية» «لم أنت في هذه الحالة السيئة؟» «لقد زرقوني بعقار وضربوني في السجن. هل يمكنك مساعدتي؟» «متى كانت آخر مرة أكلت فيها؟» لم يكن الطبيب مهتماً بالتعذيب الذي تعرضت له في السجن. «لم أتناول أي شيء منذ خمسة أيام». فتح الطبيب عينيه وطلب من الممرضة بالعبرية أن تحضر لي شيئاً أتناوله اضطجعت على الطاولة وحاولت أن أبدو بأسوأ حالة من المرض.

عادت الممرضة تحمل بيدها شيئاً مغطى بفوطة. كشفت الممرضة الصحن عن سندويشة بيض مسلوق. قال الطبيب أن آكل السندويشة بأكملها. نظراً لأني لم أذق الطعام منذ خمسة أيام أحسست أن عليهم أن يهتموا بي أكثر من ذلك وأن يعطوني أكثر من

سندويشة تافهة. لم يكن الطعام سيئاً ولم تكن لدي نية الانقياد بسهولة. بدأت أمضغ طرف السندويشة أطحنها بفمي قدر المستطاع. كان من الصعب علي بلل اللقمة حيث لم يكن في فمي لعاب ولكن بذلت أفضل ما عندي. بدأت وأنا أطحن الطعام بنظام الإقياء، تظاهرت بأن معدتي تتمخض، وضعت يدي على فمي وبدأت أختلج ثم ألقيت بمحتوياته على الأرض وأنا أطلق أصوات الألم.

نظر الشرطيان إلى ساعاتيهما لمرات عديدة ثم أعلنا بأن عليهما اصطحابي إلى المحكمة. أخبرهما الطبيب بالعبرية بأن وضعي يبدو سيئاً وقد أحتاج لدخول مستشفى. وأخيراً استطعت إقناع أحدهم بأني لم أكن على مايرام. أعادني مرافقاي إلى السيارة وأسرعا بي إلى المحكمة. تابعت تمثيلي وهما يجراني على طول درج البناء الكبير. كان الكثير من الرجال يقفون وأيديهم مغلولة بالأصفاد، ينتظرون جلساتهم. وضعني شورتي على مقعد أمامه طاولة حيث ارتخيت ووضعت رأسي. كنت أسترق النظر من بين فرجة أصابعي أجول بنظري أبحث عن والدي، لم يكن قد وصل بعد.

بعد انتظار حوالي نصف ساعة. أُخرج جميع السجناء بخشونة خارج الغرفة، كنت الموقوف الوحيد الذي بقي وحالما أُخلي المكان وصل القاضي. أوقفوني وبينما كانت التهم الموجهة ضدي تُقرأ كنت أقول متأوهاً «أين محاميَّ؟» استمرت الجلسة دون الاستجابة لطلبي. كان بإمكاني الوقوف لوحدي لكنني لم أرغب في أن يعرف أحد ما مدى القوة التي مازلت أمتلكها. ثم تُليت المذكرة التي تقدم بها السيد (كن) إلى الشرطة بالعبرية، فعرفت فوراً أنه كذب والكلمات التي تُليت حُفرت في ذاكرتي.

قال السيد (كن) إنه في يوم الخميس الثالث والعشرين من آب عام ١٩٧٩ بعد عودته من العمل إلى البيت سمع أصواتاً غريبة تنبعث من غرفة نومه. عندما دخل الغرفة وجد زوجته مقيدة إلى كرسي بينما رجل يلتحف ملاءة ويضع قناعاً يمسك بسكين عند عنق زوجته. طلب المشبوه من كن أن يعطيه نقوداً وإلا حزّ عنق السيدة (كن). قال (كن) إنه قدم للمشبوه ٣٫٥٠٠ ليرة إسرائيلية كل ما في محفظة نقوده. ثم قال إنه رجا المشبوه أن يفرج عن زوجته ويغادر المكان بسلام. ثم أضاف أن زوجته لفتت نظر المشبوه إلى الرقم الموشوم

على ساعدها والذي يشير إلى أنها كانت في معسكر اعتقال. قال (كن) إن الرجل بدا أقل عدوانية ووافق على الإفراج عن زوجته. تابع (كن) إنهم ذهبوا إلى غرفة جلوسهم حيث اكتشف هوية المشبوه. قال إنه غيّر صوته ولم يستغرب عندما كشف الرجل قناعه وكان أنا سكوت روستون الذي قال (كن) إنه اجتمع به منذ أيام بواسطة شقيق زوجته. قال كن إني أخبرته بجميع مشاكلي ولكنه لم يذكر أي شيء عن آفي أو يوجين ولم يقل إني أرسلت لأسرق ثروته التي جمعها من السوق السوداء، قال إنه أقنعني بأن أغادر واحتفظ بجميع الأشياء التي استعملتها لأدخل إلى شقته ثم قال إنه بعد تفكير طويل قرر أن يبلغ الشرطة.

بعد ذلك تُليت إفادة السيدة (كن) قالت إنه في ذلك اليوم دخل رجل يلتحف بملاءة ويضع قناعاً شقتها عنوة ودفع بها إلى الحائط مهدداً بسكين ثم جعلها تجلس على كرسي حيث قيدها وكممها ثم ضربها بهراوة على رأسها عدة مرات. ثم قالت السيدة كن إن المشبوه سحبها وهي فوق الكرسي إلى غرفة نومها حيث انتظر إلى أن أتى زوجها. وبعد أن أدخل زوجها البيت كانت الشهادة مماثلة لشهادة زوجها تماماً.

الشي التالي الذي قُرئ كان اعترافي المزيف. كنت جالساً هناك ونظرة بلهاء على وجهي وهم يقرؤون الإفادة الكاذبة كانت تكاد تكون نفس شهادات عائلة (كن) حيث أعترف فيها بمهاجمة وتهديد السيدة (كن) وأعترف أيضاً بأني أخذت نقوداً من السيد (كن). قالت المحكمة إن الإفادة كانت اعترافاً موقعاً. لم أكن لأدعهم يعرفون بأني فهمت كل شيء مما قرئ. وكنت أعرف أني لم أوقع أية اعترافات البتة وبالتالي كان التوقيع على الوثيقة محض تزوير. لم يسجل رجال الشرطة إفادتي ولكنهم بدلوها بإفادة كاذبة كما قلت أنه حدث تماماً كما توقعت خلال الاستجواب في مركز شرطة تل أبيب.

وما إن انتهوا من قراءة الإفادات حتى سألني القاضي ما إذا كنت أعترف بأني مذنب. لماذا يهتم بسؤالي مادام لديه ما يُسمى بالاعتراف؟ إنهم يعرفون أني لا أفهم العبرية وبالتالي كيف بحق الشيطان يتوقعون مني أن أفهم ما أنا متهم به؟ ما فتئت أسأل عن محاميّ وسألني القاضي مرة ثانية عن طلبي. ومرة ثانية تجاهلت الطلب وعند ذلك قرر القاضي بأنه لا يوجد شيء جديد للمناقشة وهناك أدلة كافية تسوغ المحاكمة. بعد أن انتهت جميع الإجراءات جاء

رجل أصلع وقال لي : أنا محاميك ، اسمي كابي بنيامين . تذكر الاسم كابي بنيامين وسار دون أي كلمة .

أعادوني إلى السجن ثانية حيث سقط جسدي في نوم عميق. حرارة بعد الظهر جعلت من الصعب علي أن أبقى نائماً وأجبرتني على الاستيقاظ . لم أستطع التوقف عن القلق عن مكان والدي لأني أعلم أنه سيحضر الجلسة إذا ما كان ذلك ضمن القدرة البشرية . فهو إما ضلل عن مكاني في المحكمة أو إن مجرد اعتبار هذه الامكانية يرعبني ، إن آفي لم يكن يخاتل في مسألة التخلص من والدي . ماذا سيحدث لي ولدى المحكمة الآن وثيقة موقعة من قبل ، من المفترض أني أعترف بها بالجريمة . هل المديرون يريدونني جاهزاً للشهادة في المحاكمة؟ كان من الصعب تجاهل ما يمكن أن يجلب ذلك إلى خاطر المرء إن صح ذلك .

أصبحت الحاجة لصياغة وسيلة دفاع عن النفس واضحة . كنت أعلم ، بعد الطريقة التي عولجت بها الأمور في الجلسة ، أنه ما من مجال لمحاكمة عادلة . ولن أثق بأي شكل بمحامٍ سمته المحكمة . وسيكون صعباً الخروج من موقف سأواجه فيه بلا شك محكمة منحازة . من الطريقة التي كانت تبدو بها الأمور عرفت أنهم سيجدونني مذنباً . ماذا سيحل بي إذا ما أودعت السجن؟ بعد تفكير طويل خرجت بخطة . فكلما قاومت الطعام ستصبح الحاجة إلى إدخالي مستشفى أكبر وإذا ما رفضت الطعام عن طريق الفم لن يكون لدى الأطباء سوى التغذية عن طريق الحقن . كانت خطتي أن أستيقظ بحالة هياج حالما يصلونني بالحقن ، وأن أتصرف كمن أُصيب بانهيار عقلي . سأتصرف كطفل صغير ذي ثماني سنوات ، اللعبة كانت أن أقنع الأطباء بأني بالفعل نكصت إلى الطفولة . ومتى بدأت مثل هذا العمل لن يكون هناك عودة . علي أن ألعب الدور أربعاً وعشرين ساعة في اليوم . لن أقدم للمحاكمة إن كنت عاجزاً عن الادلاء بشهادة ، ولن يخاف المديرون مني إذا ما كنت منهاراً . كنت محظوظاً إذا كان علم النفس الموضوع الثانوي في الكلية وكنت أتفاخر بكوني بائعاً جيداً ، ولكنني كنت أعلم أن مثل هذا الأداء سيتطلب عملاً مقنعاً ولا يسمح به بأية هفوة أو خطيئة . صليت إلى الله أن أقوى على فعل ذلك ، وصليت أن يكون والداي مازالا أحياء حيث سأعلمهما بما كنت أفعل إذا ما نجحت ويجب أن أنجح لأن بقائي سيتوقف على ذلك .

ذلك المساء كان الاختبار. دخل الجلادون زنزانتي يحملون صينية عليها وعاء كبير. هل هو وقت الشوكران (السم)؟ سألت نفسي؟ بقيت ساكناً بكل إمكانياتي البشرية حتى أعتقد الحراس بأني كنت نائماً حاول واحد منهم إثارتي بطريقتهم المعتادة بضربة على معدتي. كان الأنين رد الفعل الوحيد الذي استطاعوا أن يحصلوا عليه مني. أمسك أحدهم بأنفي لاجباري على فتح فمي. حبسوا في فمي ملعقة كبيرة من الكريمة الحامضة ورفعت الملزمة من على التجويفين لتسمح لي بالتنفس. فاضطررت لبلع الكتلة والحراس يعيدون العملية وعندما لم يستطع فمي الاحتفاظ بها بدأت بعملية الاقياء. وجد الحارس الذي كان يمسك بالملعقة بأني على وشك أن أفسد كل جهوده وحاول أن يضع يده على فمي ولكن بعد فوات الأوان لقد اندفع ما في معدتي عليه وعلى اثنين آخرين، انزعج حامل الملعقة كثيراً وكان رد فعله أن أمسك بحلمتيّ صدري وبدأ بعصرهما بقوة كبيرة. كل ما كان باستطاعتي فعله هو أن أصرخ صرخة كبيرة أيقظت كل من كان نائماً بالسجن.

بعد أن قرف الخمسة من رد فعلي على الإطعام القسري قرروا الاقلاع عن مهمتهم. هل كانوا يعتقدون أن بإمكانهم التدخل بخطتي الموضوعة بإحكام؟ إنني أمريكي ولم أبدأ معركتي بعد! إن كبريائي الأمريكي أعطاني القوة لتحمل كل أنواع تعذيبهم. الأمريكي فقط يمكنه أن يعرف معنى الروح الأمريكية كقوة لا تقاوم. لن أسمح لشعب متخلف أن يفوقني فطنة، سيكتشفون ماذا يعني أن تقاوم العبرية الأمريكي. لن أتوقف عن نضال من أجل البقاء. لقد اعتقد القضاء الإسرائيلي أن بامكانه تلفيق جريمة لي. لقد حان الوقت لأن يقاوم أحد ما طرقهم. لقد وقع الكثيرون تحت وطأة البيروقراطية لوقت طويل. ولكنهم دفعوا بالشخص الخطأ هذه المرة. كانت هناك قصة قصيرة تروى، قصة عتم عليها لوقت طويل. هذا غير ممكن. مثل هذه الأشياء لا تحدث في إسرائيل! ألن يكون ذلك عذراً عندما أنجح في مطلبي!.

توجد حالة حازت على بعض الاهتمام عام ١٩٧٧ كانت حالة صبي في السابعة عشرة من عمره إذ أتهم رئيس شرطة صفد وأحد ضباطه بضرب الصبي، وكان على مكتب النائب العام في تل أبيب أن يقوم بادعاء. في الحقيقة اتصلوا بمكتب محامي محافظة تل أبيب بسبب العلاقات الوثيقة بينه وبين دائرة شرطة صفد.

شكوى الصبي أُثيرت في الكنيست من خلال كوهين وكانت هذه هي القضية الوحيدة التي أُثيرت من خلال كوهين ووجد المجلس أنها تستحق عملاً قضائياً. صباح الأثنين السابع والعشرين من آب عاد رجال الشرطة الخمسة وحاولوا إيقاظي بشتى السبل. حاولوا أسلوب الضرب القديم على الوجه. وكل ما حصلوا عليه كان أنيناً خافتاً. ثم حاولوا مناورة فتل الحلمات المخيفة وكان رد الفعل صراخاً حاداً. انهض، روستون لقد اعتقد الحمقى بأني سأشعر أنني عرفتهم وأحسست بوجودهم ولكنهم لا يعرفونني جيداً بعد!.

عندما فشلت كل محاولاتهم سمعت أحدهم يقول بالعبرية علينا أن نوقظه الساعة الواحدة بعد الظهر حيث يمكن لنا أننا ننقله إلى المستشفى. شكراً لله! خطتي بدأت تتحقق! ليس لدي أمل الانتصار عليهم جسدياً فأنا أعرف أنهم عاجلاً أم آجلاً سينتصرون علي، أما في لعبة الذكاء فكنت واثقاً من أنني المنتصر. أولاً وأخيراً أنا أقامر بحياتي مما جعل كل خطوة أخطوها حاسمة.

حوالي الساعة الواحدة دخل الحراس الزنزانة وحاولوا إيقاظي وفشلوا أيضاً، وجدوا أنه ما من أمل في تعاوني معهم التقطني أحد الضباط وقذفني على ظهره على طريقة رجل الاطفاء. من الصعب علي البقاء رخواً تماماً في كل الأوقات لأن الحركة كانت تعرض أن يطرق رأسي بالحائط والقضبان بينما هو يحملني عبر أدراج الأمن ولكني لم أجازف بالحركة خوفاً من أن أخسر فرصتي في تنفيذ خطتي. وما إن وصلنا إلى الطابق الأرضي حتى حملني إلى عربة شرطة ورماني إلى المقعد الخلفي في السيارة. وانطلق السائق من باحة السجن وكان ذلك وداعاً لغرفة الرعب. كنت أتساءل عن نوع المستشفى الذي يحملونني إليه. بينما يسرع بنا السائق يطوي الطريق. وتابعت التصرف وكأني في حالة هذيان.

وخرجت صحيفة الجيروزاليم بوست برواية جديدة عن حالتي، فقدمتني على أني سائح عمره ثمانية وعشرون عاماً (يدّعي) أنه طبيب. وقد أُدخل مستشفى أمراض عقلية للمراقبة، قالوا أيضاً إنني قمت بعملية سطو مدعياً بأن رجلاً متديناً أرسلني، وبعد وصف ملفق ومختصر عن كيفية اقتحامي الشقة وما إلى ذلك. قالوا إني رميت بالنقود جميعها إلى

عائلة كن! ثم أكدت الصحيفة أن جميع ادعاءاتي بالبراءة كانت حكايا ملفقة عن مهمة دينية يجب القيام بها وإلا سيُقتل والديّ في الولايات المتحدة.

لم أقل أبداً أن رجلاً متديناً أرسلني لأسرق عائلة كن! قلت أن آفي كان بزي اليهود المتدينين. لم أذكر كونه متديناً أم لا أبداً. في بادئ الأمر قالت عائلة كن إني احتفظت ببعض المال ثم قالوا إني ندمت ورميت بالنقود إليهم. على أية رواية سيثبتون؟ لم ألفق حكايا للشرطة عن آفي ووالداي لم يكونا في الولايات المتحدة كانوا في إسرائيل وشعرت أن حياتهما في خطر. لماذا لم تذكر المحكمة أو الصحف أي شيء عن نقود السوق السوداء أو عن المافيا؟ هل يعتقدون فعلاً بأنهم إذا ادعوا بأن الموضوع من نسج الخيال سينتهي الأمر؟ لقد عاهدت الله والأبرياء الذين عانوا من البيروقراطية الإسرائيلية، التي وجدت أنه من الأسهل وأكثر فائدة أن تتجاهل جميع مشاكل البلد، بأني سأعمل من أجل أن تهتم حكومة إسرائيل وتنظر إلى الحقيقة! لم أكن أعرف أن خطتي كانت تسير بأفضل مما رجوت وبأنهم ينقلونني إلى مستشفى أمراض عقلية حيث سأتمكن من بدء تمثيل النكوص. لماذا يريد الحراس في السجن أن أكون في وضع يمكن للآخرين مساعدتي به خاصة المحامي، ففي الليلة التي سبقت إرسالي إلى المستشفى بقي التافهون يقولون لي: لم طلبت محامياً؟ أنت لا تحتاج محامياً. أنت لا تحتاج محامياً... حاولوا تهدئتي بالعقاقير، ولكني بقيت غير متلائم. من هيئتي التي ظهرت بها في المحكمة قدّر القاضي على ما يظهر أنهم دفعوا بي إلى حافة الهاوية. لا تستطيع الحكومة الإسرائيلية أن تبين السبب الحقيقي الذي أُرسلت على أساسه إلى مستشفى الأمراض العقلية. كيف سيكون رد فعل الأمريكيين على أن النظام القضائي المجرم في إسرائيل قد عامل أمريكياً بوحشية فظيعة لدرجة الانهيار الجسدي والعقلي؟ إن ذلك ما كان ليساعد إسرائيل ومعاهدة السلام لم تكن قد وقعت بعد، ولكن كيف لهم أن يعتمدوا على مثل هذه القصة البشعة؟!.

الفصل العاشر

عمل من أجل الحياة

« فقط ابق هادئاً ولا تعترف بأي خطأ » كنت أقول لنفسي دائماً . توقفت السيارة ، حملني أحد رجال الشرطة إلى مبنى مجاور كانت الغرفة التي دخلنا إليها بهواً كبيراً أو قاعة انتظار ، وضعني على مجموعة من الكراسي كانت متصلة ببعضها . ثم حضر عامل المستشفى برفقة بعض المرضى الذين بدؤوا بلعب الورق . واستمروا باللعب كحفنة من الصبية علماً بأنهم في نحو العشرين من عمرهم . قال أحد الضباط للعامل «إنهم مجانين بالفعل ، أليس كذلك !» أجاب «إن كنت تعتقد أن حالتهم سيئة عليك مشاهدة بعض المعزولين ». « يا الله ! لقد نجاني الله حقاً من الشر !» عندما مرت برأسي تلك الفكرة شعرت بارتياح يغمرني حيث تحقق من أني بمؤسسة للأمراض العقلية . لن يكون من الضروري الانتظار أكثر لأبدأ (العمل من أجل الحياة) ، وبينما كان رجال الشرطة يتحدثون إلى المرضى استلقيت على الكراسي بوضع جنيني ولكي أكون مقنعاً أكثر بدأت بمص إبهامي ! .

« من هذا؟ » كان عامل المستشفى يشير إلي ، ولكني لم أكن أراه لأنني أطبقت عيوني . « روستون . ماذا تفعل » بدأ واحد يهزني . الآن لحظة الحسم قلت لنفسي وبدأت أبكي . وكزني أحد رجال الشرطة باصبعه . « لماذا تتصرف كطفل صغير ؟ كن رجلاً ! » « ولكن

عمري ثماني سنوات فقط!» قلت وأنا أبكي. ضحك الشرطي وقال «هو بلا شك مجنون! يعتقد أن عمره ثماني سنوات؟ انظر كيف هو مستلق كطفل صغير.» جاء أحد رجال الشرطة وقال لي: «كن ولداً صغيراً مهذباً، ارضع إبهامك وإلا سنضربك» وبدؤوا جميعاً يضحكون بصوت عال.

كان علي أن أرضع داخل فمي كي أمتنع عن الابتسام. لقد نجحت العملية! تبارك الله.. نجحت! اغتبطت. كل ما علي فعله كان أن أقنع الجميع بأنني أعاني فعلاً من انهيار عصبي، لأتحرر من الأسر. إن فرصتي الوحيدة للبقاء كانت أن أثبت بأنني غير قادر على تحمل المحاكمة في التهم الموجهة ضدي. إن إثبات براءتي عن طريق محامٍ لم تكن فكرتي لحظة المعركة.وإذا أردت الخروج من مأزقي علي أن أفوق الإسرائيليين ذكاء.

«نحن مستعدون لروستون الآن» قال عامل آخر، حملني الاثنـان إلى الأعلى، أدخلاني من بابين مغلقين ووضعاني على فراشي، خلعا عني ملابسي المتسخة وألبساني بيجاما نظيفة من ثياب المستشفى. كنت أتحرك بين طقم من الملاءات النظيفة وأنا مازلت أمص إبهامي. لقد تغير المد وصممت أن أربح الحرب! هذه المرة الأولى منذ اعتقالي التي أحس بها بالأمان، ولكن علي أن أكون متيقظاً طيلة الأربع والعشرين ساعة! غلطة واحدة وأنتهي في المحكمة! والأسوأ من ذلك أنتهي مع أولئك الحراس في غرفة التعذيب! انكمشت من فكرة التواجد مع أولئك الساديين القميئين الذين إذا اكتشفوا بأنني كنت أتظاهر بالانهيار فلن تطول أيامي في هذا العالم!.

بعد ساعة، دخل غرفتي بعض العاملين في المستشفى وهم يحملون أنابيب لأخذ عينات الدم، وعندما مسني واحد منهم صرخت «أريد أمي وأبي! أريد أمي وأبي! ...» «إن كنت ولداً طيباً يمكنك رؤيتهما قريباً جداً، ولكن دعنا أولاً نأخذ قليلاً من دمك». إذا ما تعاونت بسهولة سيداخلهم الشك. ولذا كومت نفسي على شكل كرة وأنا أصرخ: «لا. لا؟ أنا لا أحب الإبر!» «إن لم تكن ولداً طيباً. لا تستطيع رؤية أبيك وأمك!» وتابعت المقاومة تماماً كرد فعل طفل، ولكن كان علي التعاون في النهاية وبينما هم يأخذون الدم كنت كطفل صغير. بعدها أخذوني إلى غرفة أخرى حيث يوجد ميزان لمعرفة وزني. وعندما عرفت

أن وزني خمس وخمسون كيلوغراماً أي ما يعادل ١٢١ رطلاً، تحققت من الاجهاد الذي مر به جسدي، كان وزني الطبيعي ١٤٠ رطلاً مما يعني أنني خسرت تسعة عشر رطلاً في الستة أيام الأخيرة. فقط بالرغبة الصادقة والعناية الإلهية استطعت تحمل ما رجوت أن يكون أسوأ مرحلة من مراحل مصيبتي. «هل ترغب في شيء تأكله؟» سألني أحد العمال، حركت رأسي بالايجاب بينما اصبعي مازال في فمي. وعندما أعادوني إلى سريري، قدموا لي واحدة من وجبات المستشفى النظامية بيضة مسلوقة، حبة بندورة، خبز مع زبدة. وأدهشني أنني استطعت تناول الوجبة دون أن أتقيأ. وما إن أنهيت الوجبة حتى زحفت عائداً إلى تحت الشراشف وقد طرت إلى عالم الأحلام.

صباح اليوم التالي كان لقائي الأول مع داهجو معاون رئيس العاملين. كان أسود اللون ولكنه لا يمتلك ملامح أمريكي أسود. كان داهجوا شاباً نحيلاً أعجف في نحو العشرين من عمره. أكثر مما يزعج فيه الطريقة التي أيقظني بها في الصباح، فقد أحب أن يزيح سريري إلى جانب الجدار أو أن يمر بمفتاح على أسفل قدمي. في ذلك الصباح وبينما كنت أتمارض في فراشي دخل داهجو ومر بمفتاحه على قدمي، فكان رد فعلي أني تظاهرت بالخوف من ذلك الدخيل الأسود. أمرني قائلاً: «انهض وتعال معي!» قادني إلى باب متين مقفل، فتحه ثم رافقني إلى باب آخر كان في منتصف الردهة.

بعد أن قرع داهجو الباب لعدة مرات أطل رجل أشيب في لباس أبيض مثل داهجو، كان ذلك روف رئيس العاملين. أمسكني روف بيدي وسار بي إلى كرسي، وتصرفت وكأني أسير بغير هدى، وقد حرصت على ألا أعي وجود أحد. سرت وعيناي مسمرتان بالأرض لم أدعهما تلتقيان بأي من الموجودين، خطي الأساسي للدفاع كان إحاطة نفسي بجدار وهمي. كان على أي إنسان أن يهزني ليأخذ مني أي رد، إذا ما كلمني شخص دون الإمساك بي ودون أن يهزني، كنت ببساطة أتجاهل وجوده. كنت أتصرف كمن كان في حالة دوار. جلست على الكرسي التي قدمها لي روف.

كان الأشخاص الآخرون الموجودون هم من هيئة الأطباء النفسية في المستشفى لدكتور كوفلر والدكتورة فيش! الدكتور كوفلر رجل طويل معتدل الوزن، بينما الدكتورة فيش

قصيرة مكتنزة . « سكوت ، مرحبا يا سكوت » تجاهلت محاولة الدكتور كوفلر محادثتي بينما أنا مثابر على التحديق بالأرض . لم يكن من السهل علي المحافظة على تلك النظرة البلهاء على وجهي طوال الوقت ولكنها كانت ضرورية جداً كي أنجح في جعلهم يعتقدون أني كنت في حالة نكوص . تحدث الثلاثة بالعبرية . سأل الدكتور كوفلر « لا يتكلم ؟ » . أكد له روف « إنه يتكلم » . وضع كبير العاملين يده على ساقي وهزني : « سكوت ! انظر إلي يا سكوت ! » . رفعت رأسي ببطء ونظرت إليه بارتباك . « مرحبا يا سكوت » أجبته بنغمة طفولية من صوتي : « مرحبا » وعدت إلى موقعي الدفاعي . « سكوت ، أنا أتحدث إليك ! » استاء روف من تصرفي كثيراً .

حاولت الدكتورة فيش إثارة انتباهي ، لكنها كانت تجلس خلف مكتب غير قادرة على أن تلمسني من مكانها . لم يعرفوا بعد أن عليهم في كل مرة يرغبون بجواب مني أن يلمسوني . فكانوا مهما صرخوا بصوت عال أرفض أن أعطيهم أي تمييز . أخيراً عرف الدكتور كوفلر الطريقة المناسبة لأخذ رد فعل مني . أمسك بركبتي وبدأ يهز رجلي بلطف ، وكالرجل الآلي رفعت وجهي بالتدريج حتى التقت عيناي بنظره ، « مرحبا » تصرفت بنفس الطريقة كما فعلت سابقاً . « إن مدى انتباهه محدود الآن » قال الدكتور كوفلر لمعاونيه .

وعندما عدت إلى فراشي كنت أقاوم رغبة في الصراخ من الفرح إذ أن أول اختبار عملي لمجال قوتي كان ناجحاً جداً . لو كان باستطاعتي إقناع روف والأطباء بأنني أعاني بالتأكيد من حالة انهيار عقلي ، فسيكون ما تبقى قطعة حلوى . أن أبقى يقظاً طوال الوقت كان شيئاً أساسياً . ونظراً للأبعاد التي اتخذت لتوريطي وطنت نفسي على مقاومة جميع الضربات النفسية والجسدية التي يجب أن تنكسر على درع مقاومتي . علي أن أتوقع كل عمل ممكن ضدي . في الأحوال العادية ، جنون الاضطهاد تصرف سلبي . ولكن من الهام بالنسبة لي أن أكون مصاباً بجنون الاضطهاد كي أستطيع مجابهة المحنة التي أصابتني . أحسست أنه ليس بإمكاني أن أكون بالغ الحرص ولذا اعتقدت بأن كل ما في المستشفى يحاول إثبات أني أتمارض . الوحيدون الذين أثق بهم كانا والديّ إذا مازالا أحياء . لقد مرت أصعب مرحلة في محنتي ولكن علي ألا أرتكب خطأ ، تحملت الكثير وعلي أن لا أسترخي .

كانت غرفتي ١٢ × ١٦ قدماً. كان فيها أربعة أسرة بجانب كل واحد خزانة صغيرة، وكان هناك مغسلة على الجدار مقابل سريري. كان معي في الغرفة في ذلك الوقت إسرائيلي يُدعى يورام ألكوبي. كان في مثل عمري وقياسي، له شعر قصير داكن مثل معظم الإسرائيليين. وحين كنت أتظاهر بالنوم أسترق النظر إليه من فرجة أصابعي لأراه ينظر إلي بين الفينة والأخرى من سريره. هل كان حقيقة أحد المرضى؟ تساءلت، ودفعني مرضي إلى التفكير أنه ربما كان قد وضع معي لمراقبتي. ولذا لم أكن لأخاطر بتغيير تصرفاتي وأنا في السرير خشية أن يكون أحد المخبرين.

جاء والدي لزيارتي لأول مرة في الثامن والعشرين من آب بعد ظهر الثلاثاء، فميزت صوته عندما سمعته يتحدث مع الأطباء في الممر. عندما دخل غرفتي وجدني أتصرف وكأنني نائم بينما مازلت أمص إبهامي. انفجر باكياً وأخذني بين ذراعيه «يا إلهي، ماذا فعلوا بك؟» كان ينشج. وبحذر شديد همست في أذنه «لا تقلق، بابا، أنا بخير. علي أن أتصرف هكذا حتى أعيش إذا ما نجحت سأنال الأوسكار على حسن أدائي» أطلق تنهيدة ارتياح «سأعمل ما بوسعي لأخرجك من هنا! هل تستطيع أن تبقى أسبوعين؟» «إذا كان هو الوقت الذي تحتاجه، فسأفعل».

لم أشأ أن أثير شك أحد، فتحدثت مع والدي مثل طفل. «بابا؟ أنت جئت بابا أنت جئت! لا أحب هذا المكان!» وسايرني أبي في اللعبة. «ستأتي الماما لرؤيتك غداً. يريد الأطباء أن تبقى معهم لفترة بسيطة حيث يمكنهم معالجتك». «هل أنا مريض؟» «مريض قليلاً. يريد الأطباء مساعدتك أوكي»، هززت رأسي «نعم» بوجه حزين. همس لي يسألني إن كنت أحتاج شيئاً. «فرشاة أسنان، معجون أسنان، بعض الكتب الفكاهية، وشيء أقرضه. حبي لوالدتي وأخبرها أني بخير». قبلني على خدي وكلمني بصوت طبيعي «الآن عد إلى النوم بينما أتحدث مع الأطباء» استلقيت في وضع جنبي وعاودت وضع إبهامي في فمي. استدار أبي وتحدث إلى يورام. «هل تتكلم الإنكليزية». «نعم قليلاً» أجاب رفيقي في الغرفة. «هل ابني دائماً هكذا؟». «تعني نائماً؟» «نعم. هل يتكلم؟». «كل ما يفعله هو النوم. لا يتكلم» شكر أبي يورام ثم غادر الغرفة. استلقيت في الفراش أشكر الله لأنه

حمى والدي. لقد أُزيح عبء عن كاهلي عندما عرفت بأنهم بوضع جيد تحدث أبي مع الأطباء الذين أخبروه بأني أعاني نوعاً من الصدمة. أخبروه أني أعتقد بأنني طفل وأن عمري ثماني سنوات. قالوا بأن ما من أحد يعرف السبب الذي أدى إلى نكوصي وبأنهم سيراقبونني حتى تقرر المحكمة ما ستفعل بي. هل يعلم الأطباء بما فعلوا بي؟ إن الحراس في مركز التوقيف يعرفون ماذا فعلوا بي. وربما تعرف الشرطة أي نوع من المعاملة عوملت بها في غرفة الرعب. فهل تعرف المحكمة ما عانيت؟.

دعوت الله أن يقرر القاضي أني غير قادر على المثول أمام المحكمة وأن يسمح لوالديّ بأخذي إلى الولايات التحدة. رجوت ألا يترتب علي أن أمكث في المستشفى طويلاً ولكني أفضل مستشفى الحكومة للأمراض العقلية، مشفى يهودا أباربانل في مدينة بات بام على غرفة التعذيب.

بعد بضع دقائق من مغادرة والدي، حاول يورام أن يحدثني «مرحبا! مرحبا، يا سيد، ما اسمك؟ هاي، أنت!» بقيت بغير حراك، رافضاً عرضه للمحادثة. إن فكرة أن يخدعني أحد جعلتني قاسياً تجاه أي عمل مهما بدا كريماً. أزعجه صمتي كثيراً. «مجنون! أنت يا مجنون!» صرخ علي. ثم زحف إلى حافة فراشه وأخرج رأسه من باب الغرفة وصرخ بالعبرية، «هذا الشاب مجنون، لماذا وضعتم مجنوناً معي في الغرفة! أخرجني من هنا، إنه مجنون!» وبدأ يضرب بقبضته على الجدار بينما هو مستمر في الصراخ إنه مجنون! أخرجوني من هنا، لم وضعتموه معي؟ أنا لست مجنوناً. جاء داهجو إلى الغرفة متسائلاً، «ماذا يجري هنا يا ألكوبي!» «إنه مجنون! حاولت أن أكلمه ولكنه مستلق هناك فقط! لم يحدثني! إنه مجنون يا داهجو» وطلب منه أن يهدأ وإلا سيحقنه بإبرة تخرسه. لم يعجبه ذلك. «أنا لست مجنوناً. أعطه إبرة له وليس لي!» دفع داهجو بيورام إلى فراشه طالباً منه أن يهدأ. سكتت ثورته بعد أن عرف بموضوع المهدئ. داهجو لم يعرف بأنني راقبت العملية بأكملها. هل ترى كان ذلك التصرف لصالحي؟ ومضيت في ذلك. يبدو أنني كنت في إغفاءة قصيرة إذ لم أسمع أبي يعود بعد أن التقى بالأطباء. «سكوت، هل أنت نائم؟» همس لي. بعد أن انتهيت من تثاؤبي ومسحت عيني جلست على الفراش. كان في يده بشكير وبعض الصابون. من المستحسن أن أزيل رائحة السجن من على جسدي. أعطاني والدي التعليمات عن كيفية الاغتسال

بحيث يعتقد العاملون أنني عاجز وبلا قوة. لقد ساعدتني أفلام الأموات الذين أحيوا على المبدأ الودوني (يقاد الميت إلى الحياة لكنه يفقد القدرة على الحركة والكلام) إذ كنت أقلد هذه المخلوقات العديمة التفكير تماماً. كان لرذاذ الماء الساخن تأثير مهدئ على جسمي المتألم. لقد سجل الحراس في غرفة التعذيب رقماً على جسدي. من الواضح أنهم كانوا خبراء في هذا بحيث أن والدي نفسه لم يستطع أن يجد أي علامات لسوء المعاملة على جسمي. وبعد أن أزلت القمل أعادني أبي إلى فراشي وكان الإجهاد بادياً على وجهه. لقد كان والداي قلقين لدرجة الاعياء أثناء وجودي في السجن. ويوم جلستي في المحكمة قادوا أبي إلى المتاهة، فأمضى الوقت يفتش عن المكان الذي كنت فيه، وحين وصل إلى الغرفة كانت الجلسة قد انتهت وكانوا قد أعادوني. لم أكن لأبدو جيداً جداً في المستشفى ولكن لو أن والدي رآني في قاعة المحكمة لأصيب بالجلطة. قبل أن يعود إلى ميخموريت أكد لي بأنه لن يرتاح قبل أن يحررني من هذا الأسر، وأقنعته بأنه بإمكاني الاستمرار حتى يأتي ذلك اليوم.

جاء الليل بسرعة واستطعت الراحة بسهولة أكثر فأنا أعرف أن والدي كان يعمل من أجل حريتي. لا بد وأن الجميع كانوا نياماً عندما استيقظت، كانت غرفتي غارقة في الظلام عدا بعض الأضواء الضالة التي وجدت طريقها من البهو. وقبل أن أغفو ثانية سمعت صوت بابي يفتح، وبالكاد استطعت تمييز شكل الرجلين الواقفين خارج الباب. وعندما تكلما ميزت صوت داهجو: «هل هو حقاً مريض؟» سأل الآخر العامل الأسود. «إن لم يكن كذلك فيمكننا معرفة ذلك بسرعة. لا أحد يستطيع أن يخدعنا جميعاً، فهو سيخطئ عاجلاً أم آجلاً، وعندها يُعاد إلى السجن وإلا يكون مريضاً فعلاً».

«لكنك مخطئ يا داهجو يمكنني تمثيل ذلك جيداً، وليس في نيتي أن أنكشف فنحن الأمريكيين شعب حاذق». لم يكونوا يعرفون أنني كنت أسترق السمع إلى محادثتهم. وحقيقة أنهم كانوا يراقبون وينتظرون أن أخطئ في تطبيق خطتي جعلتني أكثر تصميماً على خداعهم جميعاً. كنت أعلم تماماً ما يجب علي عمله كي أنتصر، بينما عليهم انتظاري أن أخطئ. لم يكن الإسرائيليون معروفين بصبرهم فكنت أعلم أن ذلك سيكون لصالحي. إن خلفيتي الغنية بعلم النفس ساعدتني في تصرفي. وطالما أنني أركز على إعطاء رد فعل صبي له ثماني

سنوات في محيط غريب، فلن يكون باستطاعة هيئة المستشفى أن تصل إلى أي استنتاج سوى أنني بالتأكيد نكصت إلى طفولتي. وعلي أن أكون مستعداً لسلسلة الاختبارات التي سأتعرض لها بكل تأكيد وأن أكون متيقظاً كي لا أتعثر في العملية. ونظراً للهوة التي تفصل بينهم وبين الولايات المتحدة في مجال العلم، شعرت بثقة بأني سأكون مستعداً لتقييمهم النفسي.

بدأ الأربعاء كاليوم الذي سبقه، فقط داهجو سحب سريري إلى الحائط كي يوقظني، ولم يكن يعرف أنني كنت مستيقظاً لبعض الوقت. ولذا لم يستطع أن يفاجئني وأنا غير مستيقظ. التزمت بروتيني المعتاد جلست ببطء على السرير، مرة ثانية رافقني إلى غرفة الأطباء، حيث كان الثلاثي نفسه بانتظاري. جلست كعادتي وعيناي مسمرتان بالأرض. «مرحبا، سكوت. سكوت، سكوت!» لم تتبع الدكتورة فيش القوانين ولذا لم تحظ باهتمام. حاول روف أن يبدأ المحادثة معي كما فعل في اليوم السابق. «سكوت!» نظرت إليه. «هاي سكوت» «هاي» كان صوت طفل أجبته وأطرقت بالأرض ثانية. عرف كيف يسترعي انتباهي ولكنه لم يعرف كيف يحافظ عليه. كان الدكتور كوفلر التالي في فتح قناة إلى حصن سكوت. كان من المسلي أن أتصرف مثل الإنسان الآلي. عندما كانوا يستعملون المحرض المناسب كنت أجيب برد فعل محدود. الذي لم يستطيعوا التحقق منه هو أني كنت متحكماً بهم في أن يتعاملوا معي بالطريقة التي أحددها. اتبع الدكتور كوفلر وروف السياق المناسب، وقد كافأته عليه برد مني، الدكتورة فيش لم تتبع السياق الصحيح ولذا لم تحظ برد فعل مني. سألني الدكتور كوفلر عن عمري «ثمانية» «ثمانية ماذا؟ ثمانية سنين، ثمانية أشهر أم ثمانية أيام؟» حاول أن يكون حقيراً معي. «هذا سخف كيف يمكن أن أكون ثمانية أشهر؟» أجبت بصوت ضاحك. «أواه، إذن عمرك ثماني سنوات، هل هذا صحيح، سكوت؟» هززت رأسي بالايجاب ثم حاول أن يوقع بي: «أخبرني سكوت، كيف يمكن أن تكون بهذا الحجم وعمرك ثماني سنوات فقط؟»، كان ذلك محرضاً خاطئاً. عاودت شل اهتمامي والتحديق بالأرض «سكوت، سكوت!» نسي السياق، فتجاهلته، تنهد تنهيدة خيبة وتحدث إلى روف بالعبرية: «هذا يكفي اليوم، أعده إلى غرفته».

شعور بالإنجاز غمرني بينما أنا مستلقٍ على ظهري أنظر إلى السقف. عندما أنتهي منهم سيكونون هم الذين يحتاجون للمعالجة!. طالما أني لا أستجيب بأي رد فعل، فلن أقع بأي خطأ. وعندما أتجاهل الأطباء حين يسألون أكون لا أريد الإجابة. كنت أمنعهم من اتباع خط محدد في الاستجواب. شكرت الله لأن هداني لمثل خط الدفاع الرائع هذا. إن حصن سكوت عصيّ على الاختراق. عندما كنت طفلاً اعتدت على أحلام اليقظة ولذا كنت أعرف كيف أمضي الأيام وهم يراقبونني، إذا ما أراد أحدهم محادثتي فعليه أن يتبع قوانين أصوغها أنا. لم يكونوا يعرفون أنني أقوم بتجربة نفسية وأن هيئة المستشفى هي الخنازير التي أجري عليها تجاربي.

جاءت أمي لزيارتي بعد الغذاء بقليل من يوم الأربعاء، لاحظت المسحة الحزينة على وجهها وفتحت عيناها بوابات الدمع: «يا طفلي المسكين، يا طفلي المسكين!». كانت تصرفاتها تبدو مقنعة للعاملين في المستشفى الذين لاحظوا بأنها مكسورة الخاطر فعلاً، واعتقدوا بأنها تعيسة لكوني مستلقياً بوضعية جنينية أرضع إبهامي إثر انهيار عصبي ونكوص للطفولة. لم تكن هيئة المستشفى تعرف بأن سبب حزن أمي هو فكرة كوني محجوزاً ووجوب تصرفي كطفل إلى أن يحين وقت تحرري. تساءلت ما إذا كان باستطاعة والديّ المحافظة على هذه الجبهة. كانت حياتي تسير على خيط لا يسمح لي بأية هفوة. لم يكن خداع العاملين في المستشفى الشيء الوحيد الذي أقلق بشأنه وإنما كنت غير مطمئن لقدرة والديّ على تضليل كل من كان يراقبهما ويستجوبهما.

كنت سعيداً أن أحضرت أمي معها الأشياء التي طلبتها، فقد كان لفمي طعم العفن وشعرت بالراحة لتنظيف أسناني ثانية. كنت أعلم أن روف يراقبني وأنا أعصر المعجون على الفرشاة وأنظف أسناني. كنت أحرك الفرشاة في فمي ببطء شديد واستغرقت وقتاً ممتعاً وأنا أفركها بالفرشاة. بعد الدقائق الخمس الأولى لاحظت أن رئيس العاملين أحس بالملل وانسحب وداخلني شعور هاجس داخلي، بأن خداعه سيكون الأصعب علي من خداعهم. حين كانت والدتي في زيارتي أشعلت لفافة تبغ فاستغل يورام هذه المناسبة ليقدم نفسه إليها ويسألها سيجارة له. «شكراً جزيلاً، هل تعلمين لم هو مريض؟» سألها. «لا أحد يعلم سبب

مرضه. يعتقد أن عمره ثماني سنوات» هز يورام رأسه متعاطفاً. «أحاول أن أتحدث إليه ولكنه لا يسمعني. فهو إما نائم أو ينظر إلى السقف. كم عمره؟» مرت أمي بأصابعها بين شعري. «عمره ثمان وعشرون سنة وهو طبيب» اتسعت عينا يورام. «طبيب ويعتقد نفسه أنه طفل؟ إنني شديد الأسف له» أخذتني بين ذراعيها وأنا أحدق في الفضاء ولا أدع أحداً يعرف بأني ألاحظ كل ما كان يدور.

حين ذهبت أمي، وبدأت أقرأ في كتبي الفكاهية كنت أشعر بعيون يورام تتابع حركاتي. لو أن أمي تعرف كيف تصرف يوم أمس، قبل أن تظهر له الود. لم أسترخ في أي وضعية، فاستلقيت على ظهري محدقاً في السقف. «سكوت، مرحبا يا سكوت» ناداني. خشيت أن أنساق إذا ما تجاوبت معه فبقيت مسمّراً نظري بالسطح الأبيض فوقي «سكوت!» أعادها لعدة مرات.. ثم قفز غاضباً يصيح بالعبرية.. «مجنون اخرج من هنا، أنت يا مجنون!» بدأ يورام يركض في أنحاء الغرفة وأخرج رأسه من النافذة وهو يصرخ «أنا لست مجنوناً! لماذا يضعونني مع اخر مجنون؟» أمسك بالقضبان يحاول أن يخلعها. ثم وقف عند طرف سريري يحدق بي ويصرخ قائلاً «لم لا تتحدث إلي؟ أنا لست مجنوناً، أنت مجنون! لا أريد أن أبقى مع مجنون! اخرج من غرفتي أيها المجنون! مجنون!» لم أجب بأي شيء. في غضب شديد، سحب يورام درجاً من إحدى الخزائن ووقف وهو يحمله فوقي. «اخرج من هنا، أيها المجنون!» لم أعرف ماذا أفعل إذا استجبت له فسيفسد خطتي، وإذا تجاهلته فقد يسحق رأسي بالدرج. ركض إلى الباب وهو يصرخ بجنون «أنا لست مجنوناً! أخرجوا هذا المهووس من هنا وإلا سأقتله!» اندفع إلى جانب سريري. ورفع الدرج مستعداً لأن يهوي به. في هذه اللحظة اندفع روف وثلاثة من العاملين إلى الغرفة. «أنزل ذلك الدرج يورام» قال روف. «إنه مجنون! حاولت التحدث معه ولكنه لا يفعل شيئاً سوى أن يستلقي هناك. أخرجوه من هنا وإلا سأقتله!» بدأ يورام بالفعل يفقد السيطرة على نفسه. بدا وكأنه سيهوي بالدرج علي عندها اندفع الأربعة يمسكون به. «لا، لا، لا أنت لست مجنوناً، هو المجنون!» كان يصارعهم بعنف بينما الأربعة يحاولون تهدئته. دخلت صوفي، الممرضة في المستشفى، الغرفة تحمل سيوراً عديدة ومحقناً، وبعد أن وضعت الزرقة تحت الجلد، ربطت معصمي يورام وكاحليه بينما نقله الآخرون إلى سريره. كان يورام يقول بإلحاح «دعوني أذهب! إنه مجنون»

بينما الآخرون يكبحون جماحه. وما إن ثُبتت أطرافه بالسيور حتى زرقته صوفي الحقنة بالأبرة. انتهوا من ذلك وانفض الخمسة من حول سرير يورام. لم تكن الجرعة قد أثرت فيه بعد وكان يتخبط محاولاً التخلص من قيوده، محاولاً بعنف إزالة السيور ولكن دون جدوى. وما إن بدأ تأثير الحقنة حتى أصبح يورام يهمهم «أنا لست مجنوناً! لماذا وضعتموني مع مجنون؟ أعطوه الابرة له وليس لي، أنا لست مجنوناً...».

حدق روف بي بعد أن هدأ يورام وخلد للنوم، ثم التفت إلى معاونيه وقال «هل لاحظتم الطريقة التي ينظر بها إلى السقف دونما حركة؟» كان عليَ أن أحدق في بقعة صغيرة في الأعلى وأنا بغاية الحرص على ألا أدع روف يعتقد بأني مدرك ما يحدث، كان علي أن أتصرف وكأني غير واع لمجمل الأمور. «ما الأمر يا روف؟» سألت صوفي. «لدي إحساس غريب بأن سكوت يعرف كل ما يحدث» كان صوته ساخراً. وأحسست بعيونهم تحاول اختراق جدران حصني لكنني لم أستسلم. كانت عيناي مثل شعاع القوة مركزة على تلك البقعة الصغيرة في السقف. كنت أعلم أنني إذا ضعفت للحظة فستزداد شكوك روف ويصعب علي بعدها خداع بقية هيئة المستشفى.

إنني أمريكي. إنني أقوى منهم، لن أضعف، يجب أن أنتصر، وتابعت إعلاء روحي المعنوية بحيث أبقى صلباً. وأخيراً مل روف وطاقمه مراقبتي وأنا أحدق في السقف فغادروا الغرفة.

مضت دقائق، وأردت أن أعرف ماذا يفعل يورام. لم أجرؤ على الالتفات نحوه خشية أن يراني، فتظاهرت بأني سآخذ قيلولة وعدت إلى الوضعية الجنينية بعد أن غطيت وجهي بيدي اليسرى حيث باستطاعتي أن أسترق النظر من فرجة بين أصابعي. كنت أراقبه دون أن يحس بي. كان مستلقياً على فراشه، يشد بين الفينة والأخرى قيوده ويهز سريره. بدا مترنحاً جداً ولكنه مصر على أن يحرر نفسه. قسم مني تعاطف معه وودت لو أريحه قليلاً، والقسم الآخر حارس الحصن بقي صامداً كيلا يُخدع. أحضرني الأطباء يوم الخميس لجلسة أخرى ووجدوني أيضاً غير متجاوب مع الأسئلة الطويلة. وصل أبي بعد الظهر وأخبرني أنه اتصل بدافيد أرياف، كبير المحققين في القضايا ضد الدولة والذي كان قد أرسل سابقاً للمعتقل

أثناء مشاكلنا مع اليعازر ليفنسون. كما اتصل بالمحامي المكلف بالدفاع عني كابي بنيامين، وحدد معه موعداً لمناقشة قضيتي. ووعد أبي بأنه لن يهدأ هو وأمي حتى يطلق سراحي، وإذا ما احتاج الأمر فإنه سيتصل بالصحافة ويثير حرباً شعواء حول إساءة معاملتي لدرجة إصابتي بانهيار عقلي. كان لأبي اتصالات سياسية كثيرة في أمريكا وكان على استعداد لأن يتصل بكل من يعرفه من أجل الحصول على ضغط في الحكومة لمساعدتي. وإذا ما استدعت الضرورة سيطلع العاملين في الاعلام الأمريكي ممن يعرفهم على ما حدث لي. وبين الاعلاميين والسياسيين سينكشف الموضوع عن فضيحة كبيرة إذا لم يُطلق سراحي.

كان قد مضى عليّ أسبوع دون حلاقة، فطلب والدي بعض الصابون وموس حلاقة. عرض ممرض كهل اسمه مويشا أن يحلق لي ذقني وبقيت دون حراك بينما هو يمرر الحرف الحاد على بشرتي الرقيقة.

أمسكني عدة مرات وكنت أنشج مثل طفل صغير. عندما انتهت العملية مسح مويشا وجهي ببشكير فظهر عليه قليل من الدم، كان يمكن أن أستعمل الكولونيا فقد كانت بشرتي تؤلمني، وكان أبي حريصاً على ألا يدع مويشا يحلق شاربي. كنت بشاربين منذ أن أنهيت تدريبي في صيف ١٩٧١ ولا أريد أن أبقى بدونهما. لو كانت المهارة في الحلاقة هي مصدر الدخل الذي يعتمد عليه مويشا في معيشته لكان مات من زمن بعيد!.

نام يورام خلال العشاء وحتى صباح اليوم التالي. وكنت قد رتبت منبهاً أيقظني قبل أن يبدأ العاملون بإيقاظ المرضى، فلم يعلموا بأني كنت مستيقظاً أصلاً عندما أيقظوني من نومي المزيف. وبدأ يوم الجمعة مختلفاً، كلمني روف بالعبرية قائلاً: «صباح الخير يا سكوت». لم أستجب لكلماته. لقد اعتقد أن بإمكانه أن يحتال علي ويحصل على رد فعل ثم تابع باللغة الأجنبية: «ما الموضوع؟ ألا تتكلم العبرية؟ أعتقد أنك تتكلم العبرية!» عضضت داخل فمي حيث أستطيع أن أبقى ساكناً تماماً وقلت لنفسي تريدني أن أجيبك بالعبرية، أليس كذلك؟ حظك سيئ. سأبقى كالتمثال.

أمسك بساقي وهزني وأعاد: «صباح الخير» أشحت بنظري بعيداً عنه وأنا جالس على الفراش. علم روف أنه لن يستطيع اختراق صمتي فأخذ بذراعي ورافقني إلى غرفة الأطباء.

لدى دخولي الغرفة مطرقاً برأسي، لاحظت وجود شخص جديد في الإجتماع، امرأة صغيرة شابة طولها أقل من خمسة أقدام. اقتادوني إلى مكاني المعهود مقابل مكتب الدكتورة فيش. ابتدأ الدكتور كوفلر العملية بأن هز ركبتي ليجعلني أنتبه إليه. ثم حاول تحريض استجابتي عندما بدأ يتكلم بالعبرية. «مرحبا يا سكوت، كيف حالك؟ صباح الخير، كيف حالك؟» يحاولون أن يلعبوا معي، أخذت مواقعي الدفاعية. حاول الطبيبان مهاجمة حصن سكوت ولكن هجومهم ارتد.

وعندما وجدت المرأة أن الآخرين دفعوا بي إلى قوقعتي قامت هي بالعمل المناسب وتمكنت من محادثتي: «سكوت، اسمي سارة هل يمكنني محادثتك؟» كان صوتها لطيفاً ومريحاً. أحسست وكأني سأثق بها، ولكن حارس الحصن لن يدع أحداً يخرق ثقتي. بقيت متيقظاً مع سارة وأنا أجيبها «أوكي» «هل تريد أن تحدثني هنا أم تفضل أن نكون وحيدين؟»، الأسهل التعامل مع شخص واحد، بدلاً من خمسة. فضلاً عن أن روف لن يكون موجوداً ليحاول أن يضبطني وأنا لست بكامل يقظتي. بنظرة حزينة قلت «لا أريد ذلك هنا» أمسكت سارة بيدي وربتت عليها. «هل تريد أن تأتي إلى مكتبي» هززت رأسي. أوضح الدكتور كوفلر للدكتورة فيش التي لا تفهم الإنكليزية بأني أرغب بالتحدث إلى سارة لوحدنا. «لا يحبنا؟» سألت بالعبرية، «ربما سيشعر بالارتياح أكثر مع سارة وإذا ساعد ذلك في الكشف عن مشكلته فعلاً فأعتقد أنه جدير بالمحاولة». كانت نبرة السلطة في صوته تقول بأن قراره نهائي.

كانت سارة طبيبة نفسية حاولت كسب ثقتي لكنها لم تعرف أن محاولاتها ستكون يائسة. «سآخذه معي إلى الأسفل فربما يتحدث بحرية أكثر». وافق الثلاثة الآخرون على فكرتها. أمسكت سارة بيدي وقادتني إلى خارج المكتب. «تعال معي يا سكوت، سآخذك إلى مكان نتكلم فيها وحدنا». اتجهت إلى الممر وقطعت مكتب الممرض قبل أن تدرك أني كنت أبطأ منها كثيراً. لا بد وأني بدوت كرجل سقط من الفضاء، بالطريقة البطيئة التي كنت أمشي بها وعيوني مسمرة بالأرض أمامي. حاولت أن تجعلني أسرع ولكني تابعت السيرة، بطريقة القوقعة. مررنا بباب الأمن على الدرج السفلي، عبوراً ببهو الدخول وأخيراً إلى مكتبها.

داخل المكتب بدأت سارة بما سيتضح أنها مقابلة مخيبة للأمل جداً. كانت تحاول خرق حصني فتجد أنني حاذق في تجاهل الناس. التعاون الوحيد من قبلي كان في رسم صورة لمنزل. كان ذلك نشاطاً نموذجياً لصبي عمره ثماني سنوات، فقد رسمت منزلاً بطابقين مع مدخنة ودخان. حاولت أن تجعلني أشرح لها الصورة ولكن في كل مرة كانت تحاول الحصول على جواب كنت أبدأ بأحلام اليقظة. أمضينا معاً قرابة الساعة والنصف منها ساعة وربع أحدق بها في الفضاء. نسيت سارة السياق الصحيح لعدة مرات فوجدت نفسها تتحدث إلى جدار من الحجارة. وعندما اكتفت سارة في النهاية من تصرفي الأصم الأخرس أعادتني إلى غرفتي.

كنت سعيداً أن أرى والدتي بانتظاري لدى دخولي فعانقتها بـ مرحبا كبيرة، وتابعت تجاهلي لسارة وهي تحاول محادثتي، الرحلة من ميخموريت إلى المستشفى تأخذ حوالي ثلاث ساعات وأيام الجمع تتوقف الباصات الساعة الرابعة بعد الظهر بسبب السبت، مما يعني أن على أمي أن تتركني باكراً ذلك اليوم. بدا يورام غير واع خلال زيارة أمي ومع ذلك بقينا يقظين فإذا ما كنت قادراً على التصرف كطفل لم لا يستطيع يورام التصرف كمسعور؟ قلقت والدتي كثيراً عندما أخبرتها عن سبب ربط يورام بالسرير. كان الزيارة لطيفة، مع أنها كانت تعرف أنه لن يتمكن أحد من زيارتي حتى يوم الأحد، فالمواصلات العامة لا تعمل يوم السبت وهذا يثبط كل شيء. وقبل أن تتركني أخبرتني بأنهم سيرسلون رسالة إلى رئيس مجلس الوزراء بيغن هذا نصها:

ميخموريت، إسرائيل
٣١ آب ١٩٧٩

السيد مناحيم بيغن
رئيس مجلس الوزراء
الكنيست
القدس، إسرائيل

السيد رئيس مجلس الوزراء:

«اسمعي يا إسرائيل، إن الرب إلهنا، واحد».

جئنا إلى إسرائيل لنساعد، لنبحث، ولندعُ الآخرين ليأتوا. قبل ١٠ أيلول ١٩٧٨ كنا نرى إسرائيل في أحلامنا. كتبنا واتصلنا بالوكالة اليهودية ووزارة الاستيعاب مراراً عديدة دون جواب. ولدى المكتب الأمريكي في القدس ملف مؤلف من ١٠٠ ورقة عن عائلة روستون. وقد حركت الوعود ــ عبر المسافات وعبر الهاتف في تموز وآب ١٩٧٨ ــ المقطوعة من عضو كنيست معروف ومسؤول عن هجرة الأطباء إلى إسرائيل، حركت آمالنا بمساعدة مالية لبناء عيادة لتخفيف (المعاناة)! لم ولن نفهم التحذيرات المسبقة من مستشارين في نيويورك وأتلانتا. ورغم محاولتهما ثنينا عن القدوم، جئنا إلى إسرائيل بعد انتظار طويل لموافقة السيد تاومور التي لم تأتِ. وبناء على نصيحة السيد يوفول ميتزر وكانتور كودفرينيد، جئنا كسياح وجلسنا على عتبات الوكالة اليهودية. وأخيراً سمح للسيد باكاس بأن يحدد لنا مركز استيعاب وطوال ذلك الوقت ونحن نحاول الاتصال بعضو الكنيست من أجل المخصصات. أردنا البقاء في نتانيا ولكننا وافقنا على نقلنا إلى مركز استيعاب أشبه بمعتقل في بئر السبع أفضل من أن نقسم العائلة ـ وبدأت الاحباطات منذ اليوم الأول مع المسؤول عن المركز اليعازر ليفنسون الذي سخر من زوجتي التي خضعت لأربع عمليات جراحية كبيرة في قدمها اليسرى في أيار ١٩٧٨ عندما قالت أنه يتعذر عليها الصعود إلى الطابق الثالث حيث وضعنا. وبعد بضع كلمات أرسل معنا مساعده إلى المبنى الثاني ــ الطابق الثاني (اكتشفنا فيما بعد غرفاً فارغة في الطابق الأول). وليضيف الاهانة إلى الأذية، لم يعط ابننا البالغ من العمر سبعة وعشرين عاماً مكاناً خاصاً به بل أُجبر على الاقامة معنا كطفل صغير علماً بأن كثيرين من العزاب الآخرين كانوا يشغلون غرفاً خاصة بهم.

كانت لقاءاتنا مع السيد ليفنسون دائماً تبدأ بالمقدمة المعهودة، «عودوا إلى الولايات المتحدة، إسرائيل لا ترغب بكم وليست بحاجة إليكم! عودوا إلى الولايات المتحدة، أنتم الأمريكيون اليهود الأغنياء الأو ... !». ولكي تكون بصورة معاناتنا من ١٧ أيلول ١٩٧٨ حتى ٣١ آذار، ١٩٧٩ تذكّر تجاربك المرعبة في حرب الإبادة، الشبيهة بتجارب عائلة أبي التي أُبيدت في وارسو. من المؤسف أن يدير شخص مصاب بعقدة العظمة، لديه لوثة، ويتحكم

بقدر المهاجرين الجدد. فسلوكه الوقح المتبجح كاد أن يفقدنا صوابنا! وكثيرون من بلدنا يمكنهم أن يصادقوا على حوادث تقشعر لها الأبدان، كحالة شابة بحاجة لعناية طبية نقلها هذا الظالم دون رحمة إلى مصحة عقلية وقد شخص لها الحالة خطأ بحالة اكتئاب جنوني، فما كان على أمها إلا أن تأتي من أمريكا ومعها ثبوتيات تظهر بأن ابنتها تعاني من حالة نقص السكر. فهو لم يكن إلهاً وحسب وإنما حجة في حقل الطب. وكل واحد يذكر الموسيقي الروسي الذي مات قبل وصولنا بقليل بسبب معاملة ليفنسون غير الإنسانية ومضايقاته له التي لم تتوقف (إن الافراط في الضغط بعد الخروج من روسيا يقتل أيضاً) وحوداث أخرى وأخرى.

وبعد مقابلات مزعجة مع السيد ليفنسون وبعد معرفتنا بأن مكتب وزارة الاستيعاب وافق على مساعدتنا في الانتقال إلى شقق مؤجرة، أخرجتنا الفرحة عن تحفظنا فاختلس ليفنسون الشيك الذي جاءنا من الآنسة تومي ممثلة وزارة الاستيعاب قبل أن تسنح لها الفرصة بتقديمه لنا، وتهجم بلغة لا يمكن إعادتها على زوجتي مما أفقدني السيطرة على نفسي، فتناولت غصن شجرة صغير وأظهرت عواطفي بحماقة. فاستدار الرجل بمهارة لاعب كاراتيه ورفسني فأفقدني توازني تماماً، قادني الأصدقاء بعيداً ومضى هو دون أن يُصاب بأي أذى ولكنه استدعى الشرطة وكالمجنون ظهر بعد عشر دقائق وذراعاه مجروحتان وهو يتهمني بأني قد فعلت ذلك بخرطوم مطاطي. أخذني رجال الشرطة، وضربوني بوحشية ودفعوا بي إلى السيارة كيهودي في ألمانيا عام ١٩٣٨، ولمعلومات أكثر يمكن الاتصال بتوفا شيموني العاملة في قضيتنا التي كان عليها أن تقوم بزيارات أسبوعية إلى مركز الاستيعاب.

وقد أرسلت رسائل إلى كل من أربيه دولزن، والرئيس نافون، ودافيد ليفي (وزير الاستيعاب)، ود. يوسف بورغ (وزير الداخلية والشرطة)، والسيد ي. فرانكل (رئيس تحرير جريدة الجيروزاليم بوست)، وقد أجرى معنا مراسل جريدة معاريف مقابلة لكن القصة دُفنت. في عام ١٩٦١ كنت ضحية للسرطان، ولكن الله كان رؤوفاً بي وأعطاني فرصة أخرى، وكنتيجة لذلك، وفي الثالثة والخمسين من عمري، عام ١٩٧٣، عدت إلى الكلية أدرس تقويم العمود الفقري يدوياً. سكوت اختار أيضاً أن يصبح طبيباً في تقويم العمود الفقري وتخرج بدرجة امتياز. وبما أنني كنت أعمل في العلاقات العامة دُعيت لمساعدة اثنين

من عمداء الكليات التي درست بها في مجال جمع التبرعات والعلاقات العامة. فعملت مع أعضاء مجلس الشيوخ تالمادج، نن، وبيرسي، ومع أعضاء الكونغرس لاري ماكدونالد من جورجيا، والسكرتير كاليغانو، والحكام بوسيبي، ووكر إضافة إلى كثير من الوكالات الحكومية ويظهر ملفي أني كنت نائب مدير ومسؤول لدى جمعية المحاربين اليهود القدماء، وأمين صندوق ونائب رئيس هيكلنا. وكان آفي الأكبر وزوجته يعملان ولوقت طويل مع بناي بيرث والجامعة العبرية. وجدنا أنفسنا في إسرائيل في سن الستين، جاهزين للعطاء، لولا القوانين المهترئة والأفكار التي وضعها الاداريون محدودو التفكير في الحكومة. ونحن لم نكن ننتظر موافقة الجمعية الطبية في إسرائيل، بل من أجل حق العودة فقط. إن القصص المنشورة في صحيفة الجيروزاليم بوست تظهر أن:

ـــ ٨٠٪ من الأمريكيين يعودون إلى بلدهم محبطين تماماً.

ـــ ٧٥٪ من الروس لن يأتوا.

ـــ ٤٠٠,٠٠٠ إسرائيلي هاجروا إلى الولايات المتحدة.

ـــ ٩٠٠,٠٠٠ من نساء إسرائيل أميات.

ـــ ٥٠,٠٠٠ من الزوجات الإسرائيليات أُسيئت معاملتهن، ضربن اتصلن بالشرطة ولم يتلقين أية مساعدة.

ـــ ٥٠,٠٠٠ من الزوجات الأخريات (ضربن) شراً ولم يتصلن خوفاً من سوء معاملة أكثر.

ـــ مراكز الاستيعاب مكتظة.

ـــ الرشوة منتشرة.

ـــ السوق السوداء تقتل الاقتصاد.

ـــ لا تقدم الحكومة أية مساعدة ـــ روتين فقط.

ـــ مضايقات على الهاتف يومياً ـــ تهديدات ـــ تمييز.

ـــ بعض القطع من الدراجة النارية الخاصة بابني تُسرق ويقول الشرطة: «لا يمكن عمل شي».

من أجل المساعدة المالية لفتح عيادتنا، اتصلنا بالدائرة الاقتصادية في وزارة الاستيعاب وبالوكالة اليهودية. وكنا نسافر أسبوعياً من بئر السبع إلى القدس وتل أبيب

ولا حاجة لإخبارك عن البيروقراطية التي لا تنتهي ودون نتائج إيجابية . إن سنة غير منتجة من حياة الطبيب هي وقت طويل خاصة وكنا نرى أننا نصرف كل ما ادخرناه في حياتنا قبل أن نبدأ بعد . حتى أنه كان علينا أن نستدين سراً من أجل دفع إيجار سنة للعيادة والتجهيزات .

إلى من سنلجأ لمساعدتنا من أجل العودة إلى الولايات المتحدة ؟ .

في الاسبوع الماضي تلقينا رسالة من مكتب الرئيس نافون تفيد ترجمتها بأن الوكالة اليهودية تقول بأن دافيد أرياف (كبير المحققين في القضايا ضد الدولة) نظر في قضيتنا في آذار الماضي وعلينا نسيان كل شيء . هذه معالجة مؤسفة وموقف مؤسف من الوكالة اليهودية تجاه موقف بشع تشجع فيه القائد على أعماله الشريرة وتهديداته .

لقد أرفقت طياً نسخاً عن بعض الرسائل للاطلاع . والآن حدثت أكبر مأساة يمكن أن يواجهها أبوان . فقد أُجبر ولدنا عن طريق التهديد بحياتنا بالسطو على بيت زوج أخت جارنا الذي يُفترض أنه يمتلك ويخبىء الكثير من أموال السوق السوداء والذهب في شقته وابننا وهو بريء من كل هذه العملية خاطر بحياتنا ورفض أن يقوم بالجريمة وحاول أن يحذر الصهر ولكنه طُرد من الشقة عندما ذكر أن شقيق الزوجة قد يكون متورطاً في عملية السرقة المخططة هذه . واحتفظ الرجل بالكثير من الأدلة التي تدين ولدي بالجرم . وفي الصباح التالي قُبض على سكوت وأُخذ من نتانيا إلى تل أبيب حيث عومل بوحشية فظيعة . وركضنا من المشرفين الاجتماعيين إلى القنصلية الأمريكية نطلب المساعدة ولم يسمح لنا برؤيته من الجمعة حتى الأثنين . لم نستفد شيئاً من القنصلية . ورغم أن القاضي أمر بإحالته يوم الأحد صباحاً إلى مستشفى الأمراض العقلية الحكومي يهودا آباريانيل في بات ــ بام للكشف عليه فقد استمرت الشرطة في احتجازه حتى الاثنين بعد الظهر . لماذا؟ ماهي الأساليب غير القانونية التي استعملتها الشرطة مع سكوت لتسبب له حالة الانهيار العقلي التام . لقد نكص وتراجع عقلياً إلى حالة صبي في الثامنة من عمره . كيهودي ومهاجر جديد ، هل أجرؤ على الكتابة إلى أصدقائي في الكونغرس والصحافة الأمريكية أو إلى السيد نافان كولدبرج الرئيس الوطني لجمعية المحاربين اليهود القدماء؟ هل أجرؤ على الكتابة إلى بناي بريث أو إلى لجنة جمع الأموال لليهود؟ هل أجرؤ على مقاضاة إسرائيل؟ . أعد لنا ابننا كي نستطيع أن نأخذه إلى بلدنا! .

نحن نناضل من أجل المساعدة المالية كي نعود إلى بلدنا خلال الأسابيع القليلة القادمة حينما يُفرج عن سكوت ويوضع تحت وصايتنا. ولكني أشعر بأننا بحاجة لأن نقابلك. فإن كنت لا تعلم كيف يعامل الأمريكيون والمهاجرون الآخرون، لماذا تسعى من أجل السلام؟ إن الفوضى الداخلية تحتاج لبراعتك فوراً والآن في إسرائيل وإلا سيكون السلام غير ذي قيمة.

المخلص

د. ساي. س روستون

نسخة إلى:

ــ الرئيس إسحاق نافون.

ــ رئيس المحكمة العليا يوئيل سوسمان.

ــ السفير سيما دينيس.

(ملاحظة): السيد رئيس مجلس الوزراء كرئيس للحكومة، السيد رئيس الجمهورية المخول سلطة العفو، السيد سيمحا دينيز السفير الذي جذبنا، رئيس المحكمة العليا الذي يهاجم الوحشية في معاملة السجناء. نقول ثانية عندما جئنا إلى إسرائيل، قلنا ساعدونا كي نساعدكم ولكن ذلك لاقى آذاناً صماً. نحن نقول الآن: ساعدونا كي نسامحكم!.

بقيت الأمور هادئة نسبياً في المستشفى في عطلة نهاية الأسبوع. فقد حل يورام من قيوده مساء الجمعة ونام جيداً يوم السبت. كان أهدأ كثيراً من قبل ربما لأنه لم يرغب في أن يُربط بسريره ثانية. وبقيت في فراشي طيلة الفترة عدا أوقات الوجبات. وكنت إما أقرأ في الكتب الهزلية عن الرجل الخارق أو أنظر إلى السقف أو أتظاهر بأنني غارق في نوم عميق. لم أر روف خلال هذين اليومين ولهذا أحسست بأن الأمور ستسترخي. ولكني كنت مخطئاً فبينما كنت جالساً على طاولة الغداء يوم السبت أنتظر وجبتي، لاحظت واحداً من الممرضين يسترق النظر إلي من الجانب. كنت أجلس بوضعية أحلام اليقظة أتصرف غير مدرك تماماً للأنشطة التي تدور حولي. كان اسم الممرض جوزي، يحمل بيده حزمة كبيرة من المفاتيح

عندما اقترب مني. وقد توقعت أن يباغتني فجأة لأجفل إذا ما كنت أتصنع المرض. عندما بقيت كالتمثال، وجد بأن محاولته في أن يكشفني كممثل قد فشلت.

يورام رأى ما حدث وأخبر الممرض عن رأيه بالحيلة قائلاً: «أيها المجنون! لم لا تترك سكوت وحيداً؟ أنتم العاملون جميعاً مجانين يجب أن تحجزوا» كشف يورام فعلاً لجوزي عما يجول بخاطره. «اخرس، وإلا سنربطك بالفراش مرة ثانية!» ضرب زميلي بالغرفة قبضته بالجدار كرد فعل على تهديد الرجل «لماذا أنت بهذه الوضاعة؟» سأل يورام. ورمى جوزي المدافع الجديد بنظرة قذرة: «لماذا تهتم بسكوت وقد كدت توشك أن تضربه على رأسه بالدرج» نهض يورام من كرسيه ومشى إلى حيث كنت أجلس. ربت على رأسي وهو يقول لجوزي «إنه ولد طيب. ولديه والدان طيبان. أعطتني أمه سيجارة وحادثني والده بمودة. ربما فقدت أعصابي لأني أردت واحداً أتحدث إليه ولم يكن ليستطيع أن يسمعني. ولكن هذا لا يعني أن تضايقه لمجرد أنه لا يسمعك» «إن لم تكف عن التدخل بأمور غيرك سأخبر داهجو وسيعطيك إبرة». فاعتقد يورام بأن جوزي جاد فعلاً. لم يكن يورام يرغب بأن يضغط عليه وضرب على الكرسي الموجود بينه وبين جوزي وواجه العامل وجهاً لوجه.. وعندما تأكدت من قرب المشاجرة دخل داهجو البهو يجر عربة الغداء «ماذا يحدث هنا؟» سأل العامل الأسود. لم أكن أرغب في رؤية يورام يحقن بالمهدئ مرة ثانية، ولكن ليس باستطاعتي أن أظهر أنني مدرك لما يدور حولي. هدأ الاثنان ولم يؤذ أحد بسبب. كنت سأشعر بذنب كبير لو أن يورام عوقب أثناء محاولته الدفاع عني إذا ما تبين أنه ليس جاسوساً يراقبني. بعد تلك الحادثة أصبحت ودياً أكثر من يورام، وحريصاً دائماً ألا أثير شكوكه. وكنت كلما قرأت واحداً من كتبي الفكاهية قدمته له ليطلع عليه أيضاً.

كانت الأيام تتثاقل ببطء خلال الأسبوعين الأوليين لوجودي في المستشفى عدا يوم السبت. كان والداي يأتيان لزيارتي كل يوم ويحضران لي جميع أنواع الحلويات والكتب الفكاهية وأحياناً وجبة ساخنة. لو أني كنت سأعيش على الوجبة الرتيبة التي تُقدم هنا للمرضى لما كان بإمكاني تحمل محنتي بهذا الهدوء.

أصعب ما في الأمر كان الانتظار. كل يوم بدا وكأنه يذهب من الافطار في دورة مع

هيئة المستشفى، أنتظر أمي أو أبي أن يزوراني، أنتظر الغداء، أنتظر العشاء، أنتظر الظلام، أنتظر النوم أن يأتي، ونفس الشيء هكذا في اليوم التالي.

كنت دائماً أشعر وكأنني مراقب مما أضاف عبئاً إلى مشكلتي. ففي كل مرة أنظر في الغرفة أو أفتح عيني من قيلولة كأن أحداً ما يراقبني. ليس فقط من هيئة المستشفى بل من المرضى فلم يكن لدي أية خصوصية. هروبي الوحيد كان عندما أذهب إلى دورة المياه، تلك كانت تجربة بحد ذاتها. لم أكن أعرف أين تعلم هؤلاء المرضى القواعد الصحية لأن الأدوات الصحية كانت قذرة لدرجة تدعو إلى القرف. وكان عمال التنظيف يقومون بالعمل كأن حماراً يقوم به، فكنت كلما أذهب لقضاء حاجة علي أن أقشط المرحاض جيداً. كان لدي ما يكفي من أشياء أقلق بشأنها غير الاسهال والقمل. وعندما كنت أغلق الباب خلفي أحس وكأنني أغلقه عن العالم بأكمله، حتى ولو كان ذلك لدقائق معدودة كل يوم. كنت قادراً على تفريغ معظم توتري اليومي في اللحظات التي أجلس بها في ملاذي.

لقد انتشر الخبر لدى الجميع في مهجع الرجال بأن والديّ يحضران لي جميع أنواع الطيبات مما أدى لأن تقاطع زيارة والديّ لأكثر من مرة. فالمرضى والعاملون في المستشفى كانوا يطلبون الطعام من أبي والدخان من أمي. كان عندي من المزعجات ما يكفي من العاملين ولكن علي الآن أن أتحمل المرضى الذين يزعجونني. ثمة مريض يُدعى افرايم شيمونوف يظهر بانتظام الساعة كلما وصل والدي. «شوكولاته، شوكولاته رجاء شكراً جزيلاً. إني أتكلم الإنكليزية جيداً». كان افرايم مثل اللعبة التي تعمل بنابض. دائماً يمد يده بطلب شيئاً مكرراً نفس السطر. وتصورت أنني كلما فتحت الدرج أطلب شيئاً وآكله يكون افرايم جالساً على فراشي ينتظر حصته.

يورام لم يكن يحب افرايم ربما لأن الأخير اعتاد أن يأخذ قيلولة على سرير زميلي في الغرفة. وإذا ما تظاهرت بأني منزعج من وجود افرايم كان المدافع عني يقذف به خارجاً ويصرخ «خارجاً، مجنون! لا يوجد طعام اليوم» ويدفع بالشحاذ خارج غرفتنا. عندما كانت عائلة يورام تأتي لزيارته كانوا يحضرون له فواكه وأشياء أخرى طيبة للأكل، فإذا ما نفذ طعام أحدنا كان الآخر يقدم له بعض ما لديه. كان يورام الشخص الوحيد عدا والديّ الذي...

عليه أن يتبع السياق الخاص الضروري لمحادثتي لقد رتبت عملية منفصلة من أجل يورام. كل ما عليه أن ينادي اسمي ثلاث مرات أنظر إليه. كنت مازلت غير متأكد مما إذا كان مريضاً بالفعل ولهذا كان لا بد من الإبقاء على حدودي معه.

التعامل مع جميع من بالمستشفى كان عملاً مرهقاً. كان هناك الكثير من اللصوص في مهجعي مما استدعى مني ومن يورام أن نراقب حاجياتنا باستمرار. وكان لدينا اتفاق غير معلن أن يراقب كل منا أشياء الآخر في حال مغادرته الغرفة. جاء مريض جديد إلى غرفتنا ولم نشعر بميل إليه. دعوته اللص البدين لأنه كان يتنقل من غرفة لأخرى ويخطف أي شيء غير مربوط. نصف سيجارة، حلويات، ورق لعب. الخ. ذات يوم كان يورام يتحدث مع الأطباء وكنت أتظاهر بأني نائم. بدأ اللص البدين يعبث بدرج صديقي، وضع ولاعة يورام في جيبه وهو لا يعرف أني شاهدته. وعندما عاد يورام وأراد أن يشعل سيجارة ترك اللص البدين الغرفة. وبعد أن بحث يورام دون جدوى سألني. «سكوت هل رأيت أحداً أخذ ولاعتي؟» نظرت إليه نظرة مرتبكة بادئ الأمر فقام ببعض الحركات يصف لي ما كان يبحث عنه، فأشرت إلى اللص البدين بينما كان يدخل الغرفة عائداً إلى سريره.

لم يكن اللص البدين يعرف شيئاً عن مزاج يورام. وأنكر أنه أخذ الولاعة بعد أن استجوبه صديقي بالعبرية. يورام نظر إلى الخلف إلي كأنه يسألني. أين وضع اللص ولاعته فأشرت إلى جيبه. بدأ اللص يصرخ بالعبرية، «اتركني وشأني. ولاعتك ليست معي». دخل داهجو الغرفة متسائلاً؟ ما سبب كل هذه الضجة؟ وقبل أن يتمكن يورام من شرح ما جدث اندفع اللص البدين قائلاً: «إنه مجنون بدأ يمسك بي!» التف داهجو إلى يورام وبدأ يصرخ فيه «ستأخذ حقنة أخرى!» «ولكنه أخذ ولاعتي ووضعها في جيبه!» صاح صديقي.

طلب الممرض الأسود من اللص البدين أن يفرغ جيوبه ولكنه رفض وهو يصيح، «ليس لدي أي شيء، ليس لدي أي شيء» أمسك به داهجو وأدخل يده في جيبه. وعندما عثر على القداحة الضائعة اعتذر ليورام وأعطى اللص البدين مهدئاً وربطه إلى الفراش. وبينما كان اللص يعاقب دخل افرايم يسأل عن سيجارة. أشار له يورام إلى خزانة اللص البدين

وأخذ المتسول بنصيحته وأخذ عقب سيجارة من درج اللص المربوط. كان صديقي راضياً عن نفسه وبدأ يضحك مما دفع بافرايم لأن يطلق ضحكة يتعذر السيطرة عليها. على أية حال بقيت بحالة الترنح، دون أن أسمح لنفسي بالتظاهر بأنني استمعت لما حدث. كان معظم العاملين غير إنسانيين ويستمتعون بمضايقة المرضى، عدا واحداً من هيئة المستشفى يبدو إنسانياً اسمه جوزيف ويهتم براحة المرضى. كان يتكلم الإنكليزية جيداً وغالباً ما أمضى وقتاً طويلاً محاولاً التواصل معي. «إذا ما ضايقك أحد. أعلمني فقط». كان جوزيف يستعير قصصي الهزلية ويقرأ عن الأبطال الخارقين، ويحضر قيثارته إلى غرفتي أيضاً ويغني. كنت أستمتع برفقته حتى بدأ يسألني أسئلة خطرة: «هل أعجبتك إسرائيل؟» نظرت إليه نظرة ارتياك ولم أرغب في الاجابة على سؤاله. لا بد وأن جوزيف أخبر الأطباء عن رد فعلي على سؤاله لأنهم في اليوم التالي تماماً بدؤوا يسألونني نفس الأسئلة: «سكوت، هل تعلم أين أنت الآن» سأل الدكتور كوفلر. وكنت قد خططت عن كيفية إجابتي على مثل هذا السؤال، قررت أن أعطي أجوبة تتلاءم مع ما كنته في سن الثامنة. عشت في نيوجرسي في وايت ميدوليك وأجبت وكأني أعيش هناك في السنة الثامنة من حياتي. توقعت من الطبيب النفسي أن يعيد السؤال قبل أن أجيب. أجبت «في نيوجرسي». «لا يا سكوت. أنت في إسرائيل» عاودت النظر إلى الأرض «سكوت، سكوت!» نسي أن يقوم بالسياق الصحيح. حاولت سارة الحديث معي: «سكوت أين تعيش الآن» كان ردي «في نيوجرسي» بصوت طفولي. «هذا ليس صحيحاً يا سكوت. أنت في إسرائيل!» أعادت. وبدأت أبكي: «كلا، نيوجرسي!» كنت أنشج «أريد ماما! أريد ماما!» فكرت في العودة إلى السجن الأمر الذي ساعدني على البكاء الشديد. وما إن رأى الأطباء دموعي حتى تحققوا بأنهم لن يحصلوا مني على الأجوبة التي يريدونها فأرسلوني إلى سريري أخيراً.

كنت حذراً جداً من جوزيف بعد ذلك اللقاء، والمجازفة في أن يخدعني تزايدت فوق حدود المقبول. حاول أكثر من مرة أن يجعلني أتجاوب مع أسئلة غير مرغوبة، ولكنني حرصت على أن أبقى داخل أسوار حصني. ميريام أيضاً كانت إحدى العاملات اللواتي يحشرن أنفسهن. كانت ممرضة تعاجلني دائماً بتحيتها المعتادة «مرحبا سكوتي!» كنت أكره اسم سكوتي وقد طلبت منها أمي مرات عديدة ألا تناديني بذلك الاسم ولكنها كانت دائماً تجيب

«أوه، ولكنني أحب اسم سكوتي!» كان لدى ميريام طريقة أقل ما يقال فيها أنها مزعجة، حتى إذا كنت نائماً كانت ميريام توقظني وتحاول محادثتي. ومرة عندما كانت أمي في زيارتي بدأت المرأة بإزعاجي، فالتفتت إليها والدتي وقالت «هل لك أن تتركي ابني وشأنه رجاء» فتحت ميريام فمها مشدوهة. واعتقد يورام أن الأمر مضحك جداً فعلاً وتدحرج على فراشه يضحك ضحكة نشوى. ولم تعجب هذه المزحة المرأة المشاكسة فتركتنا في غضب وغدوت واحداً من المحظوظين القلائل الذين حرمتهم من وجودها. فكرة قضاء معظم الوقت في الفراش لم ترق لأمي، وكذلك لي. فبدأت تصطحبني في مشاوير طويلة في الردهة خارج غرفتي. وعندما تعوّد العاملون رؤيتي أتمشى بدأت أقوم بذلك بانتظام. فمعظم المرضى كانوا يسيرون جيئة وذهاباً دون هدف لساعات طويلة. كنت أراقب وأقلد طريقة تجوالهم متجاهلاً تماماً كل من حولي. كان شيئاً جميلاً أن أمدد ساقيَّ دون أن أخشى إثارة فضول الأطباء. والمشي خارجاً كان أداء نموذجياً وسمح لي بالتدريب. كنت أرغب في بعض الجمباز، ولكنني كنت سأنتهي بالسجن؟ إهمال جسدي كان أحد التضحيات التي علي أن أقوم بها كي أواجه التقييم الدائم الذي كنت عرضة له.

صديقي لم يكن ليأبه في تفريغ كل طاقته، إذ كان يقوم بالكثير من التمرينات كل يوم ليقهر ضجره. وكان غالباً ما يضرب قبضته بالحائط عندما تتفاقم الأمور وإذا ما أزعجه أحدهم كانت ملاحظته المفضلة. «مجنون! أنت مجنون!» ولم يكن أحد ليجرؤ على مشاكلته إذ لم يكن يتوانى عن الإمساك به وإلقائه خارج الغرفة. لقد تغيرت علاقتنا بشكل جذري منذ أن حاول ضربي بالدرج. لم أكن أعلم السبب لمرضه ولكن من خلال محادثته مع والدته عندما كانت تزوره عرفت أن عائلته أدخلته المستشفى بسبب مزاجه الحاد. على أية حال، بعد حادثة الدرج، أصبحنا أصدقاء.

ما إن انتهى الأسبوع الثاني لوضعي تحت المراقبة حتى وصل قلقي إلى درجة لا تُحتمل. وبمساعدة أحدهم، ولن أسميه (حفاظاً عليه) استطاع أبي أن يصل إلى دافيد أرياف (كبير المحققين بقضايا الدولة) كي ينظر في قضيتي. ووعد أرياف والدي بأنه سيتمكن من حسم الموضوع في نهاية الأسبوع الثاني. ووافق والداي على ألا يتصلا بأحد

من أصدقائنا وأقاربنا المتنفذين أو العاملين بالإعلام. لكن والدي حذره من أنه في حال عدم الافراج عني بسرعة سيعمل على أن تُنشر قصة تلفيق تهمة لي ومعاملتي بوحشية في الصفحات الأولى من الصحف في الولايات المتحدة. وقال والدي إن إسرائيل بغنى عن هذه الدعاية السيئة خاصة وأن مباحثات السلام لم تنته بعد. واقترح صديقنا الناصح أن يلجأ والدي إلى التهديد فقط بالاتصال بالصحف كوسيلة ضغط للافراج عني، وقال قد يكون من الخطر على صحتي إثارة الموضوع وأنا مازلت بالحجز. وأضاف أنه عندما نعود إلى الأمان في الولايات المتحدة علينا أن نظهر المسألة برمتها. وكان من خلال عمله لصالح أحد مكاتب الهجرة يعرف جميع الأعمال الخاطئة التي تجري، وأخبرنا بأن جميع من عانوا من هذه الأمور إما بقوا في إسرائيل وقبلوا بالمظالم أو عادوا لبلادهم دون أن يفتحوا فماً. فهم لم يرغبوا بإطلاق صافرة في الأرض المقدسة، ووصل إلى حد القول أن من واجبنا نشر الحادثة كي لا تستمر مثل هذه الصور الزائفة عن الديمقراطية. فبمثل هذا الفضح فقط يمكن لدولة إسرائيل أن تسير في طريق العدالة الحقيقية: العدالة والديمقراطية التي حلم دافيد بن غوريون أن يبني البلد على أساسها!.

الفصل الحادي عشر

غداً.. بعد يومين.. الأسبوع القادم

عندما استيقظت صباح الحادي عشر من أيلول كان كل ما فكرت به هو رؤية والدي بعد الظهر. فقد انقضى الأسبوعان اللذان طلبهما دافيد أرياف وعليه أن يعلم والدي بموعد إخلاء سبيلي. بالشكل العادي، كنت صبوراً ولكن رغبتي في الخروج من إسرائيل جعلتني قلقاً. أخيراً سأعود لبلدي، إلى حيث انتمائي! فكرت لنفسي وبدت كل دقيقة وكأنها ساعة، وكل ساعة وكأنها أمد. لمَ العجلة، لقد احتملت ثمانية عشر يوماً من الاعتقال، وبضع ساعات زيادة لن تكون غير محتملة.

كانت الساعة حوالي الواحدة بعد الظهر عندما دخل أبي غرفتي. نظراته لم تكن لتبعث على الارتياح، كانت أشبه ما تكون بنظرة الجراح الذي خرج ليعلن بأن العملية لم تكن ناجحة. عانقني والدي ليهمس لي بما لا يرغب في أن يسمعه الآخرون: «هل بإمكانك الاستمرار لبضعة أيام أخرى؟» شعرت وكأني سأبكي، الحكومة تعيد فعلتها معنا أيضاً، وها نحن سنلعب لعبة الانتظار ثانية. كان علينا أن ننتظر في المعتقل ولكن احتمال أيام أخرى من السجن كانت قصة أخرى. لم أرغب في إظهار القنوط لأبي. فغصت في داخلي أبحث عن الشجاعة: «إذا كان ذلك ما علي أن أفعله فليس أمامي خيار، ماذا قال أرياف؟» أخذ أبي

نفساً عميقاً قبل أن يجيب « قال ربما غداً أو بعد يومين قبل أن يعطينا جواباً محدداً » قلت بأني سأتصل بالصحافة إذا لم يُفرج عنك حالاً . قال أرياف « إذا ما نشرت أية قصص عن سكوت فربما يتعرض للتعذيب . فقد اختفى بعض الناس بينما هم تحت المراقبة . ولا أريد أن يختفي سكوت بعد كل ما عاناه ، وإذا ما اتصلت بالصحف لن أكون مسؤولاً عن سلامة ابنك . كنت على وشك أن أهم بضربه ولكنني كنت أعلم أني لو فقدت أعصابي فذلك لن يفيدك » . كانت تلك الأخبار لا تبعث على الارتياح . « هل تعلم أمي ؟ » سألت . « لا . لقد جئت مباشرة بعد لقائي مع أرياف ». أعرف ، لقد خاف والدي من نقل هذا الخبر إلى زوجته . «أخبر والدتي أني بوضع حسن وأن عليها ألا تقلق . لقد تحملت الأمر حتى الآن فلا بأس ببضعة أيام أخرى ؟ كل ما أريده هو أن تبذل ما في وسعك لحث أولئك البيروقراطيين ولا تدعهم يرهبونك انتبه على نفسك وعلى والدتي . لدي من الضغط ما يكفيني هنا ولا حاجة بي لأن أقلق عليكما ، وطالما أني مستمر في تظاهري لا تقلقا علي . ارتاحا كي تستطيعا السير بالمشوار إلى النهاية ، كل منا بحاجة إلى قوة الآخر إذا ما أردنا أن نربح معركتنا مع هذا البلد ،». أحسست بارتياح عندما أفضيت له بما في نفسي .

بدا والدي مرتاحاً لدى سماعه بأني أتقبل كل شيء ببساطة . كيف كان لي أن أخبره بخيبة الأمل التي أحسها ؟ فقد عانيا الكثير وهما ليسا بحاجة لأن يفكرا كيف أعالج أموري . حاولت أن أخفي قلقي عليهما ورغم أني أنا الموقوف فلم أستطع إلا أن أقلق على وضعيهما ، فهما يتعرضان لقلق شديد هنا وهناك ، يلاحقان موضوع الافراج عني إلى جانب السفر لمدة ست ساعات من أجل زيارتي . هذا التفاني أكد معرفتي بوالدين رائعين .

بعد الاسبوعين التاليين الأنباء الوحيدة التي حملها والدي كانت : غداً ... ربما خلال يومين ... بالتأكيد الأسبوع القادم وكان دافيد أرياف يؤجلهما دائماً قائلاً بأن الرجل صاحب القرار في إجازة أو أن المكتب مغلق بسبب العطلة .

وعندما كان أبي يلح أو يهدد بنشر القصة كان أرياف يجيب : إن فعلت أي شيء فستسبب مشاكل ، سيضيع سكوت في مسارب النظام البيروقراطي وربما لن تستطيع رؤيته مرة ثانية . كانت رؤية خيبات الأمل على وجه والديّ لا تُحتمل ، لدى سماعهما عن التأخير وكل ما

كان بإمكاني هو أن أؤكد لهما بأني سأتماسك لبضعة أيام أخرى. كان هناك دائماً تأخير آخر وكان العاملون في المستشفى والأطباء يحاولون خداعي كي أرتكب خطأً.

قبل إحدى المقابلات، وبينما كنت أتمشى أمام غرفة الأطباء سمعت الدكتور كوفلر يقول: تريدنا الحكومة أن نتأكد تماماً من أن سكوت مريض. وحذرونا بأنه سيكون من الخطر على إسرائيل إذا ما أخلينا سبيله وتبين بأنه سليم فهو قد يخبر الصحف قصة سيئة جداً إذا ما كان يتظاهر بالانهيار. إنهم لا يريدون للحقائق أن تُعرف. لا يريدون كشف المعاملة التي تعرض لها سكوت عندما كان محتجزاً عند الشرطة. علينا أن نحتاط تماماً عندما نؤكد أن سكوت مريض فعلاً.

كان مسموحاً لي أن أتجول مساءً في مهجع الرجال وأن أشاهد التلفاز، الأمر الذي جعل الأيام تمر أسرع، وكان العاملون يراقبون باستمرار ردود فعلي على البرامج المختلفة. عدا برنامج (فوق وتحت)، كانت جميع البرامج الإنكليزية الأخرى للأطفال.

التظاهر بالاستمتاع ببرامج الأطفال كان جزءاً من مهمتي، ولم يكن من السهل التظاهر بأنك مفتون بشي مصمم لمشاهدين صغار، ولكن كان من الضروري ذلك من أجل إقناع الأطباء بالشخصية التي أمثلها، شخصية الصبي ذي الثمانية أعوام.

كان يمكن لي أن أقلد تصرفات العاملين وأستمر في التصرف كطفل. كان جميع المقاعد في غرفة التلفاز كراسي خشبية قاسية عدا كرسيين منجدين من كراسي البهو. وكان هناك دائماً شبه معركة حول من سيجلس على الكراسي المريحة. وكان هناك معركة حامية مرة في الأسبوع على الأقل بين اثنين من العاملين حول إحدى الكرسيين المنجدين. ومرة ثانية كانت هناك معركة ضخمة بين الآنسة صوفي وأحد العاملين الرجال، اسمه موزل. كانت صوفي تثير الكثير من الشجار بين الموظفين. كان موزل يجلس على إحدى الكرسيين المريحين عندما أخبرته صوفي بوجود مكالمة هاتفية له، كانت تكذب، وقد اكتشف الأمر بعد فوات الأوان فقد عاد إلى غرفة التلفاز ليجد صوفي وقد شغلت كرسيه ورفضت أن تتركه له وهنا بدأ الشجار. ذهب موزل وملأ ابريق ماء وأعطى زميلته فرصة أخيرة كي تترك له الكرسي قبل أن يفرغ ما في الابريق على رأسها. رفضت صوفي معتقدة أنه يمزح فما كان منه إلا أن أعطاها

حماماً لطيفاً مبللاً شعرها وملابسها. وهكذا بدأت المعركة. ردت صوفي على موزل وسار خلفها. وكان يطارد أحدهما الآخر على مدى ساعتين واستمر القتال بالماء لمدة تجاوزت الوقت المحدد لاعطاء المرضى أدويتهم دون أن يهتم الاثنان وهل من واجبهما الاهتمام بحاجات المرضى؟ أم أنهما يعملان للتسلية؟ كنت سعيداً أن صحتي لا تعتمد عليهما!.

أصبح النوم بأمان في مهجع الرجال صعباً جداً. إذ أن مريضاً جديداً يُدعى مونسيور كان يقطع الردهة أمام غرفتي كل يوم من الساعة السابعة حتى العاشرة مساء بحذاء خشبي يطلق صوتاً مثيراً يسير به جيئة وذهاباً أمام باب غرفتي. وكان يطلق أيضاً صوت أنين مقرف بسبب فتق معوي إذ أن أمعاءه كانت تندفع من بين عضلات بطنه مشكلة نتوءاً معوياً هائلاً. ولم يعمل العاملون بالمستشفى على مساعدته بشيء إذ أنهم كانوا يسمحون له بأن يأكل ما يشاء متسببين بذلك في ضغط إضافي على أمعائه وزيادة في الألم. كان مونسيور يضع يده على كل ما تقع عليه عينه أثناء الوجبات ويأكل من ثمانٍ إلى تسع شرائح من الخبز في كل وجبة إلى جانب أنه كان يضع كل ما تبقى في الصحون في طبقة، يحشو بها فمه وبطنه السمين. واتضح أن مونسيور كان شخصية مسلية جداً فقد سمعت العاملين يتحدثون عنه أكثر من مرة وتبين أنه أُدخل المستشفى لأنه قتل أخاه ولكني لم أعرف أبداً لم فعل ذلك. المهم أن هذا الموضوع أفسد نومي لأنه لم يكن من السهل علي أن أنام وأنا أعرف بأن قاتلاً يتمشى أمام باب غرفتي. كان قد دخل إلى غرفتنا أكثر من مرة يبحث عن طعام ولكن يورام طرده. في إحدى المرات بينما كان يورام يشاهد أحد برامج التلفزيون المتأخرة حاول مونسيور أن يأخذ بعضاً من طعام رفيق غرفتي، ولم يكن ليتوقع أن يأتي يورام باحثاً عن سيجارة ويمسك باللص عند خزانته. فقد صديقي أعصابه ثانية وبدأ بضرب مونسيور ودخل داني وميناهشا وهما اثنان من العاملين العتاة في اللحظة التي كان فيها مونسيور يقوم بضربته الوحيدة على يورام.

فتش داني جيوب اللص بعد أن أخبرهما صديقي كيف وجد الرجل متلبساً. وبعد أن وجد قداحة يورام وبعض الحلويات من خزانة يورام في جيوبه، اقتنع داني بأن الرجل كان مذنباً فربطوه إلى سرير وأعطوه مهدئاً. الذي أزعجنا أنا ويورام كثيراً، بالرغم من أني لم أظهر ذلك، هو أنهم ربطوا الرجل إلى سرير في غرفتنا وكان طوال الليل ينشج ويئن ولم يدعنا ننام.

ولم يستطع يورام حملهم على نقله من غرفتنا إلا في صباح اليوم التالي بعد زيارة الأطباء. وما فتئ صديقي يصرخ باللص اخرس، أيها المجنون! إن لم تطبق فمك سأضربك وقد ضاق ذرعاً بالأصوات التي كان يطلقها ضيفنا الثقيل فما كان منه إلا أن رشق اللص بالماء. ويبدو أن الماء أصاب القسم الأسفل من بيجامته لأن العاملين كانوا يصيحون بمونسيور لأنه تبول في الفراش واختلط الماء برائحة جسده لتشكل رائحة كريهة ولتجعل العمال يعتقدون أنه عملها في فراشه. وكان من سوء الحظ وشيئاً مقرفاً أن أرى كيف يُهان المرضى ولكن لم يكن بوسعي فعل أي شيء وإلا سأفسد خطتي. نُشر مقال في صحيفة الجيروزاليم بوست بقلم باكوف فريدلر يتحدث عن الأحوال التي شاهدتها. ستنسى وزارة الدفاع سريعاً موضوع الـ ٨٠٠٠ جندي الذين يعانون من جروح في الرأس، أو إرهاق من القتال أو اضطرابات نفسية بعد تسريحهم من الجيش. وبدلاً من أن تقدم الحكومة العون لهؤلاء من أجل إعادة التكيف مع المجتمع تعطيهم إعانات شهرية ويُحكم عليهم مؤبداً أن يصبحوا من رواد الأطباء النفسيين.

تجد وزارة الدفاع أنه من الأسهل عليها أن تفعل ذلك ليس فقط لأنه يلائمها أكثر بل لأن المرضى أنفسهم يخجلون من طرح قضيتهم. وهم أيضاً يسكتون خشية إدخالهم المستشفى. كما أنهم لا يعلمون الأهل أيضاً، عندما يتلقى الابن أو الابنة أية أذية أثناء الواجب ويكون بحاجة لعناية. وقد طالب عضو الكنيست دوف شيلانسكي وناتان بيليه من المحاربين القدماء بأن يكون لدى الجيش مشافيه النفسية الخاصة به وبأن يتلقى المرضى تعويضاً أكثر من المال، كبرنامج إعادة تأهيل مثلاً. إن رؤيتي للطريقة التي كان يُعامل بها المرضى في مشفى الأمراض العقلية العام جعلتني أتساءل عن الأذى الذي كانوا يتعرضون له كل يوم. ماذا كان يحصل لي لو أنني فعلاً أُصبت بانهيار عقلي؟ وهل يمكن للأذى الذي كانوا سيلحقونه بي أن يُصحّح؟ إنني محظوظ فلي القدرة على البقاء، والتفكير بما يحدث للمرضى الضعفاء أصابني بالغثيان. هل من طريقة لاصلاح الأساليب المستعملة في هذه المستشفيات؟ مشكلتي الأولى هي أن أتخلص من مأزقي!.

في أحد الأيام وصل أبي إلى المستشفى وبرفقته المحامي الموكل عني كابي بنيامين، صُدم وكيلي عندما رأى وضعي العقلي. ألم يكن يعلم بما حدث لي عندما كنت موقوفاً عند

الشرطة؟ أخبر والدي المحامي بانهياري العقلي ولكنه أراد أن يزورني بالمستشفى ليرى بنفسه: هل تتذكرني؟ أنا محاميك، كان يقول ويعيد دون أن آبه به. إن هو لم يتبع السياق المناسب لن أكلمه. وكان على والدي أن يلفت انتباهي كي أستمع لأسئلة السيد بنيامين: هل تعلم من أنا يا سكوت؟ نظرت إليه بارتباك وتحدثت مثل طفل: لا، هل أنت صديق لوالدي، سألته. بعد أن حاول محادثتي عدة مرات منتهياً بنظرة بلهاء هز محاميّ رأسه غير مصدق وقال: يا إلهي! كيف حدث هذا له! والتفت إلى والدي الذي كان يقول: أخبرتك عن وضعه! والآن هل تصدقني؟.

أثناء الجلسة قال القاضي بأن سكوت ادعى في اعترافه بأن حياة والديه كانت في خطر. ولكن ما من أحد يعرف كيف يمكن لأحد أن يهددكما وأنتما في أمريكا. ولم أعرف أنكما كنتما في إسرائيل حتى لحظة اتصالك بي. ولا أستطيع أن أفسر لماذا يحدث مثل هذا لـ سكوت طالما أنه اعترف طواعية بالجريمة التي ارتكبها!» قال السيد بنيامين وقد بدا أنه مهتم فعلاً بي. «هل تتصور أن سكوت أُجبر على اعترافه» سأله والدي. «هذا ممكن. وإذا كان ما أخبرتني به حول ما حدث لسكوت، كما قال، في شقة عائلة كن صحيحاً فيبدو أنه مستهدف وقد دُبرت له تهمة. ولسوء الحظ جميع الدلائل تشير إلى أنه مذنب». أحاطني والدي بذراعه والتفت إلى المحامي قائلاً: «شيء واحد مازال يقلقني كثيراً لا أستطيع أن أصدق بأن يعترف سكوت بجريمة لم يرتكبها ويدلي بإفادة دون وجود محامٍ. إنه أذكى من أن يتصرف هذا التصرف الغبي».

أمعن السيد بنيامين النظر بي بينما كنت أحدق في الجدار. بدا أنه مقتنع بمرضي وقال لوالدي «يبدو غريباً أن يخبرك أنه بريء ثم يسلم الشرطة اعترافاً موقعاً. هناك تناقضات كثيرة لا تعجبني إنني سعيد إذ ليس من واجبي إثبات براءة سكوت ولكنني واثق، بعدما رأيته اليوم، من أن سكوت غير قادر على حضور المحاكمة، أعدك أن أفعل ما بوسعي للافراج عنه ووضعه بكفالتك» حديثه جعلني أشعر بارتياح أكبر عما سيحدث لي. وأملت أن يكون قد عنى كل ما قال ولم يقله فقط ليكسب ثقتي، وإن كانت هذه لعبته فلا بد أن يخيب لأنه ليس بنيتي الثقة بأحد سوى والديّ.

وتمنيت أن يكون الأطباء قد اقتنعوا بتصرفاتي بالسهولة التي اقتنع بها السيد بنيامين. توقفوا عن مقابلتي بشكل خاص في مكتبهم وبدؤوا يسألونني أثناء قيامهم بزيارتهم الصباحية. كان روف يراقبني دائماً مثل الصقر، منتظراً أية هفوة. ودائماً يحاول أن يجعلني أجيب عندما يتحدث إلي بالعبرية. «مرحبا يا سكوت، كيف حالك؟ ألا تتكلم العبرية؟ هذا غير ممكن، فأنت في إسرائيل منذ سنة!» سألت نفسي متى سيتركني هذا الوغد؟ إنه لا يعرف أن ليس بنيتي تركه يخدعني! إن كبريائي كأمريكي تمنعني من الاستسلام لإسرائيلي متعجرف يتلذذ بمضايقة المرضى. وعندما أزحته من على ظهري أحسست أنه لم يبق لدي مشاكل.

إحدى العاملات، اسمها فرانسيس، بدأت تتودد لي. إن حقيقة كوني من أمريكا راقت لها لأنها تود بأن تمرن لغتها الإنكليزية. في الأسبوعين الأوليين لم تكن تعرف بأنني أعاني من انهيار عصبي. ويبدو أن الأطباء لم يجدوا من الضروري أن يعلم الجميع بمشكلتي. كان غريباً بالنسبة لي ألا يعلم الجميع في مستشفى للأمراض العقلية عن حالة مريض ما! إذ كيف سيتمكنون من تقدم حالتي الصحية؟ كان الأطباء يلتقون بي لفترات قصيرة بعد الأسبوعين الأوليين ولكن فرانسيس كانت تراني أثناء الوجبات وأثناء مشاهدتي للتلفزيون. ألا يريد الأطباء منها مراقبتي علني أخطئ؟.

أخيراً بدأت فرانسيس تنبش عميقاً في مرضي. فقد تحدثت مع أمي طويلاً قبل أن تعرف حالتي، ولم تسأل عن سبب وجودي في المستشفى إلا بعد أن أخبرتها أمي بأنني طبيب. «لقد ألقي القبض عليه لجريمة لم يرتكبها! وعاملته الشرطة بوحشية فظيعة حتى أصيب بانهيار عصبي!» قالت أمي وأمسكتني بذراعيها وسألت فرانسيس «انظري إلى ابني هل يبدو من الطراز الذي يمكن له أن يسرق أو يهاجم أحداً؟ إنه شخص لطيف. جاء إلى إسرائيل ليساعد الناس الذين يعانون وليس ليؤذي أحداً!» كانت أمي تتأثر بشدة حين تتحدث عن الظلم الذي لحق بي على يد الشرطة الإسرائيلية. كنت قلقاً كثيراً خشية أن تفقد أمي السيطرة وتزلق بشيء عني، شيء لم أستطع أن أخبرها به إلا بعد أن ألقي القبض علي. كان الأطباء يعرفون بأن الفرصة لم تتح لي لأخبر والديّ عما حدث لي بعد أن أخذتني الشرطة. فهي إن قالت أي شيء مما حدث في المحكمة أو في استجواب الشرطة تذهب الخطة

بأكملها أدراج الرياح. وكان علي أن أنبه والدتي مرتين إلى الطريقة التي تحدثني بها حين يوجد بعض العاملين في المستشفى على مقربة منا بمسافة تسمح بسماع ما تتحدث به. كنت أفهم الضغط العاطفي الذي تعانيه ولكنني أخبرتها أن تكون حريصة إذا ما أرادتني سالماً. لم أكن لأتأكد أبداً من كان يتنصت علي ينتظرني أن أخطئ. ومع التبديل الدائم بالمرضى الجدد كان يبدو لي أني ألتقي دائماً بمخبرين جدد محتملين. كنت أمارس جنوني دائماً ولا أسمح لأحد بأن يقترب مني بشكل يسمح له بخداعي. عندما لا يكون والديّ بزيارتي كان يورام يمنع المرضى من مضايقتي. في بعض الأحيان كنت أحس أني أود أن أكلمه ولكني لم أكن لأستمر في حديث طويل مع أي كان. حتى مع المدافع عني. كنا نلعب بالورق أحياناً وكنت أدع نفسي أخسر فلم أشأ أن أثير شك الآخرين بربحي بالورق. كنت أربح بعض الأحيان ولكن معدل الخسارة كان أكبر. وعندما كان يحاول المرضى الآخرون إزعاجي وأنا أقرأ أو ألعب الورق مع صديقي، كان يورام يطردهم خارج الغرفة.

قبل الافطار تماماً، يوم الثلاثاء في الخامس والعشرين من أيلول، أيقظوني من نومي وقدموا لي ثيابي التي كنت أرتديها عندما أُلقي القبض علي. كان بنطالي الجينز وقميصي مازالا قذرين وأحسست بعدم الارتياح لأني سأخلع البيجاما النظيفة وأستبدلها بهذه الثياب وقد لوثتها الشرطة وحراس السجن. لم يكن لدي فرصة لأن أتناول أي طعام قبل أن يأخذني رجل الشرطة إلى غرفة ويفتشني. وكانت خزانتي قد أُفرغت ووضعت محتوياتها في أحد الأكياس التي كان والدي قد جلبها لي. رافقني الشرطي أثناء خروجي من المستشفى ووضعني في سيارة شرطة كبيرة.

جلست في السيارة لأكثر من ثلاثين دقيقة قبل أن أعرف وجهتنا. وعدم معرفتي بغايتنا جعلني أشعر بغاية القلق. إلى أين سيأخذونني؟ لم يقل أحد أي شيء حتى بالعبرية إلى أين نحن ذاهبون! الجميع كانوا هادئين لدى مغادرتي المستشفى. كنت قد أمضيت في الاعتقال شهراً ويوماً واحداً ربما قد انتهوا من مراقبتي ثم لمعت فكرة مرعبة في مخيلتي ماذا لو لم يكونوا مقتنعين بأني مريض؟ ماذا لو أنهم فعلاً يعتقدون بأني كنت أمثل؟ وتملكتني قشعريرة فظيعة وأنا أحاول أن أزيل فكرة عودتي إلى غرفة الرعب في السجن.

كان ثمة ثقب في الجهة الخلفية من مقصورة السائق ، وكان علي أن أجلس دون حراك خشية أن ينظر أحد منه إلي ويجدني أتصرف وأنا مدرك لوضعي .

كانت طريقة قيادة السيارة مثيرة للأعصاب جداً وبدأت أشعر بالغثيان من تراكم الإرهاق مع دخان السيارات الكثيف . منذ اثنين وثلاثين يوماً وأنا أتعرض للظلم ماذا سيفعلون بي أكثر من ذلك ؟ إن كانوا سيأخذونني إلى مكان ما من أجل الاستجواب أيضاً ، فلن أتعاون وإن كنت في طريقي للتعذيب ثانية فسأتصرف مثل طفل يئن . ما من شيء يفعلونه يمكن أن يخترق دفاعاتي . كنت مصمماً على خطتي مهما كانت النهاية قاسية .

توقفت السيارة ، رجعت إلى الوراء قليلاً . شرطي آخر فتح باب السيارة الخلفي وأمرني أن أنزل . تظاهرت بأني غير مدرك لما كان يقوله الشرطي . كنت جالساً مثل ميت فقد عقله أمسك بكيس حاجياتي في حضني أحدق في أرض الشاحنة . صرخ بالعبرية : «انهض ، انهضْ» أخيراً جاء السائق إلى الخلف وأخبر الشرطي بأنني لا أسمع جيداً . ربت على ساقي وأشار لي بيده أن أتبعه .

دخلنا مبنى كبيراً نعبر سلسلة من الأبواب ذات القضبان . اقتادوني إلى الأسفل عبر درَج وأنا أسير بخطواتي البطيئة . في أسفل الدرج كان يوجد ما يبدو أنه حاجز دخول السجناء ، وراء الحاجز العديد من الرجال ببزاتهم الرسمية لم يكونوا يفعلون أي شيء ، كانوا يثرثرون حول مباراة كرة قدم كانت قد عُرضت بالتلفزيون . جرس الهاتف يرن وما من أحد تحرك ليجيب . عندما توقف جرس الهاتف تناول واحد منهم السماعة «ألو ، ألو ! هذا مضحك ما من أحد هناك ! » وضحك . اعتقد الآخرون أنه كان يهذي . كانت تصرفاتهم تصرفات نموذجية لموظفي الحكومة الإسرائيليين خاصة الشرطة . الوقت الوحيد الذي كانوا يبذلون فيه جهداً هو وقت استجواب المشبوهين . «اجلس ،! اجلس» قال مرافقي . وكنت واقفاً هناك أحدق في الفضاء . وضع يده على كتفي وضغط يجبرني على الجلوس على مقعد أمام حاجز الدخول .

سمعت الشرطة يتحدثون عني وراء الحاجز . «هل هذا هو الطبيب الذي سطا على شقة في تل أبيب في الشهر الماضي» . «نعم ، المفروض أن تكون محاكمته اليوم» . فتحت أذني

جيداً ولكنني لم أجازف برفع نظري من على الأرض. لعل أحدهم كان يراقب رد فعلي على تعليقاتهم. إذاً أنا هنا! أحضروني إلى محكمة تل أبيب لمحاكمتي! فكرت. هل يعتقدون فعلاً بأنني بوضع صحي يسمح بالمحاكمة؟ ليحاولوا طوال النهار إذا ما أرادوا والشيء الوحيد الذي سيأخذونه مني سيكون انطباعاً بسيطاً عن نصف طفل نصف ميت خائف. وإذا كانوا يخططون لأخذ إفادة مني فعليهم أن ينتظروا حتى تتجمد مياه البحر الميت.

مضت عشرون إلى ثلاثين دقيقة قبل أن يقودني أحد رجال الشرطة إلى باب آخر ذي قضبان، عبر أبواب ثقيلة معدنية أخرى إلى زنزانة فارغة وأغلق الباب خلفي. لم يكن هناك أي شيء البتة في الغرفة. أربعة جدران اسمنتية ومقعد من الاسمنت. ذكرني المكان بالزنزانات التي كانت تظهر في أفلام الجاسوسية. توقعت أن أسمع صوتاً في أية لحظة أو ماء أو غازاً ساماً يملأ الغرفة. كان علي أن أوقف تلك الخيالات، إن الوقت أخطر من أن أمضيه في الخيال، علي أن أحضّر نفسي للاختبار القادم واستلم عقلي زمام التحكم بينما أنا أجلس على السطح القاسي البارد. تكورت في الزاوية البعيدة للغرفة ممسكاً بكيس أشيائي وحاولت أن أفكر بما تحمله المحاكمة لي. كان علي أن أطرد الخوف من كياني. هدأت نفسي وتذكرت ما كانت تقوله لي شون واحدة من أعز أصدقائي: «عليك أن تجر الحيوية وتبعثها في جسدك!» تخرجنا أطباء معاً وكنت أحمل لها الكثير من الاحترام. ركزت على تحريك القوى في داخلي وبدأت بتوليد شعور بالثقة في جسمي. إنني أمريكي وسأنتصر! إن الله معي! القوة معي! سأنجح، ما من شيء يمكنه أن يوقفني! إنني المنتصر! الرابحون لا يتراجعون أبداً. المنتصرون يربحون فقط.

شعور بالقوة بدأ يندفع بكل عصب في جسدي. كنت أعلم أن الله سيكون معي في محنتي، وهذا الشعور ساعدني في أن أسترخي قليلاً، لم يكن باستطاعتي الجلوس بوضعية مريحة فالسطح القاسي جعل من المستحيل إراحة جسدي وقد أثار منظر الصراصير الزاحفة على الجدران والأرض أعصابي كثيراً! ومع أني لم أعد خائفاً فلم أستطع أن أطرد الشعور بأن أحداً ما يراقبني. وعلى الأرجح أعطاني مرضي ذالك الشعور المتغلغل بأن عيوناً شريرة ترقب كل حركة من حركاتي، ولا بد وأنهم ملوا حيث أني عملياً التصقت بزاوية الزنزانة.

في وحدتي بدأت أفكر بأربيلا . عرفنا بعضنا لمدة تسعة أشهر عشنا ثمانية منها بمستوى حميمي .

وقد أُلقي القبض علي في فترة أقل من شهرين بعد أن افترقنا . لو أنها كانت تحبني فعلاً لاتصلت بوالديّ تسأل عني . لا بد وأن أربيلا تعرف أنه ليس بمقدوري فعل العمل الخسيس الذي أُتهمت به . لماذا لم تسأل عني؟ كنت أفكر فالكثيرون من المهاجرين الجدد في المعتقل زاروا أهلي وسألوا علي ولكن ليس خطيبتي السابقة ، قبل أن نفترق بوقت قصير أُجري لأربيلا عمل جراحي لورم ملتهب في مفصل إبهام قدمها . كنت بجانبها من لحظة خروجها من العملية حتى بعد ساعة من مغادرة آخر زائر في مهجعها . كنت الشخص الوحيد الذي ذهب لزيارتها في اليوم الأول . الحب الحقيقي لا يموت بسرعة ! ولمجرد أن طريقينا كانا مختلفين لا يعني ألا تسأل عما حدث لي . في تلك اللحظة وفي فراغ الزنزانة قطعت صلاتي العاطفية بشكل نهائي مع أربيلا .

فجأة سمعت صوت الباب يُفتح ودخل الزنزانة المقفرة مجموعة كبيرة من الشباب في العشرينات . كانوا عشرة شباب جميعهم اعتقلوا لأنهم كانوا يدخنون المخدرات ، نصفهم كان يدور في الغرفة بينما تجمع الخمسة الآخرون حول مقعدي . ذكر واحد منهم بأن الساعة كانت العاشرة والنصف قبل الظهر وهذا يعني بأنني كنت وحيداً في الزنزانة لمدة ساعة ونصف الساعة . كانت مؤخرتي وظهري يشعران بأثر الجلوس على سطح صلب هذه المدة الطويلة من الوقت ، خاصة وأني كنت قد أمضيت معظم وقتي في الشهر الماضي على فراش المستشفى اللين . لو أنني جلست بوضعية اللوتس لتمكنت من التخلص من تعب جسمي ولكن هذا شيء لا يقوم بعمله صبي في الثامنة من عمره .

رأى شابان أن في كيسي بعض الأشياء وبدؤوا يتحرشون بي . سألوني : « هل لديك دخان؟ ، ماذا لو تعطينا شيئاً نأكله؟ ماذا بك ، ألا تسمع جيداً؟ » أحدهم اعتقد أنه شخص صلب وحاول أن يشد كيسي . صرخت غطيت أشيائي بجسمي وبدأت أبكي .

قال أحد الصبية : « إنه مجنون ! » أستطيع القول أن جميع هؤلاء الشباب كانوا يراقبونني ولكنني قاومت فكرة النظر إليهم . سألت نفسي هل هم مستقبل إسرائيل؟ من المؤسف أن

ليس لديهم مثلٌ أعلى يقتدون به، ما لم يعتبر الإنسان أن هؤلاء البيروقراطيين الذين يديرون البلد شخصيات عظيمة. في كل مرة كنت أراقب إجتماعاً للكنيست على التلفزيون كنت أُدهش للتصرف المقرف الذي كان يصدر عن معظم من يسمون أنفسهم موظفي الدولة. لم يكن هناك كياسة ولا روح تضامن لدى قادة دولة إسرائيل، فلا عجب أن يتصف الإسرائيليون بكل تلك العنجهية. في الكونغرس الأمريكي لا يمكن احتمال مثل هذا السلوك فلدى حكومتي مقياس للسلوك يحترمون التحدث ولا يقاطعون بلؤم من يتصدى لدفة الحديث.

كان الوقت يمضي وقد نفد صبري بسبب انتظاري الطويل. أخيراً فتح أحد رجال الشرطة باب الزنزانة وطلب من الجميع أن يتبعوه. بقيت ساكتاً تماماً بينما الشرطي يصرخ لي «أنت! تعال معي!» لم أبد أية استجابة فاقترب الشرطي مني وضربني على كتفي فكانت استجابة طفل خائف. «تعال! تعال!» قال بالإنكليزية. مشيت وراء الشرطي كرجل آلي غير مبرمج إلى حاجز الدخول. ونظرت إلى الساعة المعلقة على الحائط وكانت تشير إلى وقت الظهيرة. كان ظهري ومؤخرتي اللتان تعرضتا لمقعد الاسمنت المسلح لمدة ثلاث ساعات تؤلماني، ناهيك عن الساعة والنصف التي أمضيتها على المقاعد الصلبة قبل مجيئي إلى الزنزانة.

انتظرت خمس عشرة دقيقة حتى اقتادني شرطي إلى أعلى الدرج الذي نزلت عليه منذ أربع ساعات تقريباً، حاول أن يجعلني أسرع وكنت أسير بخطى بطيئة جداً. أخذوني إلى المكان الذي دخلت منه ووضعوني في سيارة. ماذا يحدث الآن بحق الشيطان! أذكر أني سمعت أحد رجال الشرطة يقول بأن القاضي في الطابق العلوي وبينما أحاول أن أخمن إلى أين هم يقتادونني، صعد المركبة الكبيرة مجموعة من الرجال ذوي السحنات الرديئة. انزويت في زاوية الشاحنة بينما هي تمتلئ أكثر فأكثر. وما إن تكدسنا بها مثل السردين حتى أُغلق الباب، ووقف اثنان من الحراس في القسم الخلفي واندفعنا بعيداً عن البناء الضخم ولم أستطع الاجابة على السؤال إلى أين هم يقتادونني؟.

بينما السيارة منطلقة بدا شيء في القيادة مألوف. بادئ الأمر أحسست وكأن مرضي النفسي يخدعني ويجعلني أتوجس شراً. استمرت الرحلة ثم توقفت العربة وسمعت صوت منبه

السيارة يعيد لذاكرتي ذكريات أليمة. لا يمكن ذلك! لا يمكن ذلك! ببساطة لا يمكن ذلك! عادت السيارة تتحرك ولكن لمسافة قصيرة استدارت بعدها يميناً بعنف، توقفت تراجعت قليلاً ثم توقفت. فُتح الباب الخلفي حيث كنت أجلس وبدأ الآخرون يقفزون من الشاحنة ونظرت خلسة إلى الباب.

كانت كل قطعة من جسدي ترتعد خوفاً! صليت إلى الله أطلب الحماية وأنا أنظر إلى مدخل سجن غرفة الرعب. «إنها نهايتي!» قلت لنفسي وأنا مستسلم لحقيقة الموقف. وعندما نزل آخر الرجال وقفت ببطء ولكن رجلاي خذلتاني. حاولت أن أهدئ نفسي وقلت لأقف وأتجاوز الموقف بسرعة! كانت أطرافي غير ثابتة وأنا أنطلق من مخرج السيارة.

قبل أن أقوم بالخطوة الأولى امتدت يد أمامي تمنع نزولي «لا! أنت ابق!» إنها أجمل ثلاث كلمات سمعتها في حياتي، تهالكت على مقعدي وأخذت نفساً عميقاً وأحسست بالارتياح، لقد نجوت! قلت في نفسي مغتبطاً. كنت قد فكرت أن خطتي فشلت علماً أني لم أعرف كيف. أُغلق الباب وتابعت الشاحنة سيرها منطلقة من المكان المخيف. شعرت بخجل لأنني فكرت بأن الله قد خذلني وشكرته لأنه خلصني من وادي شبح الموت.

عندما توقفت السيارة مرة ثانية كان ذلك مرة ثانية في المستشفى، ورافقني شرطي لم أكنْ قد رأيته من قبل إلى مدخل ملجئي. كانت الرشاشات مازالت هناك بعد وكان الرذاذ يصل إلى الطريق المؤدي للمدخل وأراد مرافقي ألا يتعرض للرش فحاول أن يجعلني أسرع على الاسفلت. ولسوء حظه أصريت على المشي بحركة القوقعة التي اعتدتها وكان الرذاذ المنعش قد طالنا مرتين قبل أن يبدأ الشرطي بإجباري على السرعة. لو أنني مشيت على طريقتي كنا تبللنا تماماً. أخذني الشرطي إلى الأعلى، إلى مهجعي حيث استبدلت ثيابي القذرة ببجاما نظيفة، أحضروا لي طبقاً من الطعام كان قد برد التهمته بسرعة وسقطت في نوم مريح.

وصل أبي الساعة الثالثة بعد الظهر وأيقظني من نومي بلطف، كان في قاعة المحكمة في تل أبيب لساعات عديدة ينتظر أن يُنظر في قضيتي. وعندما أعلم وكيلي أخيراً بأنهم لن ينظروا في قضيتي ذلك اليوم كانت الساعة حوالي الواحدة بعد الظهر. لم يعلم أبي بأنهم سيأخذونني إلى المحكمة ذلك اليوم ولذا جاء إلى المستشفى أولاً. ومن الواضح أنه وصل لزيارتي بوقت أبكر بكثير من المعتاد، وعلم في الساعة التاسعة قبل الظهر بأنهم أخذوني إلى

المحكمة. ولذا كان عليه أن يهرع عائداً إلى تل أبيب ويضيع في متاهة إلى أن استطاع أن يحدد مكان كابي بنيامين. كان محاميَّ لم يعلم إلا في اللحظة الأخيرة، بأن القاضي سيقابلني، ثم وبعد كل تلك الفوضى قرر القاضي ألا يستدعيني ذلك اليوم! بيروقراطية نموذجية!.

أخبرت والدي عن رحلتي القصيرة، عبر السجن، وعن انتظاري من أجل لا شي ومازال لم يكن لديه أي خبر مؤكد من دافيد أرياف عن موعد إطلاق سراحي. لقد دفع دافيد أرياف بأبي والمحامي إلى الاعتقاد بأنني لن أقدم إلى المحاكمة في حال قول الأطباء أنني لا أستطيع تحمل المحاكمة. من الواضح أن أحدهم عارض مسألة عدم أخذي إلى قاعة المحكمة. فمسألة سلامتي العقلية لم تكن لتُناقش لولا حوادث الصباح. كان والدي غاضباً جداً ولكن كان عليه أن يكتم ما أخبرته به ولا بد أن الأطباء سيسعدون بمعرفة أنني مدرك لكل ما حدث لي، فلو أني مريض لكان من المستحيل علي معرفة سجن غرفة الرعب! وكانت الملاحظات التي وضعها أبي للدكتور كوفلر تلك التي صاغها من نفسه. وطلب أن يعلمه المستشفى مسبقاً عندما سيقابلني القاضي مرة ثانية. أخبره الطبيب بأنه سيحاول ولكنه لا يستطيع ضمان أي شيء.

كان يورام سعيداً بعودتي فهو يشعر بالوحدة والضجر لأن كتبي الفكاهية كانت معي. سألني صديقي «أنت أوكي يا سكوت؟» هززت رأسي عندما شاهدت الاهتمام في عينيه. كانت تربطني به ألفة ووئام وعلى الأرجح لم يكن يرغب بآخر يشاركه الغرفة. لقد نما بيننا ثقة محدودة كما هي الحال وأحسسنا بالراحة معاً في نفس الغرفة، وكنت أشعر عندما يدخل الغرفة مرضى آخرون أن يورام يشعر بعدم الارتياح. وقد تعود أحد المرضى واسمه ايغال ايلوز أن يأتي إلى غرفتنا ويقف عند نهاية سرير يورام. كان ذلك يفاقم وضع صديقي إلى ما لا نهاية ويدفع به إلى ثورة غضب. «أيها المجنون، إلى ماذا تنظر؟ اخرج أيها المجنون وإلا سألقي بك خارجاً!» كان ايغال رجلاً فظاً جداً يخافه معظم العاملين في المستشفى. ولكن يورام لم يكن يخافه ولذا كان يقفز من سريره ويدفع به إلى الممر. وهو يصرخ «اذهب أيها المجنون، اذهب!» أكثر ما يغيظ من ايغال كان الطريقة التي يحدّق بها بالناس بتعبير مقرف على وجهه.

لشدة ما أنهكتني الرحلة إلى قاعة المحكمة لم أشاهد التلفزيون تلك الليلة. وبينما كنت نائماً أيقظني صوت صرير درجي. كان الصرير هو المنبه المصنوع محلياً ضد السرقات. فتحت عيوني ووجدت ايغال يبحث في حاجياتي. أخذ جميع قطع الحلوى التي أحضرها أبي وأسرع خارجاً من الغرفة المظلمة عندما وجد أني أراقبه. مشيت على طول الردهة مثل طفل غلبه النعاس إلى غرفة التلفزيون. أبكي مشتكياً إلى فرانسيس بأن ايغال سرق الحلوى من درجي، فواجهت العاملة المريض الضخم الذي أنكر اتهامي، رافضاً أن يعيدها فما كان من يورام إلا أن قفز من أحد كراسي القاعة مندفعاً نحو اللص مثبتاً له على الحائط: «أين الشوكولاته أيها اللص؟ أعدها له وإلا سآخذها رغماً عنك!». كان ايغال أكثر بدانة من صديقي بكثير ولكن يورام كان متماسكاً لدرجة كبيرة أفقدت الآخر توازنه. وفي النهاية أعاد ايغال الحلويات وسلمها يورام لي. أعطيته أحد ألواح الحلوى ثم عدت إلى فراشي لأغرق في نوم عميق.

عندما استيقظت في اليوم التالي مع أول شعاع على صوت زقزقة الطيور كان لدي شعور بعدم الارتياح منعني من النوم فاستلقيت على فراشي محاولاً التفكير بأحداث اليوم السابق. هل كان ذلك مجرد تعقيد كتابي سبب أخذي إلى الشرطة؟ أم أنها لعبة من الحكومة لازعاجي. إن الوقفة قرب السجن بلا شك أرهقتني! ولم أستطع أن أطرد من تفكيري فكرة أن الحكومة تنوي تأخير الحكم النهائي في قضيتي لتتأكد مئة بالمئة من أنني لست بوضع يسمح بإفشاء السر عن محنتي. كنت أركز كل اهتمامي بإقناع الأطباء والحكومة بأنني مريض بالتأكيد ولا أؤذي أبداً. بعد أن قام الأطباء بجولتهم، أصطحبوني إلى غرفتهم. طلب مني الدكتور كوفلر أن أوقع اسمي على وثيقة يفترض أنها تمنع الشرطة من أخذي خارج المستشفى مرة ثانية. تصرفت وكأني أبكم كالعادة وقد جعلت الطبيب يفسر كل شيء لي بأسلوب بسيط. «تريدني أن أكتب اسمي» سأل سكوت روستون الصغير. «نعم عليك أن تكتب اسمك هنا، إذا كنت لا ترغب في أن يأخذك أولئك الرجال كما فعلوا يوم أمس!» قال مشيراً إلى المكان على الورقة حيث كان توقيعي مطلوباً. أمسكت بالقلم بطريقة صبي صغير وكتبت سكوت روستون بخط غير مستوٍ. سألت: «هل هذا جيد؟» نظر إلي الدكتور كوفلر بقرف وخضوع. وهو على يقين بأنه لن يتوفر لديه راشد مثل جون هانكوك.

جاءت أمي لزيارتي بعد الغداء وتعاطفت كثيراً معي لما حدث لي في اليوم الماضي وقد صلت إلى الله ألا يحدث ذلك ثانية. كان ايغال من الوقاحة بحيث قطع الوقت الذي تقضيه أمي معي غير أن يورام دفعه خارجاً. وقد أخبرت والدتي بما فعل. وهكذا فهمت لم تصرف صديقي بهذا العنف معه. أحضرت والدتي معها كيساً كبيراً من الفاكهة الطازجة التي عالجت جوعي وجوع يورام لبقية ذلك اليوم. وشاركني بعض العاملين وبعض المرضى بطعامي وقد حاول الكثيرون من غير المرغوب فيهم أخذ شيء من طعامي ولكن رفيق غرفتي كان يطاردهم خارجاً.

يوم الخميس السابع والعشرين من أيلول، اليوم الخامس والثلاثين لاعتقالي، أخذوني من المستشفى مرة ثانية، قبل أن أتناول طعام الافطار. كان في مرافقتي هذه المرة نفس أولئك الذين اصطحبوني من نتانيا إلى تل أبيب، شورتي وصديقه. وهو لم يغير عادته في قيادة السيارة، مصراً على مسابقة الريح بواسطة ساعد تغيير السرعة. حاول الشرطيان محادثتي ولكني تجاهلتهما تماماً. وصلت إلى قاعة المحكمة في وقت قصير وأخذوني عبر حاجز الدخول. في القبو رافقنا شرطي من الأسفل إلى مصعد قريب من الزنزانة التي وضعوني بها قبل يومين.

لدى مغادرتي المصعد التقيت بمحاميَّ الذي أخذني إلى قاعة المحكمة وكنت أتصرف كغير مدرك لما كان يحدث. أخذوني إلى مقصورة على يسار مقعد القاضي وبينما كنت جالساً في مقعدي أحجمت عن المجازفة ورفع نظري من على الأرض. وكي لا أُفاجأ وأنا غير مستعد أغلقت عقلي عن كل ما كان يدور في تلك الغرفة. أخبرني الدكتور كوفلر أنني لو وقعت تلك الورقة لن يأخذني رجال الشرطة خارج المستشفى، لم كذب علي؟ ماذا كان مكتوباً في الورقة؟ لم أدع ذلك يزعجني فأنا لم أوقعها بإمضائي القانوني.

سارت الاجراءات لفترة ما بينما أنا غافل عن كل المناقشات التي تدور. ومضى بعض الوقت قبل أن يتقرر أن وجودي ليس ضرورياً. شعرت بأحدهم يمسك بذراعي ويشير لي أن أقف. كان ذلك والدي وقد اقتادني إلى الزنزانة الصغيرة بين قاعة المحكمة والمصعد « هل هذا أنت يا أبي؟» همهمت بصوت خافت. « نعم، لا تقلق كل شيء سيكون على ما

يرام ». هدأني والدي بينما تابعت تصرفاتي أمام الشرطة ولم أتح الفرصة لشورتي وزميله أن يرياني إذ كنت ملتصقاً بوالدي. بعد ذلك دخل محاميٌّ السيد بنيامين الغرفة وأخبر والدي بأن القاضي لا يعتقد أن من الضروري أن أحضر المحاكمة وأنه حكم بمجرد النظر إلي بأنني غير قادر على أن أُحاكَم في قاعة المحكمة . لم أكن أعلم ما قيل في قاعة المحكمة بينما كنت في عالم أحلامي ، ولكن أياً كان ذلك ، فهو لصالحي !.

عندما انتهى السيد بنيامين ووالدي من حديثهما عدت إلى المستشفى ، وكان طعام الغداء سيقدم بعد ساعتين فأكلت بعضاً من الفواكه لأهدئ جوعي . بعد حوالي نصف ساعة سمعت صوت والدي عند غرفة كبير العاملين وكان قد قص للدكتور كوفلر ما حدث في المحكمة . بعد ذلك دخل والدي غرفتي وابتسامة عريضة على وجهه . لوقت طويل لم أشاهد تعبيراً سعيداً على محياه وشرح لي ماذا حدث بالتفصيل في جلستي الثانية .

« لقد اعتمد القاضي بحكمه أساساً على تقرير الأطباء. وأمر بإحضارك إلى قاعة المحكمة فقط ليرى كيف هي حالتك . وبما أنك تصرفت وكأنك ذاهل وغير مدرك تماماً لجميع محاولات محادثتك ، قبل بتشخيص الأطباء كدليل مناسب بأنك قاصر عقلياً ، وقال أن توصياته ستحتاج ليومين ، غير أن السيد بنيامين واثق من أن المحكمة ستوافق على اقتراحه بإطلاق سراحك لوصاية والديك. الشروط الوحيدة التي يضعها القاضي هي أن نبرز له بطاقة طائرة باسمك وبأن نثبت بأننا سنوفي التزاماتك المالية قبل مغادرتك البلد . كل شيء بدا جيداً عدا ما يتعلق بتصفية ديني . قال والدي « حاولت الاتصال بالسيد أرياف من أجل بطاقات الطائرة وسأهتم بالقضايا المالية الأخرى . وطلب إلينا صديقنا من جنوب أفريقيا بألا تقلق. فهو لن يمنعنا من مغادرة إسرائيل بسبب عدم سداد الأموال التي أقرضنا إياها. وقد أخبرني أنا وأمك بأن نهتم فقط بمسألة عودتك إلى البلد وبأن حالتك جيدة ». سألته « ماذا عن دراجتي النارية والشقة ؟ ». « لدى تيد ليبرمان صديق سيحاول بيع دراجتك الموندا ، وبالنسبة للشقة إني أحاول الاتصال بمايكل بارتوف عله يعيد لنا أجرة السبعة أشهر الباقية ، وهي ٢٤٥٠ دولاراً وهو يعلم أننا بحاجة ماسة للنقود . وأخشى أن يستغل حاجتنا ». إن فكرة ألا يكون صاحب البيت عادلاً في إرجاع الإيجار أغاظتني « ماذا عن المفروشات

والمعدات التي اشتريتها للشقة، لقد دفعت ما ينوف عن الثمانمئة دولار ثمنها». رأى والدي كم كنت منزعجاً وحاول أن يخفف من حدتي . «كل ما عليك أن تقلق عليه هو خروجك من هنا ، دع المشاكل المالية لي».

كانت ما تزال هناك مسألتان على والدي أن يهتم بهما في تل أبيب ولذا تركني بعد أن قدم لي طعام الغذاء مباشرة . بعد الوجبة كنت غير مستقر بعد بسبب العقبات التي مازالت تعترض حريتي . وتابعت التفكير بها . كنت قلقاً حول ما سيحدث مع مايكل بارتوف . لن يدهشني أن يكون يوجين واليزابيت قد اتصلا به من أجل ألا يدفع لنا بقية الأجرة وتخيلت أن يكون يوجين وصديقه آفي معنيين بما سيحدث لي . هما أيضاً لا يريدان أن يرياني حراً إذا ما كنت أمثل المرض . لم أكن أعرف الكثير عن آفي ولكني أعرف الكثير عن يوجين . فهم لا يرغبون أن ينكشف تدبيرهم قصة سطوي على بيت كن وكيف سيكون شعور عائلة كن إذا ما انكشف أنهم أدلوا بإفادة كاذبة وقد حلفوا اليمين؟ كنت أتساءل ما إذا كانت المحاكم الإسرائيلية ستقاضيهم على اليمين الكاذبة .

كان جسدي وفكري تعبين من تعب النهار، مما دفع بي إلى النعاس الشديد . وكان الطقس حاراً في ذلك الوقت من النهار والراحة مستحيلة ، خلعت القسم الأعلى من البجاما في محاولة لمقارعة الحرارة . ثم تسللت نسمة إلى الغرفة جعلتني أشعر بالراحة . وانجرفت إلى عالم الأحلام تاركاً جميع متاعبي ورائي .

الفصل الثاني عشر

معاملة جديدة

« استيقظ يا سكوت ، سكوت » فتحت عيني لأجد يداً ممسكة بحبتين دواء صفراوتين أمام وجهي . كان داني العامل ذو الشعر الأشيب يقدم لي الحبتين بإلحاح . وضعهما في يدي وأمرني أن أضعهما بفمي وأبلعهما مع الماء . وقد دفع لي بكأس ماء بلاستيك وهو يشير لي أن آخذ الدواء . وفي جزء من الثانية قررت ماذا أفعل . وضعت الحبتين في فمي ودفعت بهما لتحت لساني وتظاهرت بأني أبللهما بالماء . وعندما فرغ الكأس ناولته إلى داني .

سكوت ، افتح فمك ! امتثلت لأمره وأرخيت فكي مخفياً الحبتين . ولما اطمأن إلى أني أخذت الحبتين ترك غرفتي .

كان قلبي يخفق بسرعة ميل في الثانية . تنهدت ! إن لم يكن القاضي سيقاضيني فلمَ يعطوني الدواء إذن ، كنت أفكر . كنت سعيداً أن داني لم يطلب مني أن أرفع لساني حيث يُفترض بطفل له ثمانية أعوام ألا يعرف بهذه الحيل . تركت السرير وذهبت إلى المغسلة في غرفتي حيث تخلصت من الحبتين في الجرن ، ومن ثم غلست فمي جيداً لأتخلص من آثار الدواء من تحت لساني . عدت إلى فراشي واستعدت نفس الوضعية التي كنت بها عندما دخل المستخدم الغرفة .

ما هو نوع الدواء ذاك؟ سألت نفسي. أعتقد أن داني أعطاني إما منشطاً أو ميقظاً أو نوعاً من أدوية أتمنى ألا يكون. لم يكن هناك أي طريقة لمعرفة الدواء إلا أن أراقب رد فعل العاملين على سلوكي. كنت محظوظاً أن حبات الدواء كانت مغلفة وإلا لذابت تحت لساني وسرى مفعول الدواء في دمي.

الشيء الوحيد الذي كان بإمكاني أن أفعله حينذاك هو أن أتظاهر بأنني نائم وأراقب تصرفات العاملين. بعد ساعة تقريباً كان داني وداهجو خارج غرفتي وقال داني بالعبرية «غريب، أعطيت سكوت أمفيتامين منذ ساعة ومايزال نائماً!» «لا تقلق، من الممكن أن الدواء لم يفعل بعد، عد إليه خلال ساعة وإذا كان مايزال نائماً سأعلم الطبيب» أجابه المستخدم الأسود. إذن كان للسرعة! لا يريدني الأطباء في الفراش، حسناً سيكون لهم ما يريدون ولدى مراقبتي لتصرفات المستخدمين أيقنت بأن الأطباء أخبروا القاضي في تقريرهم أني أمضي طوال اليوم في الفراش؛ وطلبت المحكمة إلى الأطباء إعطائي منشطاً. انتظرت بضع دقائق وانطلقت أقطع الردهة. كم سيمضي قبل أن يطلقوا سراحي؟ كنت أسأل نفسي دائماً. كان خطراً جديداً علي أن أحذره إذن هو التخلص من حبات الدواء. فإذا ما اكتشف الأطباء بأني لم آخذ الدواء فسيعرفون بأني أتظاهر بالمرض. كانت الأوامر لديهم أن يقرروا تماماً بأنني أعاني من انهيار عصبي وبأني لم أكن في وضع يسمح بأن أتبين ما حدث لي.

في الساعة الثالثة بعد الظهر، الوقت المحدد لتوزيع الدواء أعطوني حبة أخرى وطلب مني داني أيضاً أن يرى داخل فمي ونجحت في إخفائها تحت لساني مرة ثانية وبلا مبالاة دخلت دورة المياه وأرسلت حبة الدواء في المجاري. وبعد تأكدي من أن أحداً لا يراقبني غسلت فمي مرة ثانية. كانت بعض البقايا الصفراء موجودة تحت لساني وكانت من غلاف الحبة. كنت حريصاً حول إزالة جميع آثار الحبة من فمي ومن المغسلة.

عندما وزعت أدوية المساء في الساعة السابعة بعد الظهر لم يعطوني أية عقاقير. لم ترغب هيئة المستشفى في أن تجعلني أتمشى في الممرات خلال الليل ولذا لم يعطوني دواء في المساء. كان اليوم الخميس وهذا يعني موعد برنامجي المفضل بالإنكليزية (فوق ــ تحت)

وكنت طيلة مراقبتي البرنامج أتململ بعصبية في كرسيي . كان داهجو وصوفي يراقباني ، وددت أن أقنعهما بتصرفاتي . بعد نهاية البرنامج بدأت أتمشى في الممر حتى تعب داهجو من خطواتي المجرورة جراً . قال لي : « سكوت اذهب إلى فراشك ! » تجاهلت طلبه وتابعت المسير . وكان على المستخدم أن يعترض طريقي كي يجلب انتباهي . قال المستخدم الأسود « اذهب إلى فراشك الآن » وكنت لا أرغب بإثارة أي متاعب فاحترمت طلبه .

لقد أفادني ذلك المشي كثيراً ، إذ لم يكن لدي أي تمرين آخر . كان يوجد في نهاية الممر فجوة صغيرة . كنت كلما أصل إلى تلك الزاوية المنعزلة بعيداً عن أعين الآخرين أقوم ببعض التمرينات السويدية كي أحافظ على مرونة ظهري ، وكان ذلك لبضع ثوان كي لا أثير الفضول . كان يوجد معنا مريض مسن ، الكل يدعوه بوب لأنه يشبه البحار المشهور وكان غالباً ما يتبعني في رحلاتي عبر الممر . وعندما أرسلني داهجو إلى فراشي تبعني بوبي وقد حاول بادئ الأمر الاستلقاء بجانبي على الفراش ولكني طردته ومن ثم قرر أن يتجه كي ينام في فراش يورام الأمر الذي كان خطيئة كبيرة .

فقد عاد صديقي بعد أن ذهب يبحث عن دخان . دخل إلى الغرفة المظلمة ليواجه شخير بوبي العالي . فصرخ ، « انهض من سريري أيها المجنون ! » أعجبتني الطريقة التي كان يدعو بها صديقي الآخرين بالمجنون . وكان من الصعب أن أمسك نفسي عن الضحك لمنظر يورام وهو يحاول إزاحة الجسم المسترخي من على فراشه والرجل المسن يسأل بالألمانية ما هو الموضوع .

أخيراً طرد يورام الرجل من فراشه وألقى به خارج غرفتنا . نظر باتجاهي ووجد أني كنت نائماً خلال تلك العملية التي تمت في الظلام . فجلس على كرسيه كي يرتاح وفجأة قفز بوبي إلى داخل الغرفة . وتصرف وكأنه يصوب علينا برشاش « آك ، آك ، آك ... » صرخ صديقي « أيها المجنون اخرج من هنا ! » .

فأجاب بوبي بأن ضرب كعبيه معاً وحيّا يورام على الطريقة النازية وهو يصرخ « يا هغول مجنون » ثم وجد نفسه جالساً على الأرض في الردهة . أعاد الأمر ثانية ثم حمله داني وداهجو .

لم يكن من السهل الحفاظ على سلامتي العقلية في قفص المعتوهين ذاك ولكني كنت أعلم أنه كي أستطيع البقاء فعلي الحفاظ على ذهن صاف وتمسك قوي بالواقع . وكان سلوك يورام الذي عمل كمدافع عني قد نفى الحاجة عندي للدفاع عن النفس وانكشاف أمري في أني أعرف من فنون القتال أكثر مما لدى صبي في الثامنة . لم أعد أشعر بأن يورام كان جاسوساً علي ، ولكن بقيت إمكانية أن يستجوب من الأطباء حول تصرفاتي . ولم يسمح لي نظام الدفاع عن النفس الداخلي الثقة به لدرجة تعريض نفسي للخطر . ولم أقض الأيام الخمسة والثلاثين الماضية لأجازف بكل شيء من أجل شخص لا أعرفه ! .

في صباح اليوم التالي أيقظوني الساعة السابعة صباحاً عندما كان الدواء يوزع ولم تتأكد صوفي ما إذا كنت قد بلعت الحبة الصفراء أم لا . وتخلصت منها فوراً وشكرت الله لأني كنت أستطيع التخلص من الدواء بسرعة ورجوته أن يساعدني في الاستمرار بذلك ،وفكرة إخبار أهلي بمسألة الدواء وضعتني في مأزق . فإن أخبرتهم قد يظهرون عن غير عمد بأني أخبرتهم . وهل سيعتقد الأطباء أنه مقبول مني كولد في الثامنة أن أفهم بأني أتناول دواء ؟ من الأفضل أن يكون أحد والديّ بزيارتي أثناء توزيع الدواء . نعم هذا ما سأفعله . وقد استجاب الله لدعائي أسرع مما كنت أتوقع فقد حضر والدي لزيارتي ذلك الصباح في العاشرة والنصف ، وكان حاضراً أثناء توزيع أدوية الساعة الحادية عشرة فذهب مباشرة لمقابلة الدكتور كوفلر يسأله عن سبب إعطائي الدواء وماذا كان . « يريدنا القاضي أن نساعد سكوت بينما هم يحضرون أوراق الافراج عنه ولم نستطع معالجته حتى بتتُّ المحكمة في قضيته . وبما أننا نستطيع معالجته لا نريده أن يبقى مستلقياً في فراشه طوال اليوم . ألا تريده أن يتحسن دكتور روستون ؟ » قال لي والدي أنه لا يعتقد أنه من المفيد مجادلة الطبيب . « لا تدع ذلك يقلقك . بابا ، بامكاني التظاهر بأنني متعاون معهم بحيث يعتقدون بأني أبلع الدواء » ولم أرغب في أن يعرف أني كنت خائفاً من أن أُضبط وأنا أتخلص من الحب . فلدى أهلي ما يكفيهم ليقلقوا عليه . كنت مندهشاً لرؤية أبي مبكراً ولكنه أوضح لي بأنه التقى مع محاميّ في الصباح الباكر ،وكان السيد بنيامين ينهي بعض الأوراق المتعلقة بقضيتي قبل عطلة السبت « أخبرني كابي في لقائنا عن أشياء ستريحك ،قال لو كنت قادراً على أن تحاكم ووجدوك مذنباً فستُحكم عشرين سنة سجن على الأقل ، وقال أيضاً لو كنت مذنباً بالجريمة فالحكومة لن

تطلق سراحك أبداً. ثم قال إن المحكمة وعلى الأرجح بأمر من الحكومة ترغب بأن تكون قضيتك هادئة جداً وترغب بتجنب الدعاية وقال بأنه يشعر أنك برئ وبأنه سيعمل ما في وسعه ليسرع في إخلاء سبيلك ! » إن مثل هذه الأخبار الجيدة تساعدني في تحمل انتظاري .

ثم تجهم وجه والدي وقال « أود أن أخبرك شيئاً آخر قد يكون مزعجاً ، فوالدتك لا تريدني أن أخبرك عنه حتى نتأكد تماماً » « تتأكدون من ماذا ؟ » سألت . « هل تتذكر ، لقد أخبرتك بأني أرسلت رسالة إلى بيغن ؟ » هززت رأسي وتابع والدي . « حسناً ، بعد أسبوع بدأنا نلاحظ بأن بعض الرسائل تصلنا مفتوحة . بادئ الأمر كانت الرسائل القادمة من الولايات المتحدة . ولكن خلال الأسبوع الماضي ، تقريباً جميع رسائلنا عُبث بها . لحسن الحظ لم نكن قد أخبرنا أحداً عن سبب وجودك في المستشفى . وبعض الأصدقاء هنا في إسرائيل يعرفون بأنه أُلقي القبض عليك وبأنك في المستشفى ، بالطبع لم نخبرهم بأنك تتظاهر بالمرض . وأياً كان يعبث ببريدنا سيخبر المحكمة وستنتهي في السجن . لقد أخبرنا العائلة في أمريكا بأنك تعاني من حالة اكتئاب خفيفة بعد انفصالك عن أريلا . لا يمكننا المجازفة واخبارهم ما حدث فعلاً وإلا ستتدخل الحكومة والاعلام ولو حدث ذلك قد نخسرك كما حذرنا السيد أرياف ! السبب الوحيد الذي يدعوني لأن أخبرك بذلك هو لأنني أريدك أن تستمر بالشعور بالمرض ولديك الأسباب للشعور بذلك . كن في غاية الحذر ولا تثق بأحد سواي ووالدتك » .

بالتأكيد أرضاني كثيراً أن أعرف أنني لم أتخيل أن البعض يتربص لي . وكنت سعيداً لبعد نظر والديّ حيث أنهما لم يخبرا الأقارب بحالتي الحقيقية . إن للحكومة يداً في التجسس على بريدنا وكما هو واضح اتخذت جميع الوسائل للتأكد من صحة مرضي . إن ما حدث لي بمجموعه جعلني أتحقق كيف تخاف الحكومة الإسرائيلية من مسألة تسرب بعض الحقائق عن طريق قضيتي . وهذه القناعة صلبت من إصراري على الوقوف في وجه حيلهم . كانوا فعلاً خائفين من أن يعرف العالم كم من الظلم وقع في بلدهم المفترض أنه ديمقراطي . وكيف سيكون رد فعل العالم لو عرف أن إسرائيل دولة بوليسية مثل ألمانيا النازية ؟ إنني لا ألوم شعب إسرائيل .

ألم يعتقد يهود ألمانيا النازية بأن المحرقة وحرب الابادة مستحيلة الحدوث؟ نفس النوع من الناس الذين غرروا بيهود ألمانيا النازية إلى شعور بالأمن يفعلون نفس الشيء بشعب إسرائيل. «شيء ما يجب أن يُفعل ليفتح عيون الناس على حقيقة الأوضاع في إسرائيل!» قلت لأبي. كنت أعرف أني سأبقى بطريقة ما وسأخبر العالم عما حدث لي كي أمنع حدوث نفس الشيء للآخرين. «إذا ما قُدر لي وخرجت من هذه المحنة وعدت لوطني. يعلم الله أني سأنشر قصتي بأكملها. وأعتقد أن الله لن يسمح لي بفضح شيء عن الأرض المقدسة ما لم تكن هذه إرادته!» وافقني والدي على ما قلت. وكنت أعلم أني سأخرج منتصراً عندما أواجه الاختبار النهائي. إحساس بالسعادة غمر جسدي وكأن يد الرب كانت تمس روحي. وكل شكوك ساورتني عما إذا كان صحيحاً أن أطلق الصافرة في الأرض المقدسة أزاحها الشعور بأن هذه هي المشيئة الإلٰهية.

يبدو أن مدة مراقبة يورام قد انتهت ونُقل إلى المهجع المفتوح. وطلبت من والدي أن يسأل متى ستنتهي مدة مراقبتي، قال الطبيب بأنه إذا ما توفر مكان يمكن نقلي أيضاً من مهجع الأمن. وبعد أن بحث والدي وجد أنه يوجد سرير فارغ في غرفة يورام الجديدة. جمعت حاجياتي وودعت المكان الذي أقمت فيه ثلاثاً وثلاثين يوماً. كان في الغرفة الجديدة اثنان آخران وكلاهما يبدو سليماً أحدهما كان ملتحياً بلحية كثيفة، أقصر مني واسمه باليبزي، والآخر مايكل غولد شتاين كان أطول مني له شارب ويعزف الغيتار. عندما وضعت حوائجي قرب السرير الفارغ أخبرني مايكل بأن أحدهم قد سبقني إلى السرير ولكنه سيتغيب لبضعة أيام، يمكنني البقاء حتى عطلة نهاية الأسبوع ولكن علي أن أكون مستعداً لترك السرير عندما يعود.

اطمأن أبي كثيراً لإخراجي من غرفة المعتوهين وتركني وهو سعيد. مضت عطلة نهاية الأسبوع هادئة دون أحداث. ربما لأنه كان يوجد عطلة فقد سمح لكثير من المرضى بزيارة عائلاتهم وقل عدد العاملين بسبب العطلة. كنت أُعطى حبة ثلاث مرات يومياً جميعها أصرفها في المرحاض. كنت ويورام نقتسم طعامنا مع مايكل وباليبزي. وجد مايكل أني كنت مكتئباً جداً فحاول الترفيه عني بالعزف على غيتاره ولم أشأ أن أبدو متجاوباً مع الموسيقى

فبقيت في حالة الحزن. وأصبح النوم ليلاً أسهل لأنه لم يكن علي أن أستمع لخطوات مونسيور وصخبه. وكانت وجبات الطعام تُقدم في غرفة الطعام في الأسفل وكذلك وجبات المرضى من النساء في نفس الغرفة إلا أن المطبخ كان يفصل الرجال عن النساء.

وكلما أعلن العاملون عن وقت الطعام أبقى في فراشي أتصرف وكأني غير مدرك لما كان يحدث. وكان على أحد الموظفين أن يدعوني شخصياً إلى الطعام فأتبع يورام مثل الظل وأبقى قريباً منه طوال الوقت. استهوت صديقي إحدى المرضى من النساء فتبعته إلى مهجع الرجال ثم إلى غرفتنا. كان اسمها تشانا. كانت جميلة نسبة إلى بقية النساء في المستشفى واختبأت تشانا في إحدى زوايا الغرفة أملاً ألا يحس بوجودها أحد على الأقل من العاملين.

نظرتُ إلى يورام وسألته «يورام هل أنت راغب بي؟» وأمسكت بيده. كاد يورام أن يقطع رأسها وهو يصرخ بها «هل أنت مجنونة؟ هل تعلمين ما يحدث لي لو ضبطت معك؟» لم ترق لمايكل فكرة وجود تشانا في الغرفة فنادى داني الذي أرسلها إلى مهجع النساء. هز يورام رأسه بقرف وقال: «إنها مجنونة!» وبدأ مايكل وبالبيزي يضحكان عندما سمعا تشانا تصرخ من الأعلى «يورام، يورام يا حبي! تعال وخذني إنني لك!» ارتمى صديقي على الفراش وغطى أذنيه بالوسادة محاولاً خنق الأصوات الموجهة إليه. كان علي أن أعض داخل فمي كيلا أُظهر أني كنت قادراً على فهم ما يجري. وتابعت قراءة مجلاتي.

انتهت العطلة مساء السبت بعودة جميع الذين سُمح لهم بزيارة عائلاتهم وعاد الشخص الذي أخذت سريره واسمه غولد شتاين أيضاً، وعندما وجدني في فراشه أصيب بنوبة. كان متعوداً أن يقترض ورق اللعب وقصصي الفكاهية، ولكنه نسي كل شيء وسحبني من الفراش. وأخبرني مايكل بأن غولد شتاين هذا كان ينام في هذا السرير على مدى سنة ونصف الأمر الذي فسر موقفه تجاه وجودي هناك. وبالتالي كان علي أن أحزم حاجياتي وأجد غرفة أخرى.

لم أرغب في أن أبدو ذكياً وأسأل عن غرفة أخرى، فجلست في غرفة التلفزيون وقد تجمعت مع أشيائي في إحدى زوايا القاعة لمدة ساعة تقريباً قبل أن يلاحظ وجودي داهجو وقد أمسكت بكيسي. هز العامل الأسود ركبتي وقال «سكوت ماذا تفعل؟» صرت أبكي

مثل طفل وأجبت: «لا يوجد لدي مكان أنام فيه!» بعد أن فتش في الغرف، أخذني إلى سرير في غرفة بعد غرفة يورام بنيامين. أفرغت حاجاتي على السرير ـ نظفت خزانتي الجديدة ورتبت أشيائي فيها. كان السرير خلف الباب مباشرة في زاوية الغرفة مما يجعل من الصعب رؤيتي من الممر. أي قدر من الخصوصية كنت أحصل عليه كان يساعدني كثيراً.

في غرفتي عجوزان لا يتكلمان الإنكليزية أحدهما يُدعى مويشا من النوع الهادئ عدا أثناء النوم. في بعض الأحيان كنت أعتقد أن شجرة ستسقط من الطريقة التي كان يشخر بها. المريض الآخر كان رافائيل ولكن الجميع كانوا ينادونه بالجد بالعبرية. سمعت قصة فظيعة حول وجود رافائيل في مستشفى الأمراض العقلية. لسنين عديدة كان يجلس في مقعد معين في الكنيس الذي يذهب إليه. في أحد الأيام وجد رجلاً آخر يجلس في كرسيه فما كان منه إلا أن أخذ فأساً وضرب به رأس الرجل. مات الرجل وجيء برافائيل إلى مستشفى الأمراض العقلية. لم يبد لي كقاتل، ولذا لم أتصرف حياله بشكل مختلف عن الآخرين كنت كعادتي أتجاهل الجميع.

يبدو أن أحداً من الموظفين لم يعرف أين كنت عندما جاءت أمي لزيارتي يوم الاثنين في الأول من تشرين الأول. سمعت صوتها ولكني لم أجرؤ أن أدع أحداً يحس بذلك فبقيت في فراشي. لحسن الحظ وجدت والدتي يورام الذي دلها على غرفتي الجديدة. وقف روف على باب الغرفة لعدة دقائق يتابع كل حركة أقوم بها. لم يكن يبدو أنه يراقبني بحدته المعهودة.

أول ما كنت أتوق سماعه من أمي هو أنه سيُطلق سراحي قريباً. «آسفة، سكوت، قال السيد أرياف يجب أن تنتهي الأوراق في أي لحظة من اليوم. وأبوك يحثه باستمرار ولكنه رجل متعجرف، ويعلم أن له اليد العليا. وقيل لنا أن ننتظر وأنه إذا ما قرر القاضي عدم صلاحيتك للمحاكمة فالموضوع هو مسألة وقت بعدها تستطيع العودة معنا».

كانت أمي سعيدة كونها وجدت رجلاً لطيفاً يقاسمني الغرفة. وأسعدني رؤيتها بمزاج مسترخ. ولذا لم أخبرها عن رافائيل فكرت بأنها سترتعد إذا ما أخبرتها بأن رافائيل فتح رأس رجل بفأس! الشيء الوحيد الذي كان يهمها هو أن أكون حريصاً عند تخلصي من الدواء. لقد أمضيت تسعة وثلاثين يوماً في الحجز وهي تعرف أنني أحسن التصرف إزاء جميع

المشكلات التي يمكن أن تواجهني . ولكن فكرة امكانية اضطراري لبلع حبة الدواء خشية انكشاف أمري أزعجتها . على أية حال ارتاحت عندما وجدت أنني أتخلص من الدواء بسهولة .

لم أتلق أية أخبار من والديّ لعدة أيام . كانوا يزورونني خلال أيام الأسبوع يحضرون لي الطعام ، يلاعبونني ألعاب الأطفال ويمنحونني التشجيع الذي لديهم . كانت تصلني حبات الدواء بانتظام ثلاث مرات يومياً وأتخلص منها بسهولة . الأكل في غرفة الطعام كان يسوء ويسوء ولكن كنت أجبر نفسي عليه من أجل المحافظة على قوتي . استعدت ستة أرطال من وزني الذي أصبح ١٢٧ رطلاً . علماً بأنني كنت أنقص ١٣ رطلاً من وزني الطبيعي . ولكن علي أن أشكر الخدمات الصغيرة . كنت لم أقص شعري لمدة ثلاثة أشهر وكان فعلاً يطول . كان الحلاق يزور المستشفى مرة في الشهر ولكني لم أرغب في أن يعبث أحد برأسي فكنت أتوارى عن الأنظار عند قدومه . كنت أقول لنفسي طالما أن الإفراج عني غدا قريباً فأنا أفضل الانتظار حتى عودتي إلى بلدي فأقصه . وكنت قد تعودت على مدى ثلاث سنوات أن أرتب شعري في صالون حلاقة كبير للجنسين في سيدار هيرست بنيويورك اسمه هارفي بلإس . وكانت دونا سمراء جذابة ترتبه لي دائماً بشكل يثير إعجاب الآخرين ، فلن أدع جزاراً يعبث بشعري مما يعني شهوراً من العمل لإصلاح التخريب الذي سيقوم به .

يوم الأحد السابع من تشرين الأول كان اليوم الخامس والأربعين لسجني عندما أخبرني والدي بأنه تلقى أخيراً رداً من رئيس مجلس الوزراء بيغن في الخامس من تشرين الأول .

مكتب رئيس مجلس الوزراء

القدس

٢٦ أيلـــــول ، ١٩٧٩

٩٢٦٤٠١١

د . ساي روستون

ميخموريت

إسرائيل

السيد الدكتور روستون :

لقد وصلت رسالتك الموجهة للسيد رئيس مجلس الوزراء بيغن والتي تطلب بها أن يتدخل لصالحك في القضية التي أثرتها . لقد قرأنا رسالتك باهتمام بالغ وأزعجنا أن نعرف المصاعب التي تواجهك في مسألة استيعابك في إسرائيل .

لقد اتصلنا بالسلطات المعنية كي تنظر في موضوعك ، وتقدم المساعدة الممكنة . لا بد وأن تسمع منهم قريباً .

مع أحلى الأمنيات للعام الجديد .

المخلصة

الآنسة ايلانا بينينشتوك

لماذا يجب أن أنتظر أكثر من شهر لأحصل على رد بيغن ؟ كنت أعلم أنه لو أراد لأطلق سراحي فوراً ! ربما كان هو المعني في قول الدكتور كوفلر « تريد الحكومة أن نتأكد تماماً من أن سكوت مريض . وحذرت من أنه سيكون من الخطر الشديد إذا ما أُطلق سراحه وتبين بعد ذلك أنه سليم . فيمكن لسكوت أن يعطي الصحافة قصة مؤذية لو كان يتظاهر بالانهيار . إنهم لا يريدون لحقائق تعذيب سكوت عند الشرطة أن تنكشف علينا اتخاذ الاحتياطات الضرورية للتأكد من أن سكوت فعلاً مريض » هذا يفسر عدم إطلاق سراحي للآن ! هذه الرسالة من مكتبه لا تذكر أي شيء محدد كتابة ربما لأنه خشي أن أستعملها ضد إسرائيل إذا ما كنت أتظاهر بالمرض وأنوي فضح القصة بأكملها .

ما لا تعرفه الحكومة ولا تريد أن تعرفه هوأنه ليس بنيتي نشر قصة تسيء إلى الشعب في إسرائيل . فالذي أقصده هو حكومة إسرائيل البيروقراطية التي تسمح بهذا التقليد المضحك للعدالة وهم بإطالتهم فترة سجني يزيدون كراهيتي لهم . كنا نتبارى في صراع مميت كانت لي اليد العليا فيه . فهم لا يعرفون ما إذا كنت مريضاً أم لا ولكنني كنت أعرف تماماً ما يجب علي أن أفعل لأخدعهم.وإذا ما حدث واستطاعوا خداعي لأكشف عن نفسي فسيكون ذلك نهاية حياتي . على أية حال ، إذا ما نجحت في إقناعهم بأنني لست بذي خطر على الحكومة فسيرون أنه من الأفضل إطلاق سراحي من أن يروي والدي قصة ما حدث لي . كان بنيتي

عندما أغدو طليقاً أن أنشر الحقائق وأفضح حكومة إسرائيل وأتهمها . كنت آمل أن تكون النتيجة النهائية هي تجديد الحكومة بحيث تصبح دولة إسرائيل البلد الديمقراطي الحر الذي ناضل دافيد بن غوريون طويلاً كي يوجده !.

فكرت طويلاً بهذا التأخير الطويل في إنهاء أمر إخلاء سبيلي . ولكن بعد أن عرفت ردّ مكتب بيغن خلصت بهذه النظرية : فالحكومة كانت خلال دافيد أرياف تقول باستمرار « حالاً ، حالاً » كوسيلة لاكتشاف ما إذا كنت أتظاهر بالمرض . كانوا يرغبون في أن يخلقوا لدي آمالاً ثم يبددونها محاولين نسف برودي وبعد أن قبلت بهذه المقولة غدوت قادراً على التأقلم مع انتظاري دون كثير من القلق والتوتر . وعندما قال والدي ، « ستكون حراً في أي ساعة اعتباراً من الآن » بدأت أقول ، « فقط أخبرني متى ستستلم بطاقات الطائرة وكيفية إخلاء السبيل ! وحتى ذلك الوقت ، سآخذ الأمور يوماً بعد يوم ».

بعد معرفتي برسالة بيغن ببضعة أيام واجهت لقاء غير متوقع ! كان داهجو يوزع دواء الصباح عندما أعطاني حبة الدواء ، لسبب ما وضعتها بسرعة في إحدى جيوبي بدلاً من أن أضعها تحت لساني كما أفعل عادة . لم يلحظ أحد خفة يدي وكان داهجو قد ذهب للحظة ليحضر لي كأس ماء فلم يدرك ما فعلت . بعد أن شربت الماء طلب العامل الأسود مني أن أفتح فمي . فعلت كما أمر ولكنه قال بعدها « دعني أرى تحت لسانك ! » لم يسألني أحد من العاملين أن أرفع لساني . وبعد أن تأكد داهجو من أن كل شيء نظامي سمح لي أن أعود إلى غرفتي . في تلك اللحظة أحسست وكأن يد الله قادتني في تغيير روتيني المعتاد في التخلص من الدواء ومرة ثانية خرجت منتصراً !. أحد الأشخاص من غرفة يورام ، مايكل غولد شتاين ، تشاجر مع الآخر الذي طردني من سريره وكان يبحث عن سرير خال ولاحظ وجود واحد في غرفتي وهكذا أصبح الشريك الثالث في غرفتي . وكون الأطباء كانوا يرغبون في أن أصبح أكثر تعاوناً بسرعة أكبر ، طورت سباقاً جديداً للتواصل . فكل من أراد محادثتي عليه أن ينادي اسمي ثلاث مرات ، الأمر الذي يجعلني أدير رأسي ببطء باتجاهه ، وإذا ما سُئلت سؤالاً ينم عن خطر أضع على وجهي ببساطة نظرة مرتبكة وأنظر بعيداً وأعود لعالم أحلامي . وكنت أستجيب لكلا السياقين القديم والحديث وقد أثبت كلاهما أنهما طريقة

مفيدة تحافظ على دفاعاتي في حالة جاهزية . كان مايكل يتكلم الإنكليزية جيداً ، ولذا كان علي أن أبقى حذراً طوال الوقت .

مضت أيام عديدة قبل أن أخوض مع رفيق غرفتي الجديد في محادثة طويلة . وفي كل مرة كان الحديث يتجه اتجاهاً شخصياً أو كان يسأل سؤالاً ذكياً كنت أتراجع ببساطة إلى حصوني . وقد تعلم بسرعة كيف يثير انتباهي الأمر الذي أثار شكي . لماذا يمضي وقتاً طويلاً محاولاً محادثتي ؟ كنت أتساءل . لقد أصبح مايكل مجازفة أمنية خطرة عندما بدأ يسأل أسئلة غريبة جداً : سكوت لم وضعوك في المستشفى ؟ هل ضربت أحداً ، هل سرقت شيئاً ؟ استفساراته جعلتني أتساءل عن وجوده في المستشفى . لماذا كان يسأل هذه الأسئلة النوعية ؟ سألت نفسي . أعتقد أنها لم تكن من قبيل الصدفة أن يذكر مايكل الجريمتين اللتين اتهمت بهما وقد انتقل إلى غرفتي . رفضت أن أحادثه لمدة طويلة بعد تلك الحادثة .

انقضى تشرين الأول وكنت أشعر بالأسى تجاه والديّ لأن الثالث والعشرين من تشرين الأول كان عيد زواجهما التاسع والثلاثين ، وأنا هنا ، سجين في بلد غريب . إنها المرة الوحيدة منذ أن كنت طفلاً التي لا أقدم لهما فيها هدية . أعرف أنهما كانا لا يتوقعان شيئاً مني ولكن مع ذلك أحسست بالذنب . ولا بد وأن الله سمع أفكاري لأنه في نفس يوم عيد زواجهما ، اليوم الحادي والستين لاعتقالي ، بعد خمسة وعشرين يوماً من الحبوب بإجمالي خمس وسبعين مرة تخلصت فيها من الدواء أخبروني بأنهم سيوقفون الدواء . أسعد ذلك والديّ كثيراً وأعتقدا بأنها أفضل هدية يمكن لهما أن يتلقياها . وتساءلت ماذا يعني إلغاء الدواء ؟ فأكد لي والدي أن موعد حريتي قد أضحى قريباً جداً وحاولت ألا أعلق آمالاً كبيرة على ذلك .

هل يحاول الأطباء والحكومة أن يبنوا لي آمالاً أخرى ؟ إن فكرة استعادة عافيتي بعد كل ما عانيت زادت من مرضي. سألت الله أن يعطيني القوة الكافية لأواجه الذي مازال بانتظاري .

الفصل الثالث عشر

هل سأخرج

كان شيء ما في الطريقة التي قال فيها الدكتور كوفلر « سكوت ، ستكون في طريقك لبلدك قريباً » جعلني أشعر أنه يكذب . كان لدي شعور بأنه مازال لدى إدارة المستشفى شي تريد أن تجربه علي ، فحقيقة أنهم أوقفوا مداواتي لم تمنحني شعوراً بالأمن . كان أبي لم يحصل على بطاقات الطائرة بعد ، وينتظر أن تصبح أوراق إخلاء سبيلي لدى المحامي ، كما كان يحاول أن يرى آربيه دولزن للحصول على مساعدة مالية من الوكالة اليهودية .

وبينما كانت أيام سجني تقفز من اثنين وستين يوماً إلى ثلاثة وستين ، أربعة وستين ، خمسة وستين ، بدأت أسأل نفسي هل سأخرج فعلاً ؟ وأتضرع إلى الله من أجل الخلاص . ما كان ليحميني كل هذه الفترة ، في كل هذه الظروف الصعبة إن لم يكن سيقف معي حتى الحرية يجب أن يكون إيماني وكبريائي الأمريكيين كافيين لرفع معنوياتي ، لفترة كنت آمل ألا تطول أكثر . بدأت الليالي تطول علي حين أستلقي في الظلام . وكانت الصرخات المنبعثة من أقسام المستشفى الأخرى تلاقي صداها في رأسي بينما يزيد أرقي من قلقي . يستطيع هؤلاء المرضى على الأقل أن يصرخوا أما أنا فأية حركة خاطئة مهما كانت تافهة ، ستقضي علي ! كنت أفكر باستمرار لوقت طويل كنت أرغب في التنفيس عن خيبة أملي ، ولكنني لم أجرؤ

فمخاطرة إظهار عاطفة إنسان راشد أكبر من أن أقدم عليها . كان الرجال الآخرون الذين كانوا يقاسمونني الغرفة يبدون أكثر فأكثر أنهم لا يتمتعون بسلامة العقل وعلى الأخص تحديداً ، يودا غولد شتاين الذي جعل أيامي الأخيرة غير مريحة . سمع أبي يقول لي إني سأتجه قريباً إلى أمريكا وبدأ يضايقني حول الموضوع .

كان يتصرف وكأنه يبكي ويقول بالإنكليزية : « رجاء سكوت ، أود الذهاب معك إلى الولايات المتحدة ! لي أصدقاء هناك ، لدي عمل جيد ، هل تأخذني معك ؟ رجاء ! » كان يصرخ بصوت عال مثل طفل كبير ولم أكن أعرف هل كان يسخر مني أم كان جاداً . في إحدى الليالي أمسكته يعبث بدرجي . قال إنه يبحث عن جواز سفري ، بحيث يمكنه الذهاب إلى أمريكا . لم أقل شيئاً حول الجواز إذ اعتقدت أني إذا ما قلت أنه بحوزة والدي فقد يخبرالأطباء بذلك وسيسألون بالتأكيد كيف لي أن أعرف عن أشياء مثل جواز السفر !.

منذ ذلك الحين والدكتور كوفلر يزورني كل يوم ليرى كيف حالتي . أخبرته بأن يودا غولد شتاين كان يسخر مني وحاول أن يسرق حلوياتي ، فلم يفعل شيئاً يمنع يودا من مضايقتي . كان يودا مريضاً حقاً . مرة أثناء ساعات الزيارة قرر أن يأخذ دوشاً وتذكر وهو في وسط الاستحمام أنه لم يحضر منشفته وأراد أن يخرج ويجلب واحدة وهكذا خرج يودا عارياً تماماً يمشي على طول الردهة من أولها مروراً بغرفة التلفزيون ومكتب المستخدمين . كنت أراقب التلفزيون مع يورام عندما صرخ أحد المرضى بالعبرية : « انظروا إلى يودا ، يسير عارياً !» وبدأ صديقي يضحك مع بقية المرضى بينما تظاهرت بأني لم أفهم ما قيل .

فجأة سمعت داهجو يصرخ « ماذا دهاك أيها الأحمق » وركض يودا إلى البهو وداهجو يلحق به بسرعة . كان بعض الزوار النساء في غرفة التلفزيون بزيارة المرضى وعندما مر بهم المخبول أطلقن بعض صرخات الارتباك . الموضوع بلا شك جعل الأمسية أكثر حيوية ، وقد ساعد داني وجوزي العامل الأسود في إرجاع يودا إلى فراشه حيث أعطوه مهدئاً .

كان جميع هؤلاء المستخدمين يحبون أن يعطوا جرعات . ليس هذا فقط ، ففي ليال عديدة عندما كان مايكل يعتقد أني كنت نائماً كنت أسمع جوزي يتحدث إليه . كان جوزي يبيعه الحشيش . وأحياناً كان مايكل يشتري منبهات ومنشطات من الممرضين .

وحين كان بعض المرضى الذي يخضعون للمداواة يريدون تنبيه أنفسهم أو تهدئتها كان المستخدمون يقومون بذلك مقابل ثمن . ثمة مستخدم يدعونه الأفرو ربما بسبب شعره الأجعد ، يبيع المرضى كل شيء من الماريجوانا والحشيش إلى حقن المورفين . وكنت أسمع أشياء لا تُصدق وأنا أتظاهر بالنوم . يعتقلونني لجريمة لم أرتكبها وبعض العاملين في المستشفى يشجعون المخدرات مقابل المال !.

بعد أسبوع من إيقاف مداواتي ، في اليوم الثامن والستين لاعتقالي ، الثلاثين من تشرين الأول ، بدأت معي سارة بمجموعة اختبارات نفسية طويلة كاملة أعطتني فرشاة وكان علي أن أعيد رسم بعض الأشكال المختلفة ، امتحنتني بالرياضيات ، اختبرت قدرتي على التذكر ، أخضعتني لسلسة طويلة من التمارين الكتابية والأسئلة . وكنت أخيب أملها دائماً ولم أسمح لها بتقدير قدراتي إذ كنت أستجيب لجميع هذه الامتحانات بنفس استجابة صبي عمره ثماني سنوات . كنت أعرف معظم هذه الاختبارات . قد درست دورات مكثفة حول علم نفس الطفل وأعرف ما يجب أن تكون عليه استجاباتي لسارة بحيث ستقول للأطباء بأنني أظهر سلوك راشد نكص إلى طفولته . وإذا ما طالت الاختبارات كنت أتظاهر بالخبل ، فتقول لي دائماً « لا يمكنك الذهاب إلى بلدك حتى تنهي هذه الاختبارات ». فما كان علي إلا أن ألجأ إلى البكاء لأستدر عطفها كانت تحاول تهدئتي بأن تأخذني بين ذراعيها وأحياناً تذهب بعيداً في ذلك. مسألة عمل تقييم شامل لحالتي استغرقت معها أربعة أيام كاملة وبعدها لم أعد أراها كثيراً.

في اليوم الحادي والسبعين لسجني سمعت من أبي أخباراً غريبة، فقد كان يحاول الاتصال بأربيه دولزن المدير التنفيذي للوكالة اليهودية إلى أن استطاع أخيراً الوصول إلى مكتبه. وعندما فشلت جميع الوسائل في اللقاء به استعمل والدي هوية صحفية كان قد أعطاها له أحد الأقارب ليستطيع الدخول إلى مكتب دولزن. وعندما تأكد الرجل من والدي اتهمه باستخدام الكذب وسيلة للدخول. من المؤسف أن دولزن كان يسمح لصحفي بمقابلته ولكنه يرفض أن يعطي بضع دقائق من وقته ليستمع إلى رجل يعاني مع أسرته كثيراً.

بينما كان والدي يغادر مبنى الوكالة اليهودية التقى بقائد المعتقل قال والدي بأن اليعازر

ليفنسون رمقه بنظرته المتعجرفة المعهودة وقال « رأيت روستون، لقد حذرتك بأني سأسبب لكم الكثير من المشاكل! كيف الأحوال الآن؟ كيف ابنك العبقري! لو أنك تصرفت بالشكل الذي أردته أنا لما عانيت من هذه المأساة! الآن ابنك ولد صغير وقد لا يشفى أبداً. هذا ما يحدث لمن يتدخل بشؤوني! » قال أبي إنه كاد أن يضرب النازي المجنون، ولكنه كان يعرف أن ذلك لن يساعدني في السجن ولا في المستشفى.

كان أبي مازال متأثراً من أحداث الصباح وقلت له: « لا تهتم، دع اليعازر ودولزن وجميع هؤلاء يعتقدون بأنهم ضحكوا أخيراً. فإن ذلك سيجعلهم مطمئنين في شعور زائف من الأمن، إنهم يعتقدون أن عائلة روستون مثل بقية الناس الذين عانوا من البيروقراطية وأننا سنخجل من رواية قصتنا. عندما سيعرف العالم قصتي لن تعرف البيروقراطية الإسرائيلية من أين أتتها الضربة. أريد أن أتأكد من أن الظروف التي تعاني منها غالبية الشعب قد تحسنت ». كان والداي يعرفان بأنني إذا صممت على فعل شيء فلا شيء يقف في طريقي.

عطلة نهاية الأسبوع، في الثاني والثالث من تشرين الثاني بدت كسابقاتها في المستشفى، كانت فقط تتطاول أكثر، فلم يحدث مع أبي شيء ذو أهمية في هذين اليومين ولكن في الرابع من تشرين الثاني ١٩٧٩، هلعت لدى سماعي أن مجموعة من الطلبة الايرانيين قد هاجمت واحتلت سفارة الولايات المتحدة في ايران. ادعى هؤلاء الطلاب أنهم من أتباع آية الله الخميني الذي كان قد استولى على السلطة بعد الشاه. دعوت إلى الله ألا يُصاب مواطنو بلدي بأي أذى وأن لا يعانوا ما كنت أعانيه على مدى اثنين وسبعين يوماً. خطرت لي فكرة بعثت فيّ الارتياح. فإن البلد، على الأقل، تعرف أنهم أخذوا سجناء! بينما كان علي وعلى والديّ أن نتحمل محنتنا بصمت خشية أن أضيع في حال أعلم والدي وسائل الاعلام بمشكلتي. بالتأكيد لن يسمح الرئيس كارتر للأمريكيين المحتجزين في ايران أن ينتظروا المدة التي انتظرتها ليحصلوا على حريتهم!.

ولسوء الحظ كان علي أن أضع قلقي على مواطنيّ الأمريكيين جانباً؛ فرغم أن والدي أخبرني بأن قضيتي قد أُقفلت وأن مسألة إطلاق سراحي هي مسألة أيام قلائل فما زال الأطباء يستدعونني من أجل جلسات أخرى. وفي كل لقاء كان هناك رجل جديد، في بادىء

الأمر كان يوجد طبيب نفسي ثالث إضافة إلى الدكتور كوفلر، والدكتورة فيش، وروف. «وهكذا إذن، ستغادر قريباً إلى بلدك، إلى أمريكا؟» سألني الطبيب الجديد. كانوا ما يزالون يحاولون خداعي، ولكني نظرت إليه نظرة مرتبكة. «أين تعيش سكوت؟» «في نيوجرسي». سألني: «هل تعرف أين أنت الآن؟» تظاهرت بأنني خائف وأجبت «في نيوجرسي!» هز الجميع رؤوسهم وقد أصيبوا بخيبة أمل «كلا يا سكوت، أنت في إسرائيل! هل تعرف أين إسرائيل؟». عضضت داخل فمي بقسوة كي أمنع الابتسام أثناء الاجابة، «ماذا يعني رائيل؟» لم ألفظ الأسم جيداً وحاولت التظاهر بأنني في غاية الجهل. وهو يحاول أن يضيق علي كي أتحقق من أنني في إسرائيل ولكن لا يمكن مقارنته بإرادة الله والبراعة الأمريكية. كان الاجتماع الثاني يشبه الأول كثيراً، فقط عوضاً عن الطبيب النفسي كان يوجد رجل أبيض الشعر ادعى أنه عامل في علم النفس. لماذا كان كل منهم يلح على إخباري بمهنته. لم أكن أعلم! فطفل عمره ثماني سنوات لا يعرف الفرق بين طبيب نفسي وعامل في علم النفس وعادة لا يعرف ماذا يعني كل منهم. حاول الرجل الثاني أن تلتقي عيونه بعيوني، وكأنه يريد تخديري. ولكن إرادتي كانت أقوى من أن أستسلم لألاعيبه. أخيراً أيقن أنه لن يستطيع أن يأخذ مني شيئاً فاعتذر.

لا بد وأن كلاً منهم اعتقد أنني عدت إلى غرفتي، غير مدركين أنني كنت أتمشى في الممر. وعندما مررت من أمام المكتب سمعت الرجل ذا الشعر الأبيض يقول بالعبرية، «يبدو أن سكوت مريض حقاً. ألم يستفد من أي من الأدوية التي أعطيتموه إياها؟. أجاب الدكتور كوفلر «لم نحقق أي نجاح معه، ونحن مقتنعون بأنه سيحتاج لوقت قبل أن يتحسن، إن كان ذلك سيحدث، كي يتذكر ما حدث له». تدخل روف قائلاً: «لا يمكن لأحد أن يخدعني مهما كان ممثلاً جيداً! حاولت معه كل الحيل، أنا متأكد أنه مريض». «حسناً، بإمكاني إعلام القدس بأنه ما من خطر في عودته لأمريكا، ولكن من أجل أمان أكثر، استمروا في مراقبته حتى آخر دقيقة». يبدو أن الرجل ذا الشعر الأبيض كان متنفذاً كثيراً من طريقة كلامه. إنه أكثر من مجرد عامل في علم النفس. سمعت صوت كراسي تتحرك فدخلت إلى غرفتي خشية أن يعرفوا أني كنت خارج الغرفة وهم يتحدثون.

في غرفتي فكرت فيما قالوا وحللت مناقشتهم، من الناحية الأولى أسعدني أن أعرف أني سأعود لبلدي، فمعرفة أنني سأكون حراً عززت إيماني بالله وقوتني في مواجهة التجارب النهائية التي قد أواجهها. من جانب آخر كنت قلقاً بشأن ما يجري في عقل القدس. وتحققت من أن قراراً على مستوى عال قد أتخذ قبل عدة أسابيع يتعلق بحالتي. فكل التأخير في إطلاق سراحي كان للتأكد من أنني أعاني من انهيار عقلي كامل. كان بإمكانهم أن يرسلوني إلى بلدي منذ أسابيع عوضاً عن ذلك دفعوا بي إلى معاناة الانتظار يوماً بعد يوم!. كل ما يهمهم في الأمر هو أنني مريض لدرجة لا تسمح لي بكشف الحقائق عن محنتي، الحقائق التي ستسبب بالتأكيد الكثير من الإحراجات لحكومة إسرائيل!.

يوم الأربعاء السابع من تشرين الثاني، السادس والسبعون لسجني، جاء أبي ليخبرني بأننا بالتأكيد سنغادر إسرائيل صباح الأحد في الحادي عشر من تشرين الثاني، فكان جوابي:

«سأصدق ذلك عندما أجد نفسي في الطائرة!» قال والدي إنه قام بكل الحجوزات وعلي ألا أقلق لشيء. قررت ألا أخبر والديّ بالمحادثة التي سمعتها وإلا أزيد من الضغط عليهما. وخجل والدي أن يخبرني بأنه يواجه متاعب مع مايكل باركوف حول الايجار فقد توقعنا أن يعيد لنا إيجار ستة أشهر مازالت من حقنا في عقد الايجار وبدلاً من أن يسترد ألفين ومئة دولار الأجرة إلى جانب ثمانمائة دولار ثمن معدات ومفروشات تصل باجمالها إلى ألفين وتسعمائة دولار؛ أعطى الوغد والدي ستمائة دولار فقط عن كل شيء!. إذ أن باركوف كان يعرف أننا سنغادر البلد بضائقة مالية شديدة، فاستغل الوضع وعندما غضب والدي قال الرجل الشريف «خذها أو اتركها». حاولت أن أهدئ والدي قائلاً: «الأمر لا يستحق غضبك فعليك أن تستجمع جميع قواك مع والدتي من أجل الطريق الذي أمامنا. ويجب أن تستقيم حياتنا عندما نعود لبلدنا وهناك أشياء أخرى كثيرة هامة علينا إنجازها لجعل إسرائيل تواجه الحقائق حول قضيتي. والله وحده يعلم كم من الناس لم يستطيعوا مواجهة مظالم الحكومة الإسرائيلية» قويت من معنويات والدي أمام التحديات التي تنتظرنا. جاءت أمي لرؤيتي يوم الخميس وخلال زيارتها كنا حذرين جداً، فلم أرغب بالمجازفة والسماح لأحد بسماع ما يمكن أن تقول. فالحرية أصبحت قاب قوسين أو أدنى. وعلينا ألا ننسفها. ولذا لم أقم بأي شيء

يثير شكوك الآخرين، كنت بغاية الشوق حتى كدت أرى غيمة التلوث المعلقة فوق سماء نيويورك. وفي الليل وجدت نفسي أبكي وأنا أفكر ببلدي. ووجدت نفسي أغني لوحدي: «أيتها السماوات الفسيحة الجميلة، يا أمواج السنابل الكهرمانية.. أمريكا! أمريكا! ليشملك الله بنعمته ويكللك، أيتها الطيبة، بالاخاء من البحر حتى البحر المتألق». كَم تاق قلبي أن أعود إلى بلدي، بلد الشجعان، بلد الأحرار!. عندما قام الأطباء بزيارتهم صباح يوم الجمعة التاسع من تشرين الثاني كانوا يعلمون بأن تلك الزيارة ستكون آخر مرة يرونني فيها. ولذا قام الدكتور كوفلر بآخر فحص لمرضي فسألني: «حسناً يا سكوت، لن نراك ثانية. هل ستكتب لنا هنا في إسرائيل؟» لا شك أنه أحمق إذ ظن أنه بامكانه خداعي بذلك. نظرت إلى الفضاء وتجاهلت محاولته في أن يحطمني ولكن الدكتور كوفلر لم يتوقف. «أخبرني يا سكوت، كيف حدث أن طفلاً عمره ثماني سنوات له شوارب؟ تعال معي». أمسك بيدي واقتادني إلى مرآة في غرفتي، أمسك بشاربي وسألني «كيف لصبي صغير شنب كهذا؟». شد شاربي وقلت «أوه هذا يؤلم! لم تشد شفتي؟». التفت الدكتور كوفلر إلى بقية الهيئة ووضح بالعبرية: «قال بأني أشد شفته، بسبب النكوص. هو لا يرى شاربيه، هو يرى نفسه طفلاً!» ترك الطبيب شعري وغادر الغرفة مع بقية زملائه.

بعد الغداء مباشرة وصل أبي ومعه أشياء كثيرة، فقد أحضر الثياب التي سأرتديها خلال رحلتنا إلى أمريكا، وبعض المأكولات التي تكفي حتى يوم الأحد، وقصة مسلية جداً. قال إن عليه أن يذهب إلى تل أبيب ليأتي بجواز سفري. من الواضح أن مركز البوليس الذي استجوبني قد حوله إلى مركز آخر في تل أبيب. وجانب المكايدة في الموضوع هو بعد أن عرف أبي مكانه.

قال لي، «عندما وصلت إلى المكتب الذي يحتفظون به بجوازات السفر دهشت لما رأيت. إذ كان ثمة أربع خزائن معدنية كبيرة جميعها ملأى بأكداس من الجوازات. بادئ الأمر لم أفكر بالموضوع كثيراً. ولكن عندما فتش الموظف بأكداس كثيرة على الطاولة أمامي تحققت من أن جميع هذه الجوازات تحمل نفس العبارة: جواز سفر. الولايات المتحدة الأمريكية. كان يوجد مئات المئات من الجوازات الأمريكية في ذلك المكتب!». استطعت

أن أخمن من الطريقة التي كان يتكلم بها والدي ماذا كان يعني. إذ كان بداخل كل جواز سفر أمريكي وتحت عبارة معلومات هامة فقرة تقول: (هذا الجواز ملك حكومة الولايات المتحدة الأمريكية). إذا ما فقدت أو سرقت جوازات السفر هذه يجب أن تُعاد إلى سفارة الولايات المتحدة في تل أبيب! وهناك احتمال مرعب أكثر: ماذا لو أن أصحاب هذه الجوازات كانوا ما يزالون في إسرائيل، ونفس المصير الذي واجهني واجههم؟ فهل يتوجب على عائلاتهم أن تبقى صامتة خوفاً من أن يختفوا؟. بما أن جواز سفري كان بين هذه الجوازات فبدا من الواضح لي أن أمريكيين آخرين كانوا محتجزين في السجون الإسرائيلية. أقسمت أن أفعل المستحيل كي أبدأ البحث حول مصير هؤلاء المئات وحتى الألوف من المواطنين الأمريكيين أصحاب تلك الجوازات. كان الشعب الأمريكي يعرف عن الرهائن في ايران، ولكن هل كانوا يعرفون عن إخوتهم الأميركيين في السجون الإسرائيلية والذين يمكن أن يكونوا أبرياء أيضاً؟ هل يعرف الرئيس كارتر مصائرهم؟. إن لا.. ألم يكن عليه أن يعرف؟. إن نعم، ألا يتوجب عليه أن يعلن مسألة سجنهم على الشعب الأميركي؟. هل يمكن أن يقود الكشف عن وجود عدد غير محدد من المواطنين الأمريكيين في سجون إسرائيل إلى إحراج شديد للرئيس كارتر وهو الذي يمضي معظم فترة رئاسته في العمل من أجل السلام في الشرق الأوسط؟. عندما تركني أبي يوم الجمعة ذاك، عاد وقال لي: «ستكون هذه آخر مرة أقول لك فيها إلى اللقاء في هذا المكان!». دعوت إلى القدرة الإلٰهية أن يكون أبي على حق. كان من المقرر أن تقلع طائرتنا من مطار بن غوريون في الساعة السادسة صباح الأحد، مما يعني أن أكون على استعداد لمغادرة المستشفى في الساعة الرابعة. كنت أعلم أن التسع والثلاثين ساعة القادمة ستكون أطول الساعات التي عشتها في حياتي. كانت ثيابي في كيس بلاستيكي كبير أحتفظ به معي طوال الوقت، حتى في أوقات الوجبات وعندما أذهب إلى دورة المياه! وفي كل لحظة كنت أفكر بها بصباح الأحد كان يندفع الأدرينالين في جسمي. كانت ليلة السبت أكثر أمسيات حياتي قلقاً. بقي التلفاز يعمل حتى الحادية عشرة ليلاً وبقي علي أن أقتل خمس ساعات. كانت ليلة رطبة حارة جعلت الوقت يتمطى أمامي. كنت أسير إلى حنفية الماء في قاعة التلفاز حتى أستطيع معرفة الوقت وقد خططت أن أرتدي ثيابي في الساعة الثالثة كي أمنح نفسي وقتاً كافياً في حال وصول أهلي في وقت مبكر. وكان المهجع يبدو لي أكثر ظلاماً

في كل مرة كنت أنظر إلى الساعة . من الواضح أن العاملين المناويين لم يلاحظوا يقظتي في الساعة الثانية فبعد أن عدت إلى فراشي بقليل سمعت صوتين مألوفين خارج الغرفة روف كبير المستخدمين وآفرو العامل الصغير ذا الشعر الأجعد . أضاؤوا النور في غرفتي أولاً ليتأكدوا ما إذا كنت نائماً . كانوا مايزالون غير قادرين على الحكم إذا ما كنت أتظاهر بالنوم ، ثم أطفأوا النور وخرجوا إلى الممر .

قال روف لآفرو : الآن تذكر ، سترافق سكوت إلى المطار وستبقى معه حتى يدخل الطائرة . استغل كل مناسبة لتراقب سلوكه . إذا كان فعلاً مريضاً فلا تقلق ، ولكن إذا ما أبدى أي تصرف خاص ، حاول أن تمسك به على حين غرة . راقبه ، وإذا ما وجدت أنه كان يتظاهر بالمرض خذه من والديه وأعده إلى المستشفى ، أجاب آفرو « فهمت إذا ما اتضح أنه يمثل أمسك به !» أحسست أني سأضحك عندما فكرت بالهفوات الكثيرة التي قام بها الأطباء والعاملون وهم يحاولون الايقاع بي !. كان يجب أن يكونوا أحسن اختياراً للمكان الذي يناقشون فيه استراتيجيتهم . لم يكن روف متأكداً تماماً من مريض بالانهيار ولن يكون متأكداً أبداً من ذلك حتى أنشر قصتي على العالم . أخيراً حانت الساعة الثالثة فنزعت بيجاما المستشفى الزرقاء لآخر مرة وارتديت ثيابي وأفرغت الأشياء القليلة التي أود أن آخذها من خزانتي واستلقيت على فراشي جاهزاً للمغادرة . أيقظني آفرو الساعة الثالثة والنصف وساعدني في جمع أشيائي كي أذهب. كان جسمي خدراً بسبب الإرهاق وقد جلست على الفراش . « حسناً سكوت إن الأدرينالين يندفع في جسمك التعب . سنسافر إلى بلدنا قريباً !» قلت لنفسي . لا بد أني أصبت بدوار لمدة دقيقتين ، كانت الساعة الثالثة وخمساً وأربعين دقيقة عندما رافقني أبي وآفرو خارجاً إلى واسطة النقل . عرفت السيارة وصاحبها إنه نفس الشخص الذي نقل أمتعة عائلتي من المعتقل إلى ميخموريت . كان الطقس بارداً قليلاً فالأمطار سقطت في الصباح الباكر ذلك اليوم . لم تأخذ الرحلة إلى المطار وقتاً طويلاً حيث لم يكن هناك سوى حركة مرور محدودة في تلك الساعة . كنت أحس بعيون آفرو مركزة علي ، وهو لا يعلم أنني أمين تماماً داخل حصني !. وكاحتياط حددت حركاتي إلى أدنى حد . فكنت أتظاهر بأني نائم معظم الوقت فلم يكن لآفرو فرصة ملاحظة أي شيء . فكرت كيف حاول الأطباء والعاملون الايقاع بي مراراً ، وقلت وداعاً لمستشفى يهودا

أربابائيل للأمراض العقلية الحكومي في بات بام بإسرائيل . ستبقى ذكرى الأشياء التي واجهتها في ذلك المكان معي طويلاً . تحول كثير من الناس هناك إلى ما يشبه الخضراوات ، وكنت بلا حول ولا قوة ، لا أستطيع عمل شيء لهم . ولكنني لن أنسى أولئك المسجونين في ذلك المستشفى وغيره من المصحات العقلية . على حكومة إسرائيل أن تعنى وتحاول مساعدة أولئك المرضى بدلاً من أن تخفيهم كي لا يسببوا إحراجاً للبلد . لماذا يقول الأطباء إنهم لم يعالجوا المرضى الذين لم يتحسنوا .؟!. هل يخجلون من القول إنهم لم يستطيعوا مساعدتهم ؟ ويعترفون بفشلهم ؟. لقد كتب الدكتور كوفلر الرسالة التالية لوالدي !:

مستشفى يهودا أربابائيل الحكومي للأمراض العقلية
بات بام، إسرائيل

٦ تشرين الثاني ١٩٧٩
جناح ٣

إلى من يهمه الأمر

إن السيد روستون سكوت قد دخل مستشفانا في السابع والعشرين من آب ١٩٧٩ . خلال وجوده في المستشفى، لم يتلق أي علاج.
سيرسل تقرير مفصل عند طلب طبيب نفسي مفوض.
الرجاء إرفاق وثيقة موقعة من المريض يسمح لنا فيها بالكشف عن سجله الطبي.
الدكتور بنيامين كوفلر

ألا يُعتبر الأمفيتامين، والتحليل النفسي، والمعالجة النفسية علاجاً؟. وطالما أنهم يكذبون ويقولون إنهم لم يعطوني أي علاج، فما حاجة أي طبيب أمريكي لتقريرهم؟.

الفصل الرابع عشر

مطلق السراح

قاعة المغادرين في مطار العال تزدحم أكثر وأكثر بينما كنا ننتظر رحلتنا. وكان آفرو وسائق السيارة يضايقاني بشكل متواصل بينما كان أبي يرتب أمور الأمتعة. قال آفرو: كم عمرك يا سكوت؟. أجبت بصوتي الطفولي «ثمانية» لم يستسلم «ثمانية! كيف ذلك؟ هل أنت متأكد من أن عمرك ليس ثماني وعشرين؟». بالطبع كان يعرف عمري الصحيح ولكنه لم يستطع دفعي للاعتراف به، أعاد المحاولة قائلاً: «أجبني يا سكوت!. أليس عمرك ثماني وعشرين حقاً!» ببساطة تجاهلت أسئلته. ورحلت إلى أرض الأحلام وظل يراقبني كصقر صغير. قال سائق الشاحنة: «كيف دراجتك النارية الجميلة؟» كان يعمل لصالح الوكالة اليهودية، وأعتقد أنهم لا بد لقنوه نفس الكلام الذي زود به روف آفرو. هل يعتقد هؤلاء المتدربون أن بامكانهم الايقاع بي الآن؟. وأنا قريب جداً من الحرية؟. لا، أبداً إن أرواحاً أخرى غيري معلقة في الميزان!. أنا أعرف أن الله لم يشأ أن أصل إلى هنا في هذه اللحظة ليغرر بي بمحاولات غبية!. سأكون مطلق السراح.. إن الله معي ولذا سأسير في ضوء الحرية ثانية. كانت هذه الكلمات تضج في سمعي. فكرة الحرية أعطتني قوة أكثر في الصمود في وجه جميع المحاولات التي تستهدف تدميري. أصبحت الساعة السادسة صباحاً بعد طول تباطؤ، وكان شوقي للوصول إلى بلدي يتزايد مع كل دقة من دقات الساعة. تكفل بي مضيف أرضي ورافقني مع أهلي إلى منطقة الانتظار حيث بقي إلى أن جاء دورنا في الصعود

إلى الطائرة. لقد فشل آفرو والسائق كما فشل الجميع قبلهم. كنت قد استطعت أن أقنع سبعة أطباء، وخمسة مختصين في علم النفس، وثمانية عشر ممرضاً وأكثر من خمسين مريضاً، ومحامياً، والشرطة، والمحكمة، والقدس، بأنني بالتأكيد مصاب بانهيار عقلي كامل. وكانت هذه هي الوسيلة الوحيدة التي تمكنت بها من أن أمنع محاكمتي على جريمة لم أرتكبها، إن كنت مذنباً في شيء ففي أنني كنت غبياً عندما اختلطت بيوجين، وآفي، واليزابيت، وعائلة كن. في السادسة والنصف من يوم الحادي عشر من تشرين الثاني ١٩٧٩، وبعد تسعة وسبعين يوماً في الأسر، اتجهت مع عائلتي إلى طائرة البوينغ ٧٤٧ المتجهة إلى نيويورك عن طريق باريس. وكانت الحكومة قد أمرت أن أجلس في مكاني قبل أن يدخل بقية المسافرين. وكان واضحاً أنهم لا يريدون لأحد أن يتساءل عن سبب مرافقة عناصر أمن طائرة العال لي إلى داخل الطائرة، إذ أن عدداً كبيراً من الأمريكيين كانواعائدين لبلدهم، والقدس بالتأكيد لا تريد أن تثير فضول أي منهم حول وضعي. وحين صعدت بنا النفاثة الضخمة إلى الجو فكرت بالرهائن المحتجزين في ايران لم أستطع أن أصدق بأن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية سيتركهم في الأسر لمدة طويلة. أليس من مهام الرئيس ضمان سلامة الأمريكيين في الداخل والخارج؟. وصليت إلى الله أن يحفظهم كما حفظني. فرغم أنني غادرت إسرائيل لم أشعر فعلاً أنني حر فمرضي وقلقي تطورا لدرجة لم أستطع معها الاسترخاء حتى وأنا في الطائرة. كنت منهكاً تماماً ولكني لم أستطع النوم. ولم أشعر بالأمان حتى أقلعنا من باريس. قلت لنفسي وأنا أنظر من جانب الطائرة الأيسر، طالما بقيت الشمس على الجانب الأيسر من الطائرة فهذا يعني أننا نتجه غرباً، إلى الوطن! كان جزء مني يشعر بأن الطائرة ستدور في أية لحظة وتعود بي إلى إسرائيل.. إلى الدمار!.

عندما مررنا بأمتعتنا أمام الجمارك في مطار جون كنيدي في نيويورك وانتظرنا أن ينقلنا الباص إلى الفندق (لم يحدد موعد مغادرتنا أبداً بشكل نهائي، ولذا لم تعرف عائلتنا موعد وصولنا لتستقبلنا) شعرت أخيراً بالأمان. وحين وقفنا خارجاً، الريح الباردة القارسة تتغلغل في ثيابنا الصيفية والمطر ينصب غزيراً قلت «شكراً لك يا الله لاعادتي إلى بلدي، لرعايتك لي وحمايتي!» وفكرت وأنا في بلدي، ماذا عن الآخرين الذين في الأسر؟ فأدركت أن عملي قد بدأ..

الفصل الخامس عشر

أشياء فاسدة في دولة إسرائيل

في مقابلة مع مراسلة جريدة حكومة إسرائيل سذرن إسرائيلايت، أظهر صاموئيل فلاتو شارون غايته الأساسية من السعي الحثيث للحصول على مركز في الكنيست، حين صرح بحرية بأن ذاك كان ليتجنب تسليمه لفرنسا التي كانت تطالب به. وفي استطلاع للرأي أُجري قبل أسبوع واحد من الانتخابات تبين أن الناس انتخبته لسببين: فالبعض صوت لصالحه كي لا يُسلم للحكومة الفرنسية، والبقية أرادت أن تستفيد دولة إسرائيل من ملايين الدولارات التي بحوزته.

لماذا تسمح حكومة إسرائيل لهذا الفار المعروف أن يحصل على حصانة برلمانية تمنع تسليمه لبلده؟. وحين توقن إسرائيل بأن الوحيد المستفيد من وجود فلاتو شارون في إسرائيل هو فلاتو شارون نفسه، هل يصح أن تسمح له بعد ذلك أن يحاكَم على جرائمه دون أن تُلام؟. وبعد كل شيء ألم تساعد إسرائيل وتشجع فاراً من وجه العدالة؟ مثال آخر على المشاكل في الحكومة الإسرائيلية هي طريقتها في التعامل مع الدعارة.

ففي مقال نشرته الجيروزاليم بوست يشير إلى قرار القاضي دافيد شتاينمتز الذي يفيد بأن على المحاكم أن تسمح لبنات الهوى بمتابعة ممارسة عملهن حتى ولو أُلقي القبض عليهن

بتهم أخرى. فالدعارة ليست جريمة في إسرائيل، وبالتالي لهن الحق باعادة مزاولتها بعد القبض عليهن. تقول حكومة إسرائيل بأنهم بلد ديمقراطي ومع ذلك فهم لا يعتبرون الدعارة جريمة! لماذا تطلب المحكمة من بنات الهوى ألا يعملن في بعض شوارع المناطق السكنية؟. هل هذا يعني أنه يجب حماية بعض الناس من المومسات؟. هل حكومة إسرائيل مهتمة باتهام الأبرياء وتلفيق التهم لهم فقط؟ حتى أن الكنيست أصدر قانوناً يسمح بالتعويض المالي لمن أوقفوا لدى الشرطة دون دليل. أو في حال إيقاف شخص ما بسبب اتهام كاذب، فيمكن للبرئ أن يقاضي ذلك الطرف مباشرة. من ٥٠٠٠٠ حالة إلقاء قبض أُفرج عن ٣٠٠٠٠ بعد أيام عندما قررت الشرطة أنهم أبرياء، فهل يعتقد الكنيست حقيقة أن المال يعوض عن الأذى الذي يلحق بالناس من جراء إيقافهم من قبل الشرطة؟ أليس من الأكثر منطقية منع وحشية الشرطة الإسرائيليين بدلاً من زيادة مصاريف البلد بالدفع للناس؟. لا عجب في أن رجال الشرطة الإسرائيليين خبراء بالتعذيب فلديهم العديد من الخنازير الغبية يتدربون عليها كل عام.

ثم قرأت عن حالة الكسندر كاسبي وهو ضابط شرطة سابق أُدين بنفس الجريمة التي أُتهمت بها زوراً: حُكم بسنتين ونصف السنة ادعى القاضي وجود ظروف مخففة في حالته. كان الرجل يعاني من مرض كلية نادر أجبره على الاستقالة منذ فترة قريبة وهو في الرابعة والثلاثين وقد شهد أحد زملائه بأن كاسبي كان رجل شرطة دمث لا يُشك بلطف شخصيته.

وقد كان تحت ضغط شديد بسبب طلاق وزواج ثان تزامن مع مرض الكلية والاستقالة المبكرة، ولأنه لم يكن مجرماً فعلاً نال حكماً مخففاً. ألا يخضع رجال الشرطة لنفس القوانين والعقوبات التي يخضع لها مواطنو إسرائيل العاديون؟ هل المرض الجسدي عذر للتخطيط والقيام بجريمة، ثم تلقي عقوبة مخففة؟ كم تسبب كاسبي بالضغط على آخرين؟ هل يهاجم رجل الشرطة المثالي الناس الذين أقسم على حمايتهم. يُفترض بالشرطة احترام القانون أليس من الواجب أن يحاسب الضابط بحزم أكثر لا بليونة أكثر؟. لو أني لم أحم نفسي لقررت المحكمة سجني عشرين عاماً على الأقل وأنا بريئ! لماذا يحكم على رجل شرطة سابق مدان بأقل عقوبة منصوص عليها؟ لأن إسرائيل دولة بوليسية؟ لقد رفض وزير العدل تامير مشروعاً

مقدماً من آنون روبنشتاين على طراز القوانين الأمريكية تمنع طرد العمال من عملهم أو تسريحهم إذا هم أبلغوا عن فساد في مكاتبهم ومراكز عملهم، فبحسب هذا المشروع لن يخسر المواطنون الشرفاء حقهم في العمل أثناء التحقيق. على أية حال سقط هذا الاقتراح في إسرائيل بحجة أنه مازال به الكثير من الثغرات.

هل تفضل حكومة إسرائيل ألا تدع الرأي العام يتعرف على الفساد الموجود في المؤسسات العامة؟ يبدو أنهم لا يريدون تشجيع العاملين في المرافق العامة على الكلام ضد رؤسائهم. لماذا؟. هل يخافون ممن يمكن أن يعريهم بمثل هذا الكشف؟ ألا يستحق الشعب أن يعرف حقيقة ما يجري في حكومته؟ وردت رسالة إلى رئيس تحرير الجيروزاليم بوست تضمنت آراء طريفة حول الحالة العامة للنظام القضائي والحكومة في إسرائيل. وقد دافع الكاتب فيها عن الشخصية الإسرائيلية وأكد بأن اليهود هم أكثر شعب يلتزم بالقانون في أي بلد يعيشون فيه. وقد علل ذلك بأن القوانين المتعلقة باليهود كانت قوانين صارمة جداً مع عقوبات قاسية حيث أن اليهود كانوا يفضلون أن يسلكوا سلوكاً قويماً وإلا... وهذا الرجل يلقي باللوم بما وصلت إليه الأمور في إسرائيل على الحكومة التي تغالي في تقدير إمكانية الشعب، بما فيها اليهودي المثالي، في العيش بنظام وأمان دون قوانين كابحة أو مع قوانين ليست صارمة. وبالتالي عندما يعود المهاجرون من جميع أنحاء العالم، وبالطبع هم ليسوا جميعاً من الطبقات العليا في بلدانهم، ويُلقى بهم سوية في جوِ القوانين فيه غير محترمة، تعم الفوضى. والرد على ما يقول الرجل هو حكومة أقوى.

أعتقد أن الإسرائيليين عموماً، متعجرفون، عنيدون، وذلك بسبب قادتهم. فالدعاية التي تبثها حكومة إسرائيل عن الولايات المتحدة والأمم الأخرى تبرر سلوكهم مع معظم من هم غير إسرائيليين. أحد الأسباب التي تحاول من أجله حكومة إسرائيل أن تؤلب الشعب ضد الأجانب هو كي لا يسمعوا عن بقاع العالم الأخرى الرائعة. فإسرائيل بحاجة لشعب، وبالتالي فهي تفعل أي شيء حتى غسل الدماغ والكذب كي لا تشجع الهجرة من إسرائيل. فالحقائق التي نشرتها الجيروزاليم بوست تظهر أنه عام ١٩٧٧ و١٩٧٨ هاجر من إسرائيل ١٢٫٠٠٠

إسرائيلي في كل عام بينما لم يعد إليها سوى ٦٫٠٠٠ رغم وجود برنامج يقدم حوافز مالية وعينية للإسرائيليين كي يعودوا.

إن عدد المهاجرين من إسرائيل هو أكبر بأربع مرات من عدد المهاجرين إليها كل يوم. ألا يجب أن تنبه هذه الحقيقة الحكومة إلى أنها ترتكب شيئاً أو أشياء خاطئة؟ من المؤسف أن تضطر حكومة ما إلى رشوة شعبها كي يعود إلى بلده. أليس الأذكى تشجيع الشعب أن يقوم منذ البدء بمنح الثقة بحكومته؟ لا يمكن أن تستمر دولة إسرائيل وتبقى، إذا ما بقي البيروقراطيون على فسادهم واستمروا يقولون «هذا غير ممكن! مثل هذه الأشياء لا تحدث في إسرائيل!» مثل هذه الأشياء تحدث في إسرائيل، وحقيقتها لن تزول إذا ما بقيت حكومة إسرائيل تغمض عينيها عن الأخطاء. الشعب فقط هو الذي يزول كما هي الحال فعلاً.

مناحيم بيغن رئيس مجلس الوزراء...

«... السلام جمال الحياة. إنه ضوء الشمس، ضحكة الطفل، حب الأم، فرح الأب، التئام العائلة، إنه تقدم الإنسان، انتصار العدالة، غلبة الحقيقة. كل هذا هو السلام وأكثر... وأكثر...».

هذا مقطع من كلمة رئيس مجلس الوزراء مناحيم بيغن في حفل منحه جائزة نوبل للسلام. من موقف السيد بيغن الحالي من السلام قد أستطيع أن أنتقي ما قال أنه مجرد كلام!. عندما بدأت محادثات السلام قال السيد بيغن:

«كل شيء يمكن التفاوض عليه».

إنني لا أؤيد النشاطات الارهابية لمنظمة التحرير الفلسطينية أو أي منظمة أخرى تمارس القضاء على الحياة البشرية. ولكن إذا كانت إسرائيل فعلاً تريد سلاماً حقيقياً فعليها أن تنسى خلافات الماضي والحاضر، وعليها أن تتفهم حقوق ورغبات الآخرين وتركز اهتمامها عليها. كيف يتمكن البعض من القول ببراءة أنه لن يجلس مع منظمة التحرير الفلسطينية على مائدة مفاوضات بينما هو نفسه أعاد تنظيم وقاد منظمة ارغون زفاي لومي الارهابية المسؤولة عن نسف فندق الملك داوود في القدس، وقتل على إثرها واحد وتسعون شخصاً معظمهم من

اليهود والعرب؟ . كان بيغن نفسه الرجل الذي سُمي بالارهابي وتجنبه رفاقه اليهود لأنه أزهق أرواحاً إنسانية . إن أبا إسرائيل الذي كان وراء نشأتها دافيد بن غوريون ، أدان مناحيم بيغن والارغون ونعتهم « بعدو الشعب اليهودي » . ورغم أن بن غوريون اقترح أن تضم حكومته جميع الأحزاب الممثلة في الكنيست فقد وضع خطاً أحمر أمام حزبين : الحزب الشيوعي ، وحزب بيغن (حيروت) رافضاً حتى ذكر اسم بيغن ، وأشار إليه باحتقار في الكنيست قائلاً : « الرجل الذي يجلس بجانب السيد بادر » . عندما عشت في إسرائيل قامت منظمة التحرير الفلسطينية بعدة أعمال إرهابية ضد مدنيين إسرائيليين ، وكرد على هذه الأعمال أرسل بيغن طائرات نفاثة إلى جنوب لبنان ترد على الارهابيين . كم من المدنيين أطفالاً ونساء قتلتهم الطائرات والمدفعية الإسرائيلية؟ . بدا الرد الإسرائيلي لي أكثر بكثير مما يستدعي الأمر : « ضربونا ولذا سنرد بأقوى » . هذا كان تكتيك أفراد العصابات في العشرينات وليس رد دولة عصرية متحضرة تطمح إلى سلام شامل ! . إذا استطاع عياو أن يسامح يعقوب على سرقته حقوقه ، فلماذ لا يستطيع جميع اليهود والمسلمون أن يسامحوا بعضهم بعضاً على جميع خلافات الماضي؟ لماذا لا تستطيع جميع الأمم أن تعيش بسلام؟ ! لقد أخبر الله نوحاً بأنه إذا ما انتهت الحياة إلى الأبد على وجه الأرض مرة ثانية فسيكون ذلك بفعل الإنسان . علينا أن نعمل على أن نتعايش على الأرض وإلا فسنموت جميعاً ! . إن القادة الأمريكيين اليهود ، وهم على علاقة بـ ٢٥٠ إسرائيلياً مرموقاً وقفوا ضد بيغن علانية يشجبون آراءه ومبادئه السياسية المتطرفة ، ويقترحون عليه أن لدى إسرائيل ورئيس وزرائها هامشاً واسعاً لتسوية في الشرق الأوسط . تسوية تأتي بالسلام ، كان ذلك أول تصريح علني ينتقد سياسة بيغن ويثبت بأن بيغن لم يكن صادقاً تماماً عندما ادعى بأنه يحظى بدعم يهود الولايات المتحدة الكامل . كما أن الولايات المتحدة استنكفت عن التصويت في قرار للأمم المتحدة يشجب نوايا إسرائيل في جعل القدس عاصمة لها ، وقال يادين نائب رئيس مجلس الوزراء بإسرائيل كان على أمريكا أن تعترض على القرار .

هل يتوقع بيغن ويادين فعلاً أن تعترض الولايات المتحدة الأمريكية على قرار غايته السلام؟ . أعتقد أن حكومة إسرائيل تصرفت كطفل مدلل يبكي كي يركب رأسه في الاتجاه الذي يريد غير مدرك لمصلحته . إن أمريكا تريد الأفضل لإسرائيل إذا ماكان بيغن

والبيروقراطيون الأغنياء يريدون السلام فعلاً، فلم يقيمون الحواجز باستمرار بين إسرائيل ومحادثات السلام؟ هل بإبعاد القدس عن المحادثات يضمن البيروقراطيون بأن القسم الديني من القدس آمن؟. القسم الديني من القدس حيث لا توجد سلطة للشرطة وحيث قلب سوق إسرائيل السوداء!. ألم يحن الوقت لأن تخبر الحكومة الشعب الإسرائيلي بحقيقة الأشياء؟. لقد أعلن الدكتور ف. بولسكي آراءه في رسالة إلى رئيس تحرير جريدة الجيروزاليم بوست، وهو رجل ملتزم تماماً بمساعدة الهجرة ونصرة أهداف الصهيونية، ومع ذلك يشعر أن عليه الآن أن يحتج على الكثير من سياسات الحكومة. كيهودي روسي، يشعر بولسكي بأنه كان يتوجب على بيغن، وهو يهودي روسي أيضاً، أن يتخذ إجراءات أكثر من أجل استقبال عدد أكبر من المهاجرين. عند كتابة الرسالة كان لدى بيغن عامان من أجل تحسين الأوضاع لم يفعل فيها شيئاً سوى تعيين دافيد ليفي وزيراً للاستيعاب. وكان ليفي ملتزماً مع يهود شمال افريقيا ولا يتعاطف مع يهود الأمم الأخرى كاليهود السوفييت واليهود الأوروبيين. اتهم بولسكي بيغن باختيار مسؤول متحيز أساء إلى الهجرة. انتقد بولسكي بيغن لتجنبه موضوع الهجرة إلى إسرائيل في اجتماعات الحكومة ولتجنبه إجراء التغييرات الضرورية في منظمات حركات الاستيعاب. لقد عدد الدكتور بولسكي كثيراً من الشروط التي تنتظر المهاجرين في بلدهم الجديد، جميعها بدت مماثلة بشكل ملحوظ لتجاربنا. أماكن سكن بعيدة عن المناطق التي تتوفر فيها فرص العمل، تعيين في مناطق دون اعتبار لاختيار المهاجر، الأوراق التي لا تنتهي. جاء رد على إحدى رسائل التنظيم إلى بيغن من مجموعة من المهاحرين (شبيه بالرد الذي تلقيناه على ما أعتقد) دون أي اقتراح أو تحديد موعد لمناقشة المشاكل الجارية. وأنهى بولسكي رسالته إلى المحرر بأن اقترح أن يزيد المواطنون الساخطون من ضغطهم على حكومة بيغن. إن إظهار عدم الرضا على شكل مظاهرات سيلفت نظر بيغن وربما يجره على إجراء تغييرات في النظام. هل عدم فاعلية بيغن في مجال الهجرة والمهاجرين تعني أنه مهتم أكثر في إدخال المال إلى إسرائيل أكثر من الناس؟ ألا يستعمل محادثات السلام بشكل أساسي كوسيلة لاستحضار مساعدات عسكرية واقتصادية أكثر من الولايات المتحدة؟...

كان لرسالة الدكتور بولسكي أثر جيد في إظهار بعض أخطاء بيغن ولكنها أظهرت أيضاً العداوة المتأصلة بين الأشكناز (اليهود الغربيون) والسفارديم (اليهود الشرقيون) عندما

يعلن عن عدم رضاه على تعيين دافيد ليفي وزيراً للاستيعاب لمجرد أن أُنتخب من مهاجري شمال أفريقيا. إذا ما أرادت إسرائيل الاستمرار يجب وضع نهاية لهذه الكراهية وإلا ستحطم نفسها من الداخل قبل أن يحطمها العرب!. مثل هذه الأحقاد بين البيض والسود قسمت الولايات المتحدة وتكاد أن تقضي عليها. لقد تعلمت أمريكا بعد أن دفعت الثمن غالياً في الحرب الأهلية أن إسرائيل لا تحتمل حرباً أهلية خاصة وأن العرب ينتظرون مثل هذه المناسبة لمهاجمتها. لماذا ترفض إسرائيل أن تتعلم من أخطائنا، وتريد أن تعالج الأمور على طريقتها بعنجهية، ولو أن ذلك يعني إعادة الأخطاء ذاتها! لا يمكن لإسرائيل أن تستمر في لعب دور الولد المدلل الذي يبكي ويبكي من أجل هدايا أكثر، وتطلب أن تفعل كل شيء على طريقتها وهي خاطئة. إذا كانت إسرائيل تريد السلام فعلاً فلتثبت ذلك!. إذا كانت ترغب بصداقة أمريكا ومال أمريكا عليها أن تستمع إلى نصحنا!. وعلى أمريكا أن تقول لإسرائيل: آسفون!، ولكن نظرية دع الأمور كما هي لن تنفع الآن.

أربيه دولزن رئيس الوكالة اليهودية

تحدث المدير التنفيذي للصهيونية العالمية، أربيه دولزن بعد انتخابه من قبل مندوبي أحزاب الشتات في ندوة أقيمت في بيت هاناسي، حول مستقبل الصهاينة، قال إنه لو كان يهودياً صغيراً لما انتسب لأي حزب صهيوني في الخارج.

وتابع نقده للأحزاب الصهيونية قائلاً إن المسيطرين على هذه الأحزاب قادة مسنون ذوو أفكار قديمة. ولا يجد الشباب ما يشجعهم على الانضمام إليها. ثم قال إن الصهاينة غير مهتمين بحل مشاكل المهاجرين إلى إسرائيل.

إن دولزن يتقن استخدام علم النفس، فقد وضع اللوم في فشل المهاجرين على المجموعات الصهيونية في الخارج بدلاً من أن يتهم نفسه. فالقول بأن القادة لا يستطيعون بيع بضاعتهم ليس المشكلة، المشكلة في أن دولزن نفسه لم يعط بضاعة للبيع.

والسبب الرئيسي لاهتمام دولزن بنقص الشباب، والدم الشاب في المنظمات اليهودية، هو اعتقاده بأنهم الأسهل في غسل الدماغ وبرمجتهم على طريقته في التفكير. وهو لا يعرف

بأن الشباب اليهود في بلدان الشتات أذكى مما يتصور ومعظمهم لا يقيم لكلامه وزناً. وإذا كان سبب ذهاب بعض الشباب إلى إسرائيل هو أن يصبحوا (أكثر يهودية) فعليهم ألا يهاجروا إلى إسرائيل. فيهود أمريكا. وربما اليهود الأحرار من الشباب هم أكثر يهودية من اليهود في إسرائيل. نحن نمارس ونحترم ديننا في أمريكا ولا نأخذ اليهودية أمراً مسلماً به مثلما تفعل الغالبية العظمى للإسرائيليين. على أني لا ألوم هؤلاء فإن معظم اليهود الأصوليين الأتقياء، الذين يبشرون الناس بالدين هم نفس اليهود الذين يضايقون إخوتهم في الدين خارج أماكن العبادة وخارج البيوت ،وهم نفس اليهود الذين يحمون بل ويديرون السوق السوداء في القسم الديني من القدس.

أما بالنسبة لايقاع اللوم على المجموعات الصهيونية في إسرائيل في مشكلة الهجرة فهذه أيضاً من أخطاء دولزن. فلو أنه أهتم بمشاكل المهاجرين الجدد، وكيفية استيعابهم بنجاح ومعاملتهم كبشر لقل عدد المهاجرين من إسرائيل وعدد الإسرائيليين الذين يسمعون كيف أن الحياة في أمريكا وأوروبا الغربية أفضل بكثير مما هي عليه في إسرائيل. ولا يحق لدولزن أن يلوم الذين يسعون إلى الانتقال لمراع أكثر خضرة وهم يرون البيروقراطيين أمثاله يقطفون أينع الثمار لأنفسهم مخلفين لغيرهم الفضلات. فبعد أن يأخذ البيروقراطيون الأغنياء الحليب والعسل يبقى للإسرائيليين الرمل!.

قال دولزن: رغم أن الحركة الصهيونية جعلت من الدولة اليهودية حقيقة... يجب ألا يكون هناك (رغم)! يخبر دولزن يهود بلدان الشتات وهو أمامهم بالعمل الرائع الذي يقومون به. ولكنه يضع اللوم عليهم حين يديرون له ظهورهم بدلاً من أن يعترف بعدم كفاءته! وأنا أقول لأربيه دولزن: استمتعت كثيراً بإجازات في الخارج، وحصلت على الكثير من الدرجات العلمية على نفقة الشعب اليهودي، والآن جاء دورك لتدفع ما عليك! أستقلْ قبل أن تعرف اليهودية العالمية كيف كنت تغتابها! ستكون محظوظاً إذا لم تُحاكَم وتُدان في قضايا احتيال! انسحب قبل أن تخرب أكثر!.

في مقال آخر في الجيروزاليم بوست يشيرْ لأربيه دولزن يتحدث إلى أربعمائة مندوب للمجلس الصهيوني ينحي باللائمة على الحكومة والائتلاف والمعارضة في موضوع الهجرة من

إسرائيل ويطالب بإنشاء مؤسسة موحدة تعنى بشؤون الاستيعاب والهجرة واستقبال المهاجرين، فأطلق على يهود الخارج صفة (الشريك الوفي) في تحسين الأوضاع في إسرائيل نفسها.

إن أربيه دولزين يتحدث بلسانين! ففي المقال السابق لام مجموعات الخارج على فشل الهجرة، وفي هذا المقال يقول إن هذه المجموعات هي حليف وفي وليس مصدراً للمال وحسب. إنه يغير روايته أسرع من متسابق في سباق سيارات! فهو حين يتحدث إلى الإسرائيليين يحمّل يهود الشتات مسؤولية فشل الهجرة، وعندما يخاطب يهود الخارج يقول إن هذه المجموعات هي حليف مخلص وليس مصدراً للمال وحسب. إن الإسرائيليين يجب أن يلاموا بسبب عدم رغبتهم في يهود جدد في إسرائيل! لم لا يقول إنه هو المشكلة، هو وبقية البيروقراطيين الأغنياء الذين يزدادون ثراء على حساب الآخرين؟.

إنه يعرف بثقة كيف يجعل يهود الشتات يشعرون بالذنب بسبب عدم هجرتهم لإسرائيل. يقول لهم «انسوا المال، نحن بحاجتكم أنتم»، الأمر الذي يجعل كل يهودي يفكر «لا أستطيع الهجرة إلى إسرائيل، ولكنهم يحتاجونني» وحتى يريحوا أنفسهم يبعث يهود الخارج بالمال غير مدركين بأن هذا هو بالفعل ما يسعى إليه دولزن. كما يصدق بعض الشبان الأبرياء ما تقوله لهم البيروقراطية الإسرائيلية. إنني أرتعد، عندما أفكر بالتخريب الذي سيلحق بإسرائيل وحركة الهجرة إذا ما أصبح أربيه دولزن والوكالة اليهودية سلطة الهجرة والاستيعاب الوحيدة التي سيتعامل معها المهاجرون.

حين يشعر المهاجرون بحسن الاستقبال لدى قدومهم إلى إسرائيل بدلاً من إخضاعهم لروتين لا نهاية له، فسيستقر عدد أكبر منهم في إسرائيل. فالرجال كمثال أربيه دولزن وممثلي الوكالة اليهودية مثل اليعازر ليفنسون يعتقدون أنفسهم آلهة يتحكمون بحياة المهاجرين الجدد، وأن على هؤلاء أن يودعوا مصائرهم بين أيديهم، أيدي البيروقراطيين الذين يكيلون المظالم، هؤلاء هم السبب الرئيسي وراء المعدل العالي للهجرة من إسرائيل.

وبدلاً من أن يقروا بفشلهم، يغرس دولزن وزبانيته بذور البغضاء في عقول الإسرائيليين ضد الأجانب ويجعلونهم يعتقدون بأن هؤلاء المهاجرين الجدد يريدون حياة سهلة ومعونات لا تنتهي من الحكومة التي بدورها تأخذ المال منهم! ولن يتزايد عدد سكان إسرائيل حتى يتحقق

الشعب من أن المهاجرين الجدد لا يسعون لأخذ أشيائهم وأن المشكلة في البيروقراطية. إن دولزن وليفنسون وأمثالهم لا يرغبون باليهود الغربيين في إسرائيل كي لا يزداد عدد المفكرين الأحرار في البلد بشكل يجعل منه بلداً ديمقراطياً يتخلص من بيغن ودلزون وليفنسون.

في الكلمة الترحيبية التي ألقاها دولزن في أعضاء بعثة رئيس المنظمة اليهودية العالمية عام ١٩٨٠ والتي نشرتها الجيروزاليم بوست، احتفل بالعيد الخمسين للوكالة اليهودية، مشيراً إلى التعاون الوثيق الذي أبدته اليهودية العالمية وأنها هي التي أوجدت وغذت دولة إسرائيل. وأشار إلى أن إحلال السلام في الشرق الأوسط قد يكون سبباً لزيادة عدد المهاجرين. ودعا دولزن إلى معالجة أفضل لمسألة تمثل المواطنين الجدد في البلد. مناطق الاستيطان الأساسية عند دولزن ستكون النقب والجليل.

كما اقترح ساعي اليهودية العالمية في مشروع التجديد برنامج إحياء الجوار، حيث سيمكن استيعاب ٤٥٫٠٠٠ عائلة لم تستوعب، وقال إنه يأمل أن توضح زيارة أعضاء اللجنة الدور الذي قامت به اليهودية الأمريكية في صنع السلام.

ستتحقق المنظمات من أمثال اللجنة اليهودية الأمريكية بأنها بدفعها الملايين والملايين من الدولارات للوكالات الحكومية التي يديرها رجال على شاكلة دولزن في إسرائيل، بأنها تخرب أكثر مما تفيد. تحدث دولزن عن الخمس وأربعين ألف عائلة التي لم تستوعب. ماذا عن المساعدات التي دفعت لهذه العائلات كي يتم استيعابها؟ ماذا عن الـ ٩٠٪ إلى ٩٥٪ من الأموال التي دُفعت كاعانات لهؤلاء الإسرائيليين؟ وفي جيوب من ستنتهي؟ كيف يمكن لدولزن أن يقول وبضمير نقي إن الجمعيات الصهيونية في الخارج فشلت ثم يقول «إن الخمسين سنة هذه تميزت بمشاركة اليهودية العالمية الفعالة في إقامة وتطوير دولة إسرائيل؟» إذا كان عدد الشباب اليهود الذين يهاجرون إلى إسرائيل لا يكفي. فذلك لأن معظمهم يكشف لعبة دولزن وإذا لم تبدأ المنظمات اليهودية والدول التي تبعث بمساعدات اقتصادية إلى إسرائيل في الكشف عن كيفية صرف الإعانات ومن يضع معظمها في جيوبه، سيبقى الشعب الإسرائيلي ضحية للبيروقراطيين الذين يبقون في السلطة بسبب سوء استعمال هذه الإعانات.

من الأفضل بكثير لهذه المنظمات وهذه البلدان أن تعترف بأن الأمور خرجت من

يدها وبأن الأموال التي سترسلها إلى إسرائيل لا تُصرف بالطريقة التي كانت تُصرف بها عندما كان دافيد بن غوريون في السلطة لصالح جميع الإسرائيليين ولكن الحقيقة، أن البيروقراطيين ولسنوات عديدة يتصرفون بهذه الأموال بشكل تنتهي به في النهاية إلى جيوبهم!.

أليس الأفضل إزاحة جميع هؤلاء عن التحكم بكيفية صرف الإعانات؟ نعم، إن إسرائيل بلد حر له الحق في إدارة أمواله: ولكن عندما تأتي هذه الأموال من خارج إسرائيل فمن واجبنا أن نتأكد من أنها تُدار بشكل سليم ولا يُساء استخدامها من قبل نظام صبياني.

إذا ما أرادت الوكالة اليهودية أن تنجح إسرائيل، فعليها التخلص من دولزن وأشكاله وإلا فلتحل لصالح وسعادة إسرائيل.

الرئيس إسحاق نافون

في المقال الذي كتبته جودي سيجل في الجيروزاليم بوست، ذكرت أن الرئيس إسحاق نافون كان قد اقترح في حديث له أمام أعضاء المجلس العالمي للكنائس اليهودية بأن يأتي يهود الشتات إلى إسرائيل، للاحتفال بمناسباتهم الخاصة، وقال الرئيس إن الاحتفالات بالأعياد مثل بار وبات ميتزفا وشهور العسل يمكن أن تُقضى في إسرائيل للمحافظة على الحس اليهودي بالتاريخ والتقاليد والهوية. وترافق طلبه ذلك بطلب هجرة أكثر أيضاً. أكد الرئيس نافون على أن المصادر البشرية الملتزمة بإسرائيل هي أهم بكثير من المساهمات المالية.

واقترح الرئيس طرقاً أخرى للمحافظة على (يهودية) أبناء بلدان الشتات، إذا ما تعذرت عليهم الهجرة، من هذه الطرق قراءة الصحف اليهودية، والدراسة في إسرائيل لمدة عام أو عامين وتبقى الرسالة الأهم للشعب هي أن يهاجر وعندما يصل إلى إسرائيل أن يثمر ويتكاثر .

لسوء الحظ أن رجلاً مثل نافون أمضى أوقاتاً طويلة في السفر والمتع وأنفق مالاً كثيراً من الميزانية الإسرائيلية، ليس له أية صلاحية في الحكومة. إنه رئيس صوري تماماً. يصغي إلى المشاكل باهتمام ولكنه لا يستطيع فعل أي شيء سوى الاقتراح على مكاتب الدولة. إن مهمته

الأساسية هي جذب الناس ودعوتهم إلى المأدبة ويغريهم بالمزيد من التبرعات لحكومة إسرائيل. وأقول الحكومة، لأن المال يختفي هناك!.

يجيد نافون صياغة الشعارات مثل «اقضوا شهور العسل في أرض الحليب والعسل» إنه مقنع في الكذب، يخطىء في معالجة المشاكل مثل بيغن ودولزن وبقية البيروقراطيين الذين يسيئون استعمال سلطتهم. إن عيد بار فيزفاه الذي أمضيته كان مناسبة سعيدة لا تُنسى! كل من يشعر أنه بحاجة إلى مناسبة عائلية يقضيها في إسرائيل ليجعلها أكثر ثراء عليه أن يعرف أن الله معنا إن كنا في بلدنا أو في إسرائيل. وإذا كانت عائلة ما، ليس لديها أفضل من أن تهدر مالها من أجل قضاء مناسباتها في إسرائيل فلماذا لا تتبرع بهذه الأموال إلى عائلة محتاجة؟ ألا ينظر الله بعين الرضا أكثر للناس الذين يعطون الآخرين من أولئك الذين يتباهون أمامهم؟. أعتقد أن على الرئيس نافون أن يقلق على اليهود داخل إسرائيل. أن يحفظوا هويتهم بدلاً من أن يقول «يجب على اليهودي أن يحرص على هويته اليهودية في وسط قوي تدعو إلى عدم التجانس في بلدان الشتات» بعد قضاء أربعة عشر شهراً في إسرائيل ورؤية عائلات من ايلات حتى حيفا والجليل، يمكنني القول بأن الغالبية العظمى من يهود إسرائيل هم الأقل يهودية في العالم. فيهود الشتات هم أكثر علماً بديانتهم وتراثهم. تعلمت الديانة اليهودية في أمريكا ولكن يبدو أن أقل ما يهتم به الإسرائيليون هو الديانة اليهودية. ففي يوم السبت يشكل الإسرائيليون الذين يلعبون كرة القدم أو يستلقون على الشواطىء، أو يلعبون كرة السلة أو ينهمكون في نشاط غير ديني، نسبة أكثر بكثير من أولئك الذين يمارسون شعائرهم الدينية في الكنائس، يريد نافون أن يعلمنا الديانة اليهودية، لنقل له: علم مواطنيك ديانتهم قبل أن تنقد اليهود في الخارج.

إذا ما أرسلنا طلاب مدارسنا الثانوية إلى إسرائيل فنحن إما سنخسرهم، لأن البيروقراطية ستبرمجهم وإلا سينحرفون عن اليهودية! قليل جداً من الشباب لا ينكشف لهم وهم ديانتهم إذا استطاعوا البقاء بعد عملية غسل الدماغ الإسرائيلية.

عندما أخبرت أربيلا وعائلتي مكتب نافون عن مصاعبنا قالوا: «هذا غير ممكن، مثل هذه الأشياء لا تحدث في إسرائيل!» حسناً يا رئيس نافون، ذلل هذه الأمور (المستحيلة)

التي (لا تحدث في إسرائيل) قبل أن تطلب من اليهود المتحضرين الهجرة إلى أرض «الميعاد، الوعود».

قسم آخر من خطاب نافون الترحيبي لبعثة رئيس المنظمة اليهودية العالمية في عام ١٩٨٠ كما أوردته الجيروزاليم بوست، تظهر نيته في التأكيد على ما يجب إنجازه بمساعدتهم. فبإمكان يهود الشتات مساعدة الآلاف من المهاجرين الذين لا بيوت لهم، والمتزوجين حديثاً، والعائلات الكبيرة. فقط طلب الرئيس نافون مساعدتهم مالياً وشخصياً وشجع التضامن اليهودي في كل مكان. بدلاً من سؤال يهود الشتات لتحمل مسؤولية الكثير من الإسرائيليين لم لا يهتم نافون برفاهية شعبه بالأموال التي أُرسلت لهذه الغاية ولمساعدة الشعب؟ أم أن البيروقراطيين أودعوها المصارف السويسرية؟ توقفوا عن إبعاد المهاجرين عن **إسرائيل إن كنتم ترغبون فعلاً بنجاح الهجرة.**

نظفوا حكومتكم يا سيد نافون قبل أن تطلبوا من الآخرين أن يفعلوا ما يجب أن تفعلوه أنتم لشعبكم.

الفصل السادس عشر

إنهم لا يحبون أساليب إسرائيل

نشرت النيويورك تايمز مقالاً في ٢ تموز ١٩٨٠ يتعلق بموقف ٥٠ زعيماً أمريكياً يهودياً من التبسوية في الضفة الغربية، فقد وقع هؤلاء بياناً انتقدوا فيه العناصر المتطرفة في الحكومة الإسرائيلية وعبروا فيه عن رغبتهم في تسوية الضفة الغربية.

كان البيان وعنوانه (طريقنا غير طريقتهم) تصريحاً من ٢٥٠ إسرائيلياً بشجب العناصر المتطرفة في الحكومة الإسرائيلية، هذه العناصر التي تشكل تهديداً للصهيونية، وتستعمل العنف لدعم قضيتها (التي هي غير قضية الصهيونية) هؤلاء الناس تخلوا عن كل الأخلاق والقيم التي كانت أساسية للمجتمع الإسرائيلي. فقال ليوناردو فين، وهو أستاذ الدراسات اليهودية في جامعة برانديس للذين وقعوا البيان أن البيان أثر تأثيراً كبيراً على المنظمات اليهودية الأمريكية التي تشكل أساساً في الدعم الأمريكي لإسرائيل.

وقد أكد الأستاذ فين بأن هؤلاء الزعماء الأمريكيين، اليهود كانوا يفرقون بين الدعم لدولة إسرائيل وسياسات الرئيس بيغن. إذ يجب استمرار الدعم لدولة إسرائيل بينما لا ينطبق ذلك على سياسات الرئيس بيغن. من الذين وقعوا بيان (طريقنا غير طريقتهم)، ثلاثة رؤساء

سابقين لمؤتمرات رؤساء منظمات يهودية رئيسية. ثلاثة رؤساء سابقين للوكالة اليهودية المتحدة، ثلاثة رؤساء سابقين لأقسام من المنظمات اليهودية العالمية، خمسة أعضاء من المكتب التنفيذي الصهيوني والعديد من الحاخامين. وقد حضر فين واثنان آخران مؤتمراً إعلامياً دافعوا فيه عن البيان. وسئلوا ما إذا كان من حق غير الإسرائيليين انتقاد حكومة إسرائيل؟ ولماذا لا يهاجرون هم أنفسهم إلى إسرائيل ويلعبون دوراً مباشراً فيها؟ فأجاب فين بأن البيان كان مناسباً حيث أن اللقاءات الخاصة مع رئيس مجلس الوزراء لم تخرج بنتائج محسوسة.

إن بيان (طريقنا غير طريقتهم) ينم عن عدم الرضا عن الأوضاع في الضفة الغربية ويحث على العودة إلى طريق السلام.

نشرت الجيروزاليم بوست مقالاً عن سفارة إسرائيلية اتخذت إجراءات عدائية ضد برنامج مذاع من محطة راديو هولندية يناقش أوضاع الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية. قالت السفارة بأن البرنامج هو محاولة غير متوازنة لمناقشة الوضع وأن جميع المعلومات التي وردت كانت مبنية على الاشاعات.

ركز البرنامج على تظلم السجناء من التعذيب، وقد تضمن مقابلة مع امرأة هولندية كان قد أُطلق سراحها من أحد السجون الإسرائيلية بعد أن أمضت ثلاث سنوات هناك. اعترف متحدث باسم السفارة ببعض حالات سوء المعاملة للسجناء ولكنه قال بأن تلك ليست ممارسات معتادة،وغضب الإسرائيليون لأنه لم تتح لهم فرصة مناقشة وجهة نظرهم.

في مقال لتشارلز لازراس في الجيروزاليم بوست أشار فيه نقلاً عن الكاناديان جويش نيوز بأن بيتر اوستينوف انتقد إسرائيل في حديث له. ففي مؤتمر للمؤسسة الكندية للمحاسبين الخاصين في مونتريال كان اوستينوف قد دُعي إليه ليقدم بعض المنوعات الترفيهية، خرج ببعض الأقوال ضد إسرائيل،وقد أخبر المحاسبان مورتي زافران وبوريس ليفاين الكاناديان جويش نيوز بأن اوستينوف انتقد رئيس مجلس وزراء إسرائيل بيغن وسياسة إسرائيل العامة تجاه منظمة التحرير الفلسطينية.

وعلق أوستينوف بأن بعض السياسيين ممثلون مثل مناحيم بيغن وهنري كيسنجر عندما قبلوا جائزة نوبل للسلام دون أن يكونوا قد ربحوها. وأشار اوستينوف إلى تاريخ بيغن وانخراطه في نشاطات إرهابية، وتابع الممثل حديثه واصفاً عرفات بأنه قائد ويجب أن يُعامل كرجل دولة حقيقي مستقبلاً، كما عبر عن شكوكه حول حقوق إسرائيل التاريخية التي تدعيها في الضفة الغربية.

وعندما سمع أوستينوف بأن بعض الحاضرين من أعضاء المؤسسة الكندية قد امتعضوا من حديثة التقى معهم وقال ليفاين بأنه لم يشعر بأن أوستينوف كان ضد السامية «إنما اختار إسرائيل فقط كمثال على عدم إنسانية الإنسان والحكام».

وقد كتبت مهاجرة إلى إسرائيل اسمها بربارة راباموورت عن المعاملة التي لاقتها بعد انتقالها لإسرائيل، كتبت رسالة إلى رئيس التحرير في الجيروزاليم بوست. لقد جاءت من وزارة الاستيعاب والوكالة اليهودية تشعر بالاحباط وخيبة الأمل. وقالت مع مرور الوقت تخلق الحاجة إلى الامتزاج ضغوطاً تجعل المرء ينسى المشاكل التي واجهها أولاً. كانت ترغب فقط بتذكير الآخرين بالحاجة إلى الترحيب بالمهاجر وليس تنفيره.

وصلت رسالة أخرى إلى الجيروزاليم بوست من سائحة كانت تتذمر من أنها لم تجد في أي مكان ترحيباً صادقاً أو ابتسامة، وقد نوهت بأن السياح يزودون إسرائيل بدخل لا يُستهان به ويتوجب معاملتهم بود. فعمال الفنادق مثلاً الذين يمثلون وجه إسرائيل بالنسبة للسياح يجب ألا يخلقوا لديك الانطباع بأن الإسرائيليين شعب تعيس.

سائح آخر وصف تجربته مع شركة العال في رسالة إلى الجيروزاليم بوست! قال «إن على المسافر بعد أن يشتري بطاقة سفره ألا يقوم بخطوات أخرى باتجاه وجهة السفر لأنه ببساطة سيهدر وقته وماله وسيتصل هاتفياً لالغاء تلك الترتيبات إذ أن المسافر على شركة العال سيجد المقاعد ضيقة وغير مريحة، والمراحيض غير مناسبة وقابلة للكسر، وطاقم الطائرة فاتر وغير ودود يتحدث بالعبرية والخدمة سيئة والطعام أسوأ.

ويزيد الأمر سوءاً حقيقة أنه لا يُسمح للمسافرين مغادرة مقاعدهم وهم بعد على

الأرض، جميع هؤلاء قالوا بأن الرحلة إلى إسرائيل لا تدع لدى المسافر أي أمل في إجازة ملائمة في إسرائيل».

الفصل السابع عشر

هل إسرائيل صديقة لأمريكا

ناقش ليون فاين موقف إسرائيل من المخدرات في مقالة له نشرتها جمعية الأمريكيين والكنديين المقيمين في إسرائيل تحت عنوان (المخدرات، القانون وإسرائيل) مسافر يُدان بتهمة حيازة، بيع أو شراء أو تعاطي مخدرات قد يصدر حكم بالسجن عليه لمدة عشر سنين. قبل حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ كان الحشيش شائعاً في الأماكن التي يرتادها العرب، والمهاجرون من البلدان الإسلامية غالباً ما يجلبون معهم عادات بلادهم وتقع إسرائيل في طريق تهريب المخدرات وبذلك تكون وطناً مؤقتاً للمخدرات المهربة.

إن الزيادة الأخيرة في عدد المتعاملين بالمواد غير المشروعة أدت إلى زيادة العقوبات والأحكام وبمئات السياح من أصحاب السوابق والمحكومين في هذا الحقل نصفهم تقريباً من مواطني الولايات المتحدة وكندا. وكانت تلك الاعتقالات بسبب الحيازة والاستعمال أكثر منها بسبب البيع والشراء.

إن قانون العقاقير الخطرة، الصادر عام ١٩٣٦ ما يزال نافذاً حتى اليوم، فالحشيش والكوكائين والمورفين والماريجونا والافيون والمسكالين، جميعها عقاقير خطرة يُمنع التعامل بها بأي شكل للاستهلاك الخاص أو للبيع، والإسرائيليون مقيمون أو مواطنون يمكن إدانتهم بمثل هذه

الجنح إذا ما ارتكبوها في الخارج وكانت ضد القانون في المكان التي أُرتكبت فيه. إن العقوبة القصوى، وهي عشر سنين سجن أو ١٥٫٠٠٠ دولار من حق قضاة محكمة المنطقة المؤلفة من ثلاثة قضاة أما إذا كان القاضي واحداً فالعقوبة القصوى هي أربع سنين، وإذا نظر في القضية في محكمة أعلى، فالعقوبة القصوى هي ثلاث سنوات. لا يوجد نظام قضائي في إسرائيل.

قد يُعاقب المعتقلون من غير الإسرائيليين المتهمون بالتعامل بالمخدرات، بعقوبة الإبعاد، وأحياناً يُطلب منهم المغادرة ويمنعون من العودة. ويواجه الأمريكي أو الكندي إمكانية تهم أخرى لدى عودته إلى بلده. فإذا ما كانت علامات التآمر واضحة، يواجه محاكمة أخرى.

هؤلاء الذين يُحكم عليهم بالسجن مع وقف التنفيذ، أو بتعليق العقوبة وبغرامة هم مجرمون للمرة الأولى أو أنهم يمتلكون كميات صغيرة من المخدرات، ويمكن للذي يقدم بطاقة طائرة أو أي دليل آخر على نيته مغادرة إسرائيل أن يتجنب السجن. يُطلب إلى المحاكم عامة أن تصدر أحكاماً قاسية من أجل منع التعامل بالمخدرات.

إن السفارتين الأمريكية والكندية، على علم بهذه الأحكام وتـزودان حكومتيهما بالمعلومات. وتظهر الأحكام من هذا النوع في السجل العدلي والاستمارات عند التقدم بطلبات عمل. ليس من الضروري أن يزوّد رجال الشرطة الإسرائيليون بأمر إلقاء القبض على شخص ما إذا اعتقدوا بأنه يحوز على مخدرات، وبالتالي فالناس الذين يظهرون بمظهر الهبيين عرضة للتفتيش دائماً. ومن يرفض مرافقة رجل الشرطة إلى المخفر أو يحاول الهرب تعرض للملاحقة وللاعتقال هنا وهناك. يمكن تفتيش البيوت والشقق بدون أمر إذا ما ارتأت الشرطة ذلك. وعندما تعرض الحالة على المحكمة تؤخذ جيمع الأدلة بالاعتبار حتى ولو ظهر أن ظروف الاعتقال غير نظامية. ورغم أنه لا يوجد في إسرائيل دستور رسمي فللفرد حقوق ثابتة: يضمن القانون حق البقاء صامتاً، وحق استعمال الهاتف لمرة واحدة، ويسمح لمحامي المشبوه أن يجتمع به بأقرب وقت. وإذا كان المتهم لا يتكلم العبرية يحق له أن يطلب أن تكون المحاكمة بالإنكليزية، بما في ذلك إفادته واستجوابه.

يحق للشرطة توقيف المتهم ثمان وأربعين ساعة ويحق لهم تمديد مدة التوقيف بإذن من

المحكمة لمدة أقصاها خمسة عشر يوماً. ويسمح بإخلاء السبيل بكفالة وقد تطلب المحاكم دفعة نقدية إلى جانب كفالة من إسرائيلي معروف شرط أن يحضر المتهم المحاكمة لاحقاً. ومذكرات القبض على المتهربين من الكفالة يعمل على تنفيذها عن طريق الانتربول ولدى إسرائيل اتفاقيات تسليم مجرمين مع الولايات المتحدة ودول عديدة أخرى. تحدد المحاكمات بعد بضعة أسابيع لمن هم في السجن وبعد شهر لمن هم خارج السجن بكفالة. والوقت الذي يمضيه المتهم في السجن قبل المحاكمة يُحتسب من الحكم. أحياناً يسمح بزيارة الموقوفين، وبالبريد، والطعام، والطرود، بحسب لوائح السجن، ويحاكم الأولاد تحت سن السادسة عشرة والبنات تحت الثامنة عشرة في محاكم الأحداث.

لكل إنسان الحق باستئناف الحكم والادانة، ولكنه سلاح ذو حدين قد يطلب المتهم تخفيف الحكم، بينما يطلب النائب العام جعله أكثر قوة. ومن يُحكم بمدة أقل من ثلاثة أشهر فله أن يعمل في مركز الشرطة بدلاً من الذهاب إلى السجن. السلوك الجيد يخفف مدة الحكم الأكثر من ثلاثة أشهر إلى ثلاثة أسابيع ويمكن للمحكوم أن يتقدم بطلب عفو أو استرحام.

أما إذا كان الأمر يتعلق بإسرائيلي ضُبط وهو يتعاطى الحشيش أو الماريجونا، فيوقف لليلة واحدة ويدفع أقل غرامة (مثلاً الإسرائيليون الذين كلمتهم في سجن مركز شرطة ناتانيا اعترفوا بأنهم من ذوي السوابق ومع ذلك حُكم عليهم بدفع غرامة) فلماذا يُطبق القانون على الأجانب وبخاصة الأمريكيين؟ أليست إسرائيل صديقة أمريكا؟! يصر نظام العدل الإسرائيلي (الأفضل تسميته نظام الظلم) على تحطيم حياة المتهمين الأمريكيين مواطني البلد الذين بنوا دولة إسرائيل مالياً بينما لا يحاولون حتى تقويم الإسرائيليين الذين يخرقون القانون باستمرار؟.

أين المئات وربما الآلاف من الأمريكيين أصحاب جوازات السفر المحتجزة في مركز شرطة تل أبيب؟ هل تقوم إسرائيل بمحاكمتهم كما فعلت معي؟ هل تعرف حكومة الولايات المتحدة أين هم؟ ألا يتوجب على رئيس الولايات المتحدة أن يهتم بسلامة الأمريكيين في الشرق الأوسط بدلاً من أن يتفاوض مع حكومة تظلم وتعذب مواطنيه؟.

إذا ما كانت إسرائيل صديقة لأمريكا فلماذا لم تلق الاقتراحات العالمية من اليهودية الأمريكية أي اهتمام؟.

كتبت شيرلي غودمان، رئيسة مجلس كليفلاند للهجرة إلى رئيس تحرير إحدى المجلات وقد وجهت ملاحظتها إلى مناحيم بيغن. وأكدت أن الهجرة الأمريكية فاشلة وأن معظم المهاجرين الأمريكيين عادوا إلى بلدهم الولايات المتحدة وأن عدد المهاجرين الأمريكيين ينقض وأن بوسع إسرائيل أن تفيد من المعرفة التقنية، والأخلاق الأمريكية كما يمكن لليهود الأمريكيين أن يستفيدوا من الإسهام في بلدهم وتربية أولادهم في الدولة اليهودية.

قالت: إن الموظفين يسيئون معاملة المهاجرين الأمريكيين وأن المبعوثين لا يفهمونهم، وأن الأمريكيين لا يستفيدون من دعم المنظمات الأمريكية للأمريكيين المستوطنين في إسرائيل وأن فرص العمل للأمريكيين محدودة،فإسرائيل لم تصل بعد إلى المستوى الصناعي الذي وصلت إلى أمريكا.

وقد ذكّرت السيدة غودمان بيغن بأنه التقى بمجلس كليفلاند للهجرة،واعتبر هذه المنظمة ومثيلاتها كمصدر لقيادة جديدة للهجرة وطلبت منه أن يأخذ بالاعتبار هؤلاء القادة الجدد واقتراحاتهم عندما يفكر بحلول لمشاكل الهجرة. والجواب بالنسبة للآنسة غودمان كان هجرة ينظمها الأمريكيون ويديرونها وهم القادرون على بناء صناعتهم وتنظيماتهم في إسرائيل.

كما أسمعت الآنسة غودمان صوتها في رسالة إلى رئيس تحرير الجيروزاليم بوست. فدعت إلى دعم الأمريكيين اليهود لتحمل المسؤولية في هجرتهم وتقديم خطة واضحة دقيقة لعملهم ووجوب تشكيل هيئة وطنية ومكاتب مختصة بالهجرة في جميع نواحي البلد، تعمل وتتعاون مع تلك الموجودة في اسرائيل لخلق مستعمرات أمريكية تمتزج فيها الثقافتان الأمريكية والإسرائيلية وتحل هذه المستعمرات محل مراكز الاستيعاب. ويمكن للأمريكيين أن يذهبوا مباشرة إلى إخوتهم الأمريكيين ليتعلموا العبرية ويتأقلموا مع اسرائيل. بينما تكون خدمات الاستخدام، والاسكان والخدمات الأخرى بدلاً من أن تنتشر هنا وهناك. وسيقوم الأمريكيون بدعم من رجال الأعمال الأمريكيين في بلدهم بإدارة الأعمال في المستعمرات. كما ستقدم معسكرات الشباب الأمريكي والجامعات والمتقاعدون الأمريكيون خبراتهم لهذه المستعمرات.

بيغن وبقية البيروقراطيين الإسرائيليين لا يرحبون بمثل هذه الخطط لأسباب عديدة:

١ ــ لا يرغبون بأن تخرج مسألة التحكم بالمهاجرين والأموال الطائلة التي يمثلونها من أيديهم .
٢ ــ لا يرغبون أن يطلع الإسرائيليون الذين لا يعرفون أمريكا على طريقة الحياة الأمريكية .
٣ ــ لا يريدون أن يتعلم الإسرائيليون طرقاً أفضل ويخرجون من الطوق الذي يحيطهم به البيروقراطيون .
٤ ــ لا يريدون للإسرائيليين أن يكتشفوا أنهم لا يعيشون في دولة ديمقراطية حقيقية . لقد شوه هؤلاء البيرقراطيون الذين يحكمون البلد حلم دافيد بن غوريون بدولة إسرائيل ديمقراطية .
٥ ــ لا يريدون أن يكون الأمريكيون بموقع يمكن أن يكتشفوا منه ماذا كانت تفعل حكومة إسرائيل بالمعونات الأجنبية التي أُرسلت إليها .

ولأن البيروقراطيين الإسرائيليين فاسدون فهم لم يروا إلا الجانب السلبي من الخطة، ولا يريدون أن يفتحوا أعينهم ليروا بأن طريقهم ليست الطريق الأفضل! يريد الأمريكيون المساعدة في تطوير إسرائيل لمحبتهم بالدولة اليهودية وليس ليظهروا بأنهم أكثر وأفضل علماً من الإسرائيليين .

الخاتمة

الغاية من هذا الكتاب وضع حد لموقف «لا أقول شراً لا أسمع شراً، لا أرى شراً للبيروقراطية الإسرائيلية إزاء مشاكل إسرائيل. فبعد أن أتممت قصة محنتي مدعمة بالمعلومات والحقائق من رسائل ومقالات نُشرت في الصحف. أعتقد أنني قدمت كشفاً لا يدحض ولا يمكن لحكومة إسرائيل تجاهله ولا يمكن لأقوال مثل، «هذا مستحيل! مثل هذه الأشياء لا تحدث في اسرائيل!» أن تغطي هذه الفضيحة.

- إنني حزين، ليس على نفسي ولكن على ملايين اليهود وغير اليهود الذين يصلّون من أجل إسرائيل. وحزين على أولئك اليهود وغير اليهود المرموقين الذين أخذوا من أنفسهم ليعطوا إسرائيل وهم غير مدركين بأن حلمهم (وحلم دافيد بن غوريون) قد تحول إلى كابوس! فقد كانت إسرائيل أشبه بطفل جميل أحببناه ورعيناه. وكانت أمريكا والدول الأخرى بمثابة الأهل الذين أعطوه وحاولوا إرشاده.

ولكن اتضح أن إسرائيل طفل فاسد جاحد للذين آثروه على أنفسهم، إنه فقط يطلب المزيد والمزيد وهو يقول: «لا أريد نصحكم، أود أن أفعل ما أريد!». أحمد الله على أن لدى الولايات المتحدة الأمريكية دستوراً يحفظ جميع حقوقي. عندما ستعرف حكومة إسرائيل بهذا الكتاب، وستتحقق من أنني فقتهم فطنة، فستحاول إنكار القضية بأكملها، وربما ستحاول

الرد علي وتطلب تسليمي إلى إسرائيل. لحسن الحظ، أنا مواطن أمريكي وقوانين أمريكا تمنع تسليمي! قررت المحاكم الإسرائيلية الموافقة على قرار الأطباء المتعلق بوضعي، ووافقوا على إعادتي إلى أمريكا مبرئة إسرائيل من أي تهمة حول إساءة معاملتي.

إن قانون الخطر المزدوج وحقي في أن أُحاكم أمام محكمة غير منحازة أمام قاض من الشرفاء مثلي، يمنع إسرائيل من المطالبة بتسليمي. كما أن مدة السنوات السبع المنصوص عنها بالقانون قد انقضت.

لماذا يتعثر اقتصاد إسرائيل؟ فمنذ عام ١٩٤٩ ودون ذكر الأموال المقدمة من المنظمات اليهودية والبلدان الأخرى، أرسلت الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من تسعة عشر مليار دولار ونصف إلى إسرائيل على شكل اعانات عسكرية واقتصادية (حسب أرقام الحكومة الأمريكية لعام ١٩٨٠) أين ذهبت هذه الإعانات جميعها؟ وهي أكثر بثلاث مرات مما أُرسل إلى اليابان وألمانيا الغربية مجتمعتين! علماً بأن لهاتين الدولتين النقد الأكثر ثباتاً في العالم! يمكن أن تفسر الحرب قسماً من الإنفاق. يقول الرئيس كارتر بأنه كان مسؤولاً عن أكثر من نصف المساعدة التي أُرسلت إلى إسرائيل.

إنها مصادفة حسنة، ففي الفترة بين ١٩٧٧ إلى آب ١٩٨٠ أرسل الرئيس كارتر عشرة مليارات دولار مساعدة لإسرائيل. هل وصلت إلى الناس؟ ففي عام ١٩٧٧ كان الدولار يعادل أربع ليرات إسرائيلية بينما في عام ١٩٨٠ كان الدولار يساوي أربعين ليرة إسرائيلية! هبطت قيمة العملة الأمريكية بشكل كبير، غير أن قيمة النقد الاسرائيلي تدنت أكثر من ١٠٠٠ بالمئة بالنسبة للدولار منذ أن بدأ السيد كارتر بإرسال المعونة لإسرائيل! لقد ذهبت مليارات الدولارات إلى مكان ما، ولكن قطعاً ليس للشعب! لقد أصبح الأغنياء أكثر ثراء والفقراء أكثر فقراً والطبقة العاملة في إسرائيل مازالت تناضل بشكل أقوى وأصعب من أجل البقاء دونما أي تفكير في التقدم.

الدكتور سكوت
روستـــــون
١٠ أيلول، ١٩٨٠

نشر العدد ٢ أيلول ١٩٨٠ من الايغنينغ تايمز مقالاً عن سجون إسرائيل، ولم تسمح الحكومة الإسرائيلية بإجراء تحقيق عام حول حالة السجون في المناطق العربية المحتلة حيث وجهت لجنة العفو اتهامات لإسرائيل حول تعذيب وسوء معاملة السجناء العرب.

إضافة لذلك، لم يحاكم الموظفون المسؤولون عن موت سجينين عربيين كانا قد أعلنا الاضراب عن الطعام، وأجبرا على تناوله. أحدهما مات بالتهاب الرئة، والآخر خنقاً عندما سد الطعام مجرى التنفس لديه.

طالبت لجنة العفو الدولية بتحسين أوضاع السجون ووقف تعذيب السجناء العرب والكشف عن جميع الإجراءات المتخذة المتعلقة بذلك. رفضت إسرائيل الفكرة بشدة ومازالت ماضية في أسلوبها.

الفهرس

كابوس في إسرائيل / سكوت روستون ؛ ترجمة الهام رحال . ــ
دمشق : دار طلاس ، ١٩٩١ ــ ٢٣٦ ص ؛ ٢٠ سم .

١ ــ ٩٢٦ : روستون ، سكوت ر ٢ ــ العنوان ٣ ــ روستون
٤ ــ رحال

مكتبة الأسد

ع ــ ١٩٩١/٦/٥٣١

رقم الإصدار ــ ٥٢٩


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين



al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

نشرت جريدة «البعث» العدد ٧٢ ، تاريخ ٧ / ١٠ / ١٩٨٨ على الصفحة / ١٢ / ، تحت عنوان «السجن الدائم مدى الحياة» ما يلي :

لوس أنجلوس — سانا ...

حُكِمَ على الأمريكي سكوت روستون بالسجن مدى الحياة بسبب إدانته بتهمة قتل عروسه بإلقائها في البحر. ونقلت «رويتر» عن الدفاع قوله أثناء محاكمة روستون — ٣٠ سنة — وهو متخصص في العلاج الطبيعي ، أن عملاء إسرائيليين هم الذين ألقوا بالعروس في البحر في شباط ١٩٨٨ انتقاماً من العريس بعد نشره كتاباً يكشف جرائم السلطات الإسرائيلية في فلسطين المحتلة وخارجها .

وكان روستون قد نشر كتابه بعنوان « كابوس في إسرائيل » عام ١٩٨٧ .